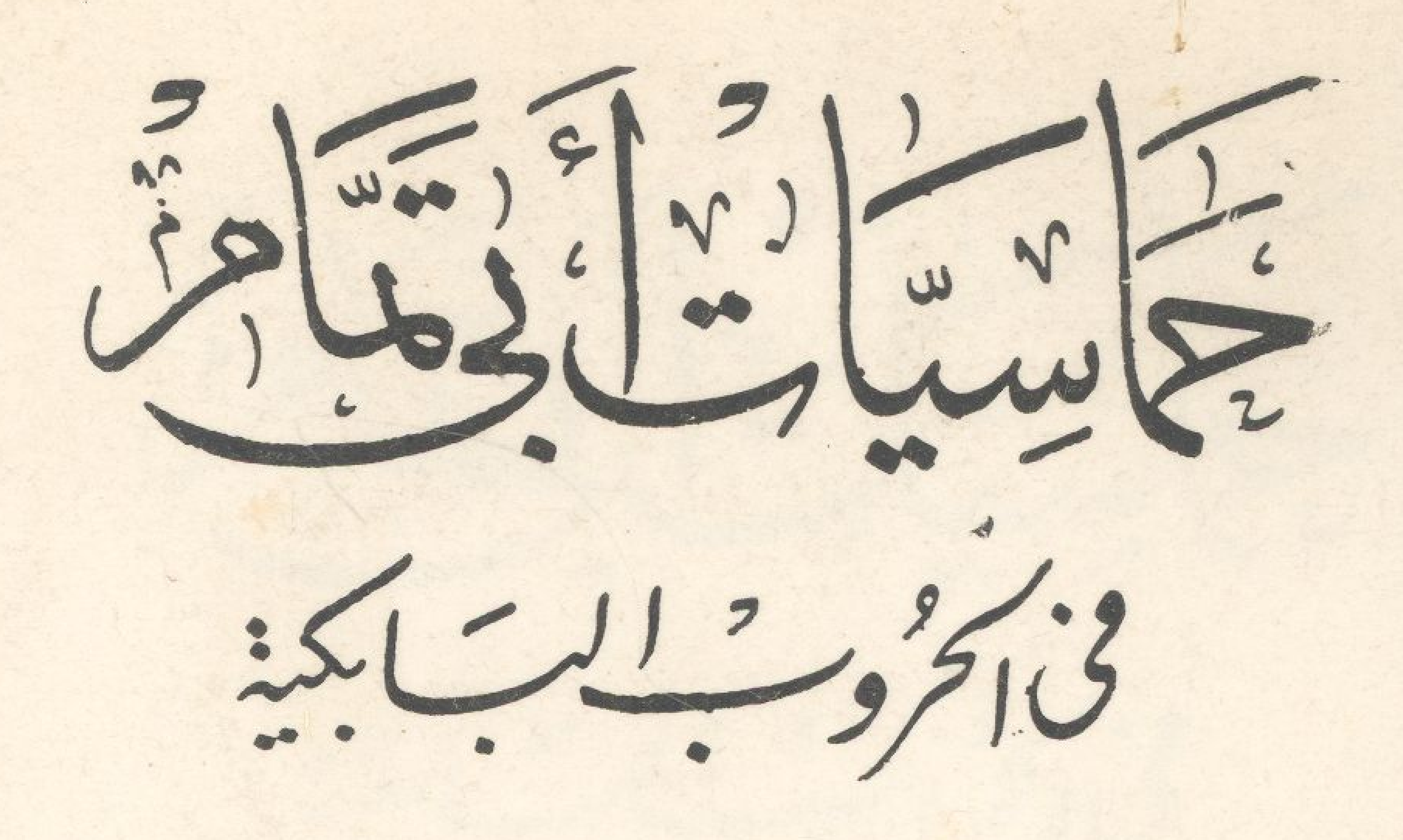
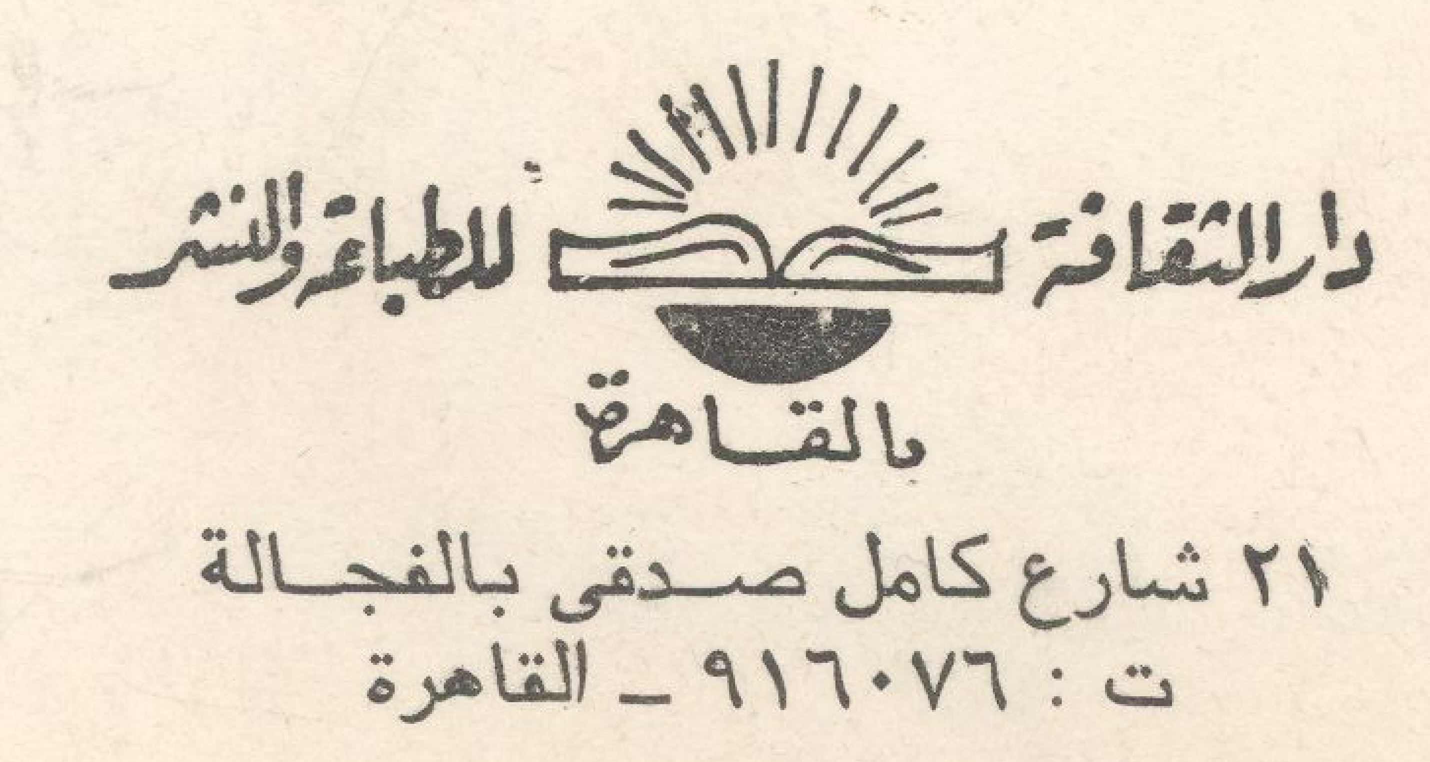


تأليف

دكتور شوقى رياض أحمد

١٩٧٨



٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة

حماسيات أبي تمام

في الحروب البابكية

تأليف

دكتور شوقي رياض أحمد

١٩٧٨



إهداء

إلى المجاهدين فى سبيل الحق، على مدى التاريخ ...
تكريما للتضحية، وتخليدا للبطولة ...

شوقى رياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أبو تمام الطائى من فحول شعراء العربية الذين بلغوا مكانة رفيعة فى تاريخنا الأدبى على اختلاف عصوره، وكان فى عصره قمة أدبية لم يطاولها شاعر من معاصريه، ورائد مدرسة تجديدية فى فن الشعر، كان لها أثرها البارز فى أجيال الشعراء، الذين ظهروا بعده على مسرح الحياة الأدبية. وقد شغل علماء العربية ودارسى أدبها ونقاد شعرها، منذ عصره حتى عصرنا، فدارت معارك نقدية حامية بين مؤيديه ومعارضيه، الذين اتهموه بالخروج على عمود الشعر، والإغراق فى البديع، والإبهام والتعقيد فى المعانى والألفاظ، إلى غير ذلك من اتهامات أرادوا بها النيل من شاعريته، والغض من مذهبه الفنى، وتصدى لهم مؤيدوه يردون اتهاماتهم، ويدحضون آراءهم، ويثبتون له التفوق والسبق، والتجديد والابتكار. وكانت نتيجة ذلك كله إثراء عظيما لتراثنا الأدبى والفنى.

وارتبط شعر أبى تمام فى أذهان الدارسين بتلك المعارك والقضايا التى أثيرت حوله، وجذبهم تيارها القوى، فلم يستطيعوا التخلص منها أو تجنبها حين تناولوه بالدراسة والبحث، وكأن ذلك الخضم الهائل من شعره، الذى يملأ أربعة مجلدات، لاينبغى أن ينظر إليه الا من زاوية مذهبه الفنى، ناسين بذلك، أو غافلين عما يحويه ديوانه، من موضوعات أدبية

وتاريخية ، تستحق أن تدرس وأن يعنى ببحثها (ومن ثم نشأ اهتمامى بتلك الجوانب المهملة فى ديوانه ، ومنها اخترت موضوع هذا البحث ، لعلى أستطيع استجلاء جانب من شعره فى ضوء الظروف والأحداث التى واكبته، وجعلت عنوانه الحماسيات ، مع أن القصائد التى تدخل فى إطاره ، من شعر المديح أو الرثاء ، ولكن مضامينها حماسية تدور حول أحداث الحروب البابكية وبطولاتها ، ثم إن أبا تمام هو صاحب المختارات الشعرية المعروفة بديوان الحماسة . وهناك علاقة وثيقة بين مختاراته هذه وبين قصائده الحماسية ، وأغلب الظن أنه جمعها لتكون مصدرا يفيد منه ويستلهمه فى نظم حماسياته ، التى هى أحرى بهذا العنوان المشتق من تسمية شاعرها .)

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يشتمل منهجه دراسة للحركة البابكية ومبادئها وعقيدتها الخرمية ، والعوامل التى أدت إلى قيامها واستشراء نفوذها وقوتها ، وأن يشمل أيضا تقصيا دقيقا للوقائع والحروب التى دارت بين جيوش الدولة العباسية ، وبين بابك وأتباعه الخرمية ، حتى يكون فهمنا لشعر أبى تمام مبنيا على أساس سليم ، وقد تبين لى بالفعل ، فى كثير من المواضع التى أشرت إليها خلال البحث ، أن شراح ديوانه ودارسى شعره ، قد جانبهم التوفيق فى الوقوف على المعنى الدقيق الذى يقصده الشاعر ، نتيجة لعدم الربط بين شعره وبين أحداث تلك الحروب وتطوراتها .

وفى دراسة النصوص الشعرية ، قسمتها الى فصول بحسب الشخصيات التى نظم فيها قصائده ، ففصل فى رثاء محمد بن حميد الطوسى ، وفصل فى

انتصار إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، وفصل فى انتصار الأفشين ، وفصل مع محمد بن يوسف الثغرى أثناء الحروب ، وفصل آخر معه أيضا بعد انتهائها ، ثم فصل أخير مع أبى دلف العجلى . وقد آثرت تناول كل قصيدة كوحدة متكاملة محللا أبياتها فى ضوء ما أحاط بها من ظروف ، وما تضمنته من وقائع وأحداث ، وما أثير حولها أو حول بعض أبياتها من نقد أو تعليق ، مع الإشارة بين آونة وأخرى إلى الخصائص المميزة لمذهب أبى تمام الفنى ، دون ما إغراق فى ذلك حتى لا نخرج عن موضوع القصيدة ، أو نبعد عن جوها الحماسى . وتوخيت إبراز المعانى والصور التى تتضمنها الأبيات لتكون واضحة للقارئ ، وبقصد تذليل صعوبات الغموض والتعقيد التى تلف كثيرا منها ، والتى يقصر شراح ديوانه أو يختلفون فى تحديد معانيها أحيانا غير قليلة . وأحسب أن هذا مطلب ضرورى فى تحليل شعر أبى تمام خاصة ، حتى لا تكون هناك فواصل تحول بيننا وبين فهمه على الوجه الصحيح .

والمصادر الأساسية التى استعنت بها فى هذا البحث بين أدبية وتاريخية ، وفى مقدمة المصادر الأدبية ديوان أبى تمام بشرح التبريزى الذى حققه الأستاذ محمد عبده عزام ، ثم المصادر الأخرى التى تناولت حياته وشعره مثل « أخبار أبى تمام » للصولى ، و « هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام » للبديعى و « الأغانى » لأبى الفرج و « الموازنة » للآمدى وغيرها من المصادر والمراجع التى عرضت لدراسته تفصيلا أو إيجازا . أما المصادر التاريخية ، فأهمها تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير ، ثم تأتى بعدها مصادر أخرى تضمنت أخبارا عن بابك ومذهبه وحروبه مثل « الفهرست »

لابن النديم و « البدء والتاريخ » للبلخى وتاريخ اليعقوبى ، وغيرها من المصادر .

وإننى إذ أقدم هذا البحث لدارسى الأدب والتاريخ ، لأرجو أن يكون إضافة جديدة فى هذا المجال ، وكشفا لجانب من تراث شاعر العربية أبى تمام . وإسهاما فى بناء صرحنا الحضارى ، والله ولى التوفيق .

القاهرة فى يوليو سنة ١٩٧٨ .

دكتور شوقى رياض أحمد

الفصل الأول

الحركة البابكية : مبادئها وعوامل قيامها

كانت حركة بابك الخرمى ، التي ظهرت على مسرح الأحداث ، منذ مطلع القرن الثالث الهجرى ، فى منطقة آذربيجان وماجاورها ، هى أشد الحركات المعادية الإسلام ودولته العباسية ، وأعظمها خطورة على الكيان الإسلامى سواء من الناحية العقيدية أو من الناحية السياسية ، إذ بقيت تلك الثورة أكثر من عشرين عاما فى نمو مطرد وقوة متزايدة ، واشتد أوارها ضراما واشتعالا ، حتى اصطلى بنارها عديـــد من قادة الدولة وجيوشها ، وهزموا هزائم منكرة فى محاولات إخمادها . ولم تكن هذه الثورة — فى واقع الأمر — إلا امتداداً لحركات مضادة للاسلام ، قامت قبلها فى أقاليم بلاد فارس، منذ بداية الخلافة العباسية وعلى وجه التحديد، عقب مقتل أبى مسلم الخراسانى على يد أبى جعفر المنصور . فقد اتخذ الثوار من مقتله ذريعة لإثارة الفتن ، وإذكاء العصبيات القومية والدينية ضد العرب والمسلمين ، ابتداء من خروج « سنباذ » بخراسان مطالبا بدمه[١] ، إلى حركة الراوندية الذين كانوا من أتباع أبى مسلم[٢] ، ثم ثورة « أستاذ سيس[٣] » وبعدها ثورة المقنع الخراسانى[٤] ، وغير ذلك من ثورات

---

(١) أنظر تاريخ الطبرى ج٧ ص ٤٩٥ .

(٢) نفسه ج٧ ص ٥٠٥ .

(٣) نفسه ج٨ ص ٢٩ .

(٤) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ٢٠٥ وفرق الشيعة النوبختى ص ٤٢ .

وحركات خارجة على الدولة العباسية ، كانت تنشب بين الحين والحين ، ويقضى عليها ولاة الأقاليم أو القواد الذين ينتدبون لذلك .

وعلى الرغم من انقضاء أكثر من ستين عاما بعد مقتل أبى مسلم إلى ظهور الحركة الخرمية ، فإننا نجد علاقة وثيقة تربط بين الحدثين ، ونرى لأبى مسلم مكانة جليلة فى نفوسهم وفى عقيدتهم ، فيقول البلخى : « ويعظمون أمر أبى مسلم ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبى مسلم[١] » كما نجد فى أقوال بعض من أرخوا لبابك أو ترجموا له أنهم ينسبونه إلى ولد فاطمة هذه[٢] . وسواء كان هذا النسب صحيحا أو غير صحيح ، فإن غاية الأمر تتمثل فى توثيق الصلة بينه وبين أبى مسلم تدعيما لحركته وتوسيعا لنفوذها .

وكان الهدف الرئيسى الذى تتطلع إليه الحركة الخرمية البابكية ، والذى تعمل جاهدة لتحقيقه ، هو القضاء على سلطان العرب الذى سيطر على بلادهم ، وهدم دينهم الاسلامى الذى نصرهم الله به ، والذى غلبت عقيدته الحقة على عقائدهم الزائفة . يقول البلخى : « إن الخرمية احتالوا فى إزالة الملك إلى العجم ، فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ، ودعوا إليها فى السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد[٣] » . ويقول عنهم نظام الملك : « ويبذل هؤلاء دائما كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الاسلام

---

(١) انظر البدء والتاريخ جـ٤ ص ٣٠ .

(٢) انظر الاخبار الطوال للدينورى ص ٢٩٧ .

(٣) أنظر البدء والتاريخ جـ٥ ص ١٣٤ .

قضاء مبرما [١] » فهى إذن حركة قومية ودينية فى الوقت نفسه ، غايتها استعادة مجد الدولة الفارسية ودياناتها المجوسية .

وينبغى أن نبسطَ القولَ عن الخرمية وعقيدتها ، لنعرف أصولها ومبادئها وتعاليمها معرفة صحيحة . ونبدأ باسمها ونسبته ، فالخرمية نسبة إلى خرم ، وهو لفظ أعجمى فارسى يعنى النضر والمزدهر والمبتهج ، ويعنى أيضا المكان المملوء بالبهجة والمرح ، ويذكر أيضا أن خرم اسم مكان يوجد به جبل يجيب على كل سؤال يوجه إليه [٢] . وذكر ياقوت أن تفسيره بالفارسية السرور ، وأنه رستاق بأردبيل عاصمة آذربيجان ، وأن الخرمية نسبوا إليه [٣] . وذكر الغزالى فى حديثه عن الخرمية أن « خرم لفظ أعجمى ينبىء عن الشىء المستلذ الذى يرتاح الانسان إليه بمشاهدته ويهتز لرؤيته [٤] » ويبدو أن هذا اللفظ نقل إلى العربية بمعناه ؛ إذ تذكره المعاجم العربية بمعنى : الناعم من العيش [٥] ويأخذ فان فلوتن من هذه التفسيرات المتعددة لاسم الخرمية خلاصة شبه جامعة بينها فيقول : « ويروى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من (خُرُم) اسم لمدينة ببلاد ميديا أو من كلمة (خُرَّم) ومعناها : لذيذ [٦] » .

---

(١) انظر سياسة نامه ص ٢٩٨ .

(٢) انظر معنى لفظ « خرم » فى المعجم الفارسى الانجليزى لشتينجاس .

(٣) انظر معجم البلدان كلمة « خرم » .

(٤) انظر فضائح الباطنية ص ١٤ .

(٥) انظر معنى اللفظ فى لسان العرب والقاموس المحيط .

(٦) السيادة العربية ص ٩٩ .

ومن الواضح أن معنى لفظ خرم يلقى ضوءاً على النهج الذى إتخذته الخرمية فى الحياة ، وهو نهج اللذة والمتعة . ويؤكد الغزالى هذه الصلة بين مذهبهم وتسميتهم فيقول « أما الخرمية فلقبوا بها نسبة إلى حاصل مذهبهم وزبدته ، فإنه راجع إلى طى بساط التكاليف وحط أعباء الشرع عن المتعبدين ، وتسليط الناس على اتباع اللذات ، وطلب الشهوات ، وقضاء الوطر فى المباحات والمحرمات[١] » .

وقد يلقب الخرمية بالخرمدينية ، وهذا ماذهب إليه البغدادى ، إذ قسم الخرمية إلى صنفين : صنف كان قبل الاسلام وهم المزدكية الذين استباحوا المحرمات وزعموا أن الناس شركاء فى الأموال والنساء ، والصنف الثانى: الخرمدينية الذين ظهروا فى الاسلام وهم فريقان : بابكية ومازيارية[٢] » وقد أخذ فان فلوتن بقول البغدادى فى تسميتهم الثانية يقول « فإذا ماتكلمنا عن خرم دينيا فلكى نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون دينا غير اللذة ، ومن هنا يتبين لنا أن هذه الطوائف وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التى لهن فى البلاد الشرقية، وأباحت لهن الظهور فى المجتمعات الدينية فلم يكن ذلك إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن فى تلك المجتمعات[٣] » .

---

(١) انظر فضائح الباطنية ص ١٤ .

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ١٦٠ ، والمازيارية نسبة إلى مازيار الذى ظهر باقليم طبرستان وخرج على الخلافة بتحريض الأفشين (الطبرى حوادث سنة ٢٢٤ هـ) .

(٣) السيادة العربية ص ١٠٠ .

وعن هذه المجتمعات الدينية التي أشار إليها فان فلوتن يقول البغدادي:
« وللبابكية في جبلهم ليلة عيد يجتمعون فيها على الخمر والزمر ، وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم ، فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم افتض فيها الرجال النساء على تقدير من عزيز[١] » ولكن استنتاج فان فلوتن أن هذه الطوائف جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التي لهن في البلاد الشرقية على أساس الاستمتاع بهن هو استنتاج خاطيء ، لا يقوم على منطق سليم .

أما الغزالي فيعد اسم الخرمدينية مرادفا للخرمية ، وأنهم جميعا لقبوا به سواء قبل الاسلام أو بعده يقول « وقد كان هذا (يعني الخرمية) لقبا للمزدكية وهم أهل الاباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام « قباذ » وأباحوا النساء إن كن محارم ، وأحلوا كل محظور ، وكانوا يسمون خرمدينية ، فهؤلاء أيضا لقبوا بها لمشابهتهم إياهم في آخر المذهب ، وإن خالفوهم في المقدمات وسوابق الحيل والاستدراج[٢] » .

ويلقب الخرمية أيضا بالمحمرة ، إذ تذكرهم مصادر كثيرة[٣] بهذا الاسم مرادفا لاسمهم وإن كان ابن النديم[٤] يخص بهذا اللقب أصحاب

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٦٠ .
(٢) فضائح الباطنية ص ١٤ .
(٣) انظر تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص ٥٧٥ وابن الأثير حوادث سنة ٢١٨ . وفضائح الباطنية ص ١٧ ومعجم البلدان مادة « بذ » .
(٤) انظر الفهرست ص ٤٧٩ .

مزدك ، وخلاصة القول أن هذه الأسماء أو الألقاب أطلقت على تلك الفرق جميعها لتشابه عقائدها ، وإتفاق مبادئها وتعاليمها فى كثير من الوجوه .

وقد أضافت الخرمية بعد الإسلام ، إلى المبادىء المزدكية القديمة ، مبادىء جديدة استمدتها من المذاهب المختلفة لتدعم بها عقيدتها ودعوتها المضادة للاسلام . يقول البلخى « هم فرق وأصناف ، غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة ، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحى لاينقطع أبدا ، وكل ذى دين مصيب عندهم ، إذا كان راجى ثواب ، وخاشى عقاب ، ولايرون تهجينه والتخطى إليه بالمكروه مالم يرم كيد نحلتهم وخسف مذهبهم ، ولهم أئمة يرجعون إليهم فى الأحكام ، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم « فريشتكان » ولايتبركون بشىء مثل تبركهم بالخمور والأشربة ، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة ، ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء ، وإباحة كل ماتستلذ النفس ، وينزع إليه الطبع[1] » .

وقد حرص الخرمية البابكية على التمويه فى دعوتهم بعدم إظهار العداء للديانات وإعلان مسالمتهم لها ، وكان مقصدهم الرئيسى بذلك أن يتجنبوا الاصطدام بالإسلام الذى يحيط بهم من كل جانب ، وليتمكنوا من نشر دعوتهم ، وجذب ضعاف العقيدة من المسلمين أبناء جنسهم ، فكانوا يزعمون — كما يذكر البغدادى — أن دينهم لايرفض الإسلام

---

(١) أنظر البدء والتاريخ ج٤ ص ٣٠ — ٣١ .

ويستطيع المسلمون أن ينضموا إليه ، كما أن بابك بنى لهم مساجد ،لا للصلاة ولكن ليؤذن فيها فقط ، وأنهم كانوا يعلمون أولادهم القرآن ،ولكنهم لا يصلون فى السر ، ويرفضون الصيام فى شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة ، كما كانوا يزعمون أن نبيا ظهر لهم فى الجاهلية اسمه « شروين » كان أبوه من الزنج ، وأمه من بنات ملوك الفرس ، ويذهبون إلى أن شروين هذا كان أفضل من محمد ، ومن سائر الأنبياء[١] .

ويؤكد نظام الملك موقفهم العدائى من الإسلام ورفض تعاليمه ، واتباعهم الحيل فى جذب الأنصار بادعاء التشيع لأهل البيت ، يقول « إنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر ، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية فى النساء » ويعتقد الانسان أن هذه المبادىء هى مبادىء مزدك ... كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم لنشر دعوتهم التى ترمى إلى هدم العقائد الاسلامية . ولهذه الأسباب يرى نظام الملك أن الخرمية والباطنية سواء[٢] . كما أن الغزالى اعتبرهم من الباطنية وتحدث عنهم فى كتابه المعروف باسم « فضائح الباطنية[٣] » .

---

(١) أنظر الفرق بين الفرق ص ١٦١ .

(٢) أنظر سياسة نامة ص ٢٩٨ ومابعدها .

(٣) أنظر فضائح الباطنية ص ١٤ .

ومن عقائد الخرمية التي نقلوها عن الباطنية وغيرها من المذاهب المتطرفة القول بالرجعة وتناسخ الأرواح ، كما يفهم من النص السابق للبلخي، وتؤكد كثير من المصادر قولهم بالتناسخ يقول ابن الأثير « ويعتقدون مذهب التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره[١] » وكذلك في حديث ابن الأثير وغيره من المؤرخين عن بدء خروج بابك ، ويذكرون أنه إدعى حلول روح جاويدان — زعيم الخرمية قبله — في جسده[٢] .

ومن مزاعم بابك أيضا ادعاؤه الألوهية ، يقول ابن النديم «وكان يقول لمن استغواه إنه إله[٣] »وهو في هذا الادعاء يذكرنا بالمقنع الخراساني، ونجد كذلك كثيرا من التشابه بين دعاوى الخرمية أو تهم وبين معتقداتهم وبين معتقدات المقنعية[٤] والراوندية، إلى جانب ماذكرناه عن صلتها الوثيقة بالمزدكية، بل إن هذه المذاهب التي كانت تموج بها بلاد آذربيجان وإيران وغيرها من مذاهب أخرى كالزرادشتية والمانوية تكون مجتمعة عقائد الخرمية[٥] .

---

(١) أنظر ابن الأثير حوادث سنة ٢٠١هـ .

(٢) أنظر ابن الأثير والطبري والمسعودي حوادث سنة ٢٠١هـ .

(٣) أنظر الفهرست ص ٤٧٩ .

(٤) أنظر الملل والنحل للشهرستاني جـ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ ، وفرق الشيعة للنوبختي ص ٤٢ — ٤٣ . والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢١٥ ، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم جـ٢ ص ١٠٦ ومابعدها .

(٥) أنظر تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم جـ٢ ص ١٠٧ .

بعد هذا العرض العام لمبادئ الخرمية وعقيدتها وأهدافها ننتقل إلى الحديث عن بابك وقيادته لحركتهم . وقد اختلفت الأقوال عن أصله ومنشئه ، فيقول الدينورى « والذى صح عندنا وثبت أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبى مسلم ، هذه التى تنسب إليها الفاطمية من الخرمية ، لا إلى فاطمة بنت رسول الله[1] » . أما ابن النديم فيذكر قصته منذ مولده على أنه من رعاع الناس ، وأن أباه كان رجلا من أهل المدائن اسمه عبد الله ، يعمل دهانا ، وأنه نزح إلى ثغر آذربيجان ، واستقر بقرية من قراه ، وعرف فى تطوافه امرأة عوراء ، ونشأت بينهما علاقة غير شريفة ، ثم افتضح أمرهما فتزوجها ، وولدت له بابك ، وكان اسمه الحسن ، ثم أخاً له سمى عبد الله ، ومات الأب وهما مازالا طفلين ، واضطر بابك إلى العمل مبكرا فى رعى البقر والدواب لدى بعض سراة القوم ، ولما شب قادته الظروف إلى العمل فى خدمة جاويدان بن سهرك أحد زعماء الخرمية فى الجبال ، فأحبته زوجة جاويدان حبا شديداً . ثم حدث أن مات زوجها عقب انتصاره فى معركة ضد زعيم منافس له من زعماء الخرمية ، فجمعت الزوجة جيش زوجها وأخبرتهم بأنه ترك وصية قال فيها ، إنى أموت ليلتى هذه ، وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، وإنه لا دين لمن خالفنى فيه ، واختار لنفسه خلاف اختيارى . ثم جعلتهم يبايعونه واحدا واحدا ، وكل منهم

---

(١) أنظر الأخبار الطوال ص ٢٩٧ ط ليدن .

يقول : آمنت بك ياروح بابك ، كما آمنت بروح جاويدان ، ويقبل يده ، وبعد أن تمت البيعة أعلنت زواجها منه[١] .

وفى هذا الحديث الموجز عن نشأة بابك حتى توليه قيادة الجاويدانية، مايفيد كثيرا فى استجلاء الظروف التى هيأت له القيام بحركته ، إذ وجد نفسه زعيما لأقوى فرقة من الخرمية ، وقائدا لجيش محارب يأتمر بأمره ، مما أغراه على القيام بثورته المسلحة ، والخروج على سلطان الدولة العباسية ، وساعده على ذلك أيضا أن المنطقة التى تمركز فيها تتميز بطبيعتها الجبلية ووعورة مسالكها ، وهى — كما حددهـــا المسعودى — بلاد البذين وآذربيجان والران والبليقان[٢] . ولعل طبيعة هذه المنطقة هى التى جعلتها مهدا للحروب والثورات على مدى زمن طويل ، فلم تهدأ الحروب والغزو

---

(١) انظر الفهرست ص٤٨٠ ومابعدها . وانظر مروج الذهب ج٢ص ٣٥٠.

ويذكر الطبرى رواية أخرى عن أصل بابك ، نقلا عن محمد بن عمران كاتب على بن مر . قال : حدثنى على بن مر عن رجل من الصعاليك يقال له مطر قال : كان والله يا أباالحسن بابك ابنى ، قلت : وكيف ؟ قال . كنا مع ابن الرواد، وكانت أمه « ترتوميذ » العوراء من علوج ابن الرواد ، فكنت أنزل عليها،وكانت مصكة (قوية) فكانت تخدمنى وتغسل ثيابى ، فنظرت إليها يوما فواثبتها بشبق السفر وطول الغربة ، فأقررته فى رحمها . ثم قال : غبنا غيبة بعد ذلك ، ثم قدمنا فإذا هى تطلبنى ، فنزلت فى منزل آخر ، فصارت إلى يوما ، فقالت :حين ملأت بطنى تنزل هاهنا وتتركنى : فأذاعت أنه منى ، فقلت : والله لئن ذكرتنى لأقتلنك ، فأمسكت عنى ، فهو والله ابنى » (الطبرى ج٩ ص ٥٤) .

(٢) انظر مروج الذهب حوادث سنة ٢٠١هـ .

فيها أبدا منذ بداية الفتح الإسلامي حتى ظهرت القوميات الجديدة واستقلت بعض هذه البلاد[1] .

وإلى جانب الطبيعة الجبلية الوعرة لهذه المنطقة ، فإنها كانت بعيدة عن مركز الدولة في بغداد ، ولذا كانت الجيوش تعانى ضروبا من المشقة البالغة ، وتتعرض لكثير من الأخطار والمهالك إذا أرادت الوصول إلى معاقل الثوار فيها .

يضاف إلى ذلك عوامل أخرى ساعدت على استشراء خطر الحركة البابكية واتساع نطاقها وانتشارها ، منها أن الدولة العباسية كانت مشغولة في تلك الفترة — التي بدأت فيها حركة بابك — بكثير من الأحداث الداخلية التي باتت تهدد كيانها ، والتي أقلقت المأمون منذ توليه الخلافة بعد مقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ حتى قدومه إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ . ومن هذه الأحداث ثورة أبي السرايا[2] ، وانتقاض العباسيين على المأمون لاختياره على بن موسى الرضا العلوى وليا للعهد ، ومبايعتهم لإبراهيم ابن المهدى خليفة في بغداد[3] ، إلى ذلك من الأحداث والاضطرابات التي جعلت المأمون في شغل شاغل عن حركة بابك ، فلم يولها اهتمامه منذ بدئها ، ولم يقدر خطورتها تقديرا كافيا يدفعه إلى القضاء عليها في مهدها .

ومن هذه الأحداث الداخلية ما كان له أثره المباشر في تشجيع بابك

---

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٩٢ وتاريخ اليعقوبى ج٢ ص٥٠٨ .

(٢) انظر الطبرى حوادث سنة ١٩٩هـ .

(٣) انظر الطبرى حوداث سنة ٢٠٢هـ .

على القيام بحركته ؛ ذلك أن مقتل هرثمة بن أعين[1] قائد المأمون الكبير ـ قد أدى إلى انتقاض ابنه حاتم على الدولة ، وكان فى ذلك الحين واليا على أرمينية ، فلما أتاه خبر موت أبيه ، والحال التى مات عليها عمل على أن يخلع ، وكاتب البطارقة ووجوه أهل أرمينية ، وكاتب بابك والخرمية، وهون أمر المسلمين عندهم ، فتحرك بابك والخرمية ، وغلب بابك فى عمل آذربيجان[2] .

ومن العوامل التى ساعدت على انتشار الثورة البابكية ، مايتعلق بسكان المنطقة التى كانت مجال حركته ، إذ حدث فى سنة خروجه أن عمت هذه البلاد مجاعة نتجت عن قحط شديد فهلك كثير من الناس وانتشرت الأوبئة ، يقول المسعودى « وفى سنة إحدى ومائتين كان القحط العظيم ببلاد المشرق والوباء بخراسان وغيرها[3] » . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تفجير كوامن الغضب والضيق والحقد بين القوم ، الذين كانت نفوسهم مهيأة لتقبل أية حركة ثورية ضد العرب ، وأية دعوة دينية ضد الإسلام ، مما دفع الكثيرين منهم إلى الانضواء تحت لواء بابك وتعضيد ثورته التى وافقت أهواءهم وميولهم .

ويرى بعض الباحثين أن الروم كانوا يعضدون الحركة البابكية ، لأنها تتفق معهم فى معاداة الدولة العباسية ،ومن هؤلاء الباحثين الدكتور

---

(١) قتل هرثمة لاعتراضه على ازدياد نفوذ الفضل بن سهل وزير المأمون ، ورميه إياه بالمجوسية وعدم الإخلاص للإسلام (انظر التفاصيل فى الطبرى حوادث سنة ٢٠٠ هـ والوزراء والكتاب ص ٣١٦) .

(٢) انظر اليعقوبى ج٣ ص ١٨٨ .

(٣) انظر مروج الذهب حوادث سنة ٢٠١ هـ وكذلك الطبرى وابن الأثير .

أسد رستم ، إذ يقول . « وقد دامت ثورة بابك حتى أيام المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢م) فجرد المعتصم جيشا كبيرا بقيادة الأفشين وغيره للقضاء على هذه الثورة ، فأرسل بابك إلى تيوفيلوس يحرضه على الخليفة العباسى ، فرأى تيوفيلوس فى ثورة بابك فرصة يقابل فيها العباسيين بمثل مافعلوا عندما ساعدوا توما فى ثورته على والده ميخائيل . وهكذا أعد تيوفيلوس جيشا كبيرا واتجه إلى أعالى الفرات ، وهو يأمل الاتصال بالخرميين وبلغ زبطرة سنة ٧٣٨م وأشعل فيها النار وسبي نساءها وأطفالها ، ثم دخل سميساط وملطية ، وعاد بعد ذلك إلى القسطنطينية فاستقبل فيها استقبال الظافر[1] » ويؤيد هذا الرأى كذلك الدكتور عبد المحسن سلام[2] ، ولكننا إذا راجعنا أحداث التاريخ وجدنا أن استجابة تيوفيلوس لنداء بابك وتحريضه إياه على قتال المسلمين لم تأت إلا متأخرة ، بعد أن تم القضاء على الحركة البابكية قضاء نهائيا[3] . ومعنى ذلك أن موقف الروم لم يكن له أى أثر فى تعضيد بابك أو مساعدته على مجابهة جيوش العباسيين. وبالتالى لا يمكن اعتبار موقف الروم عاملا من العوامل التى دعمت الحركة البابكية فى أية مرحلة من مراحل وجودها .

بذلك نكون قد تبينا العوامل الحقيقية التى كان لها أثرها فى تشجيع بابك على القيام بحركته الثائرة ، وفى سرعة انتشارها واتساع

---

(١) انظر كتاب الروم للدكتور أسد رستم ج١ ص ٣٢٥ .
(٢) انظر كتابه أبحاث فى الأدب العربى ص ٥٩ .
(٣) انظر الطبرى أحداث سنة ٢٢٣هـ .

نطاقها ، والتي حالت في الوقت نفسه دون تدخل حاسم من الدولة للقضاء عليها في بدايتها ، كما فعلت بغيرها من الثورات .

وتجمع المصادر التاريخية على أن بدء ظهور بابك وإعلانه الخروج على الدولة كان سنة ٢٠١هـ . يقول الطبري في ذكره لأحداث هذه السنة « وفيها تحرك بابك الخرمي في الجاويدانية أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وادعى أن روح جاويدان دخلت فيه وأخذ في العبث والفساد[1] » .

ولما بلغ خبر خروج بابك المأمون ولى يحيى بن معاذ أرمينية وأمره بحرب بابك . وأوقع يحيى بن معاذ وقعات لم يستطع أن يظهر على بابك أو ينتصر عليه في وقعة منها . واستمر الحال على هذا المنوال حتى سنة ٢٠٥هـ وفيها ولى المأمون عيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينية وآذربيجان ومحاربة بابك ، فجمع جموعه والتقى بجيش بابك سنة ٢٠٦هـ ، فهزمه بابك وفر عيسى إلى أرمينية . وحاول أن يوطد الأمر فيها مكتفيا بذلك ، بينما استعظم أمر بابك بالبذ ، واشتدت شوكته حتى كانت سنة ٢٠٩هـ فولى المأمون صدقة بن على المعروف بزريق هذا الأمر ، وانتدب زريق أحمد بن الجنيد لحرب بابك الذى هزمه وأسره ، فولى مكانه إبراهيم ابن الفضل ، الذى لم يستطع أن يفعل شيئا[2] . بينما واصل بابك نشر نفوذه وتدعيم قوته وسلطانه .

---

(١) انظر الطبري حوادث سنة ٢٠١هـ وكذلك ابن الأثير واليعقوبي .

(٢) انظر تفاصيل هذه الأحداث في اليعقوبي ج٣ ص ١٨٩ ومابعدها ، وفى الطبري وابن الأثير أحداث السنوات المذكورة دون تفصيل .

الفصل الثانى

فى رثاء محمد بن حميد الطوسى

أدت هذه الهزائم المتلاحقة لقواد الدولة أمام بابك إلى استفحال خطره، واشتداد قوته، وازدياد نفوذه، واتساع المنطقة التى فرض عليها سلطانه، وتكاثر أنصاره، وانضم إليه عدد من الخرمية المحمرة المنتشرة إلى الجنوب من آذربيجان، يقول البلخى: « وانضوى إليه القطاع والحراب والذعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائفة، وتكاثفت جموعه حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجالة، واحتوى على مدن وقرى، وأخذ بالتمثيل بالناس، والتحريق بالنار، والانهماك فى الفساد، وقلة الرحمة والمبالاة[1] ».

وأمام هذا الخطر الداهم الذى تفاقم شره ازداد قلق المأمون ورجال دولته، وفشلت كل جهودهم التى بذلوها من أجل القضاء عليه، أو منع تغلغل نفوذه فى المناطق المحيطة به، ورأى المأمون ضرورة وضع حد لهذا الخطر الذى بات يهدد الإسلام ودولته، فانتدب لحربه قائدا من أعظم قواده شجاعة وحنكة وتمرسا بالحروب، هو محمد بن حميد الطوسى، وعقد له اللواء فى سنة ٢١٢[2] هـ.

(١) انظر البدء والتاريخ جـ٦ ص ١١٥ .

(٢) انظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢١٢هـ .

وبادر ابن حميد بالإعداد لتلك الحرب ، فجمع جيشا من اليمن وربيعة ، وأخذ طريقه على الموصل ، لما كان من فساد الأمر فيها فأصلحها ، ثم توجه للقاء زريق ، الذى كان أظهر المعصية معترضا على عزله ، فالتقى به على الزاب ودعاه إلى الطاعة فامتنع ، فاضطر إلى مناجزته ، وانهزم زريق وأصحابه ، وطلب الأمان فأمنه وأرسل به إلى المأمون ، واستولى على أمواله وضياعه . ثم توجه ابن حميد إلى آذربيجان، وتغلب على القوات الثائرة ضد الدولة فى طريقه[1] . وأخذ يعلى بن مرة ونظراءه من المتغلبة بآذربيجان فبعث بهم إلى المأمون[2] . وبذلك استطاع توطيد الأمور قبل التوجه إلى بابك .

ولم يكتف ابن حميد بذلك ، بل عمل على تدعيم قوته ، فضم إلى جيشه قوة كبيرة من المتطوعة ، وسلك المضايق إلى بابك ، وكان كلما جاوز مضيقا أو عقبة ترك عليه من يحفظه من أصحابه ، إلى أن نزل « بهشتادسر » قريبا من « البذ » معقل بابك . وحفر خندقا ، وشاور أصحابه فى خطة

---

(١) انظر اليعقوبى ج٢ ص ١٩٠ .

(٢) انظر الطبرى حوادث سنة ٢١٢هـ . وذكر الدكتور عبد المحسن سلام فى كتابه « الثورة البابكية » ص ٩٧ هامش (١) أن المأمون عين يعلى بن مرة (العمرى) قائدا مع ابن حميد ، وهذا خطأ يناقض نص الطبرى المذكور . كما ذكر فى هامش (٢) نقلا عن الطبرى مانصه « فأخذ محمد بن حميد يعلى بن مرة (العمرى) المعروف بأحمر العين باليمن » وهذا خطأ آخر ، نتج عن خلطه بين خبرين : أولهما : ماذكره الطبرى عن ابن حميد ويعلى بن مرة ، وثانيهما خبر آخر قال فيه « وفيها خلع أحمد بن محمد العمرى المعروف بأحمر العين باليمن » .

الهجوم ، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكروه له ، فقبل رأيهم وعبأ أصحابه، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائى المعروف بأبى سعيد، وعلى الميمنة السعدى[١] بن أصرم ، وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليقطينى ، ووقف محمد بن حميد خلفهم فى جماعة ينظر إليهم ، ويأمرهم بسد خلل إن رآه . فكان بابك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كمن لهم الرجال تحت كل صخرة ، فلما تقدم أصحاب محمد ، وصعدوا فى الجبل مقدار ثلاثة فراسخ خرج عليهم الكمناء ، وانحدر إليهم بابك فيمن معه، وانهزم الناس. فأمرهم أبو سعيد ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم . وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد، وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى جماعة وقتالا، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين رآه الخرمية قصدوه لما رأوا من حسن هيئته ، فقاتلهم وقاتلوه ، وضربوا فرسه بمزارق فسقط إلى الأرض ، وأكبوا على محمد بن حميد فقتلوه[٢] .

تلك هى وقائع المعركة كما رواها المؤرخون ، ومنها نتبين عظم

---

(١) هكذا ذكره ابن الأثير ، بينما ذكره اليعقوبى « المهدى بن أصرم » كما ذكر فى ديوان أبى تمام « مهدى » وهذا هو المرجح .

(٢) انظر تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٢١٤هـ . ويذكر اليعقوبى رواية أخرى عن مقتل ابن حميد بأنه صار إلى موضع ضيق فيه حزونة فترجل هو وجماعة من جيشه ، فحمل عليه أصحاب بابك ، فقتل محمد وجماعة من وجوه أصحابه بينما لم يذكر الطبرى شيئا عن تفاصيل المعركة ، واكتفى بذكر خبر مقتله وهزيمة جيشه باختصار شديد .

الكارثة التى ألمت بجيش المسلمين ، والتى بلغت ذروتها بقتل قائده ، فكانت خطبا جللا وهزيمة لها آثارها البعيدة فى تاريخ الدولة العباسية .
ويسجل ابن الأثير شدة وقعها فى نفس المأمون فيقول « فلما وصل خبره إلى المأمون عظم ذلك عنده »[1] لأنها لم تكن هزيمة كغيرها من الهزائم التى منيت بها جيوش الدولة فى مواجهة بابك ، وإنما كانت ذروة الهزائم وكارثة الكوارث . كانت ضربة قاصمة للقوة الإسلامية التى توالت انتصاراتها وامتدت فتوحاتها على مدى قرنين من الزمان ، مكتسحة فى طريقها أعتى القوى ، ومحطمة جبروت أعظم الدول ، ومامن شك فى أن هذه الهزيمة قد تركت آثارها المبرحة الآلام فى نفس كل عربى وكل مسلم على إمتداد الرقعة الإسلامية ؛ إذ كانت آمالهم جميعا معقودة بهذا القائد العظيم ليحقق للاسلام نصرا حاسما على الخرمية المفسدة، وليخلص أمته من كابوس بابك الرهيب الذى ظل جاثما على صدرها أربعة عشر عاما أخفقت فيها كل الجهود للقضاء عليه ، وفشلت فيها كل الجيوش فشلا ذريعا . وبمقتل ابن حميد انهارت كل تلك الآمال ، وأظلمت النفوس رهبة وروعا ، واضطربت القلوب فزعا وجزعا .

وفى هذا الجو النفسى الكئيب ، الذى غشيت ظلمة كآبته كل فرد من أبناء الأمة الإسلامية — دوى فى الآفاق رثاء أبى تمام لبطلها الشهيد، معبرا عن أحزانها الممضة ، ومترجما عن مشاعرها اللتاعة ، وراسما لها أروع صورة لبطولة الاستشهاد ، علها تجد فيها عزاء يخفف من وقع المصيبة

---

(١) انظر ابن الأثير حوادث سنة ٢١٤هـ .

عليها ، وعلها ترى فيها بصيصا من نور يقشع عنها ظلمات اليأس القاتمة ، فتنهض من كبوتها ، متبصرة طريقها ، معتصمة بمبادئها ، مرتلة آيات الشهادة التى ترفعها إلى درجات النصر ، وتشحذ النفوس حماسة متأججة ، وتملأ القلوب عزيمة متوثبة ، فتحقق مافات الشهداء تحقيقة من نصر كتبه الله لكل مؤمن بدينه ، عاملا بتعاليمه ، متأثرا خطى المجاهدين فى سبيله .

وإذا كانت هذه الفاجعة قد زلزلت أركان الدولة ، وهزت النفوس هزا عنيفا . فإن أبا تمام كان مرصدها الذى سجل زلزلاتها وهزاتها ، ثم إن صلة الدم التى كانت تربطه بالبطل الشهيد ، كان لها أثرها الذى ضاعف من إحساسه بوقع المصيبة ، فكلاهما من قبيلة طيىء صليبة . ويدل على شدة وطأة الحزن على نفسه قول البديعى : « إن أبا تمام لما بلغه خبر قتله ، غمس طرف ردائه فى مداد ، ثم ضرب به كتفيه وصدره ، وأنشد القصيدة التى تمنى أبو دلف لو كان هو المقتول وقيلت فيه[1] »

ولم يكن غريبا فى غمرة هذا الحزن الشامل الذى لف الأمة كلها إثر شيوع ذلك الخبر أن يبدأ أبو تمام قصيدته بمطلع متفجر كأنه البركان الهائل ، مستعظما جلال الخطب وفداحة الكارثة ، مبكيا كل عين ، بل موجبا عليها البكاء ، رافضا كل عذر يمكن أن يعتذر به من لم تفض دموعه حزنا على بطل الأمة الإسلامية وشهيدها الذى ضرب لها أروع مثل للشجاعة والاستبسال ، يقول :

---

(١) انظر هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٩٣ .

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر[1]

وقد بدا هذا المطلع غريبا لدى النقاد الذين لم يتمثلوا جو القصيدة ، والظروف التى قيلت فيها بالصورة التى أوضحناها ، فاستنكروه استنكارا شديداً ، كما فعل ابن عمار فى الرسالة التى كتبها عن أخطاء أبى تمام وسرقاته ، قال: افتتح قوله بأبين خطأ وأفحشه ، من إشارته إلى معدوم واستعطافه غير معلوم ، ثم حض على البكاء قبل إخباره عن الحادث الذى يلى ، وقد وقفه بعض الناس على خطئه وزلله فقال له : كان يجب أن تأتى بعظام الرجل الذى بكيته فى وعاء فتجعله بين يديك ثم تقص على الناس خبره ، فإذا أتيت على آخره أومأت إليه ثم قلت: كذا فليجل الخطب ... ![2] ومن الواضح أن ابن عمار ومن شاركه رأيه هم الذين أخطئوا فى طعنهم على أبى تمام ، لأن مقتل ابن حميد لم يكن أمراً مجهولا لدى أحد من الناس ، ولم يكن

---

(١) ورد فى بعض أصول شرح التبريزى لديوان أبى تمام بيت قبل هذا وهو:

حرام لعينى أن يجف لها قطر   وأن تطعم التغميض مابقى العمر

كما ذكر الصولى فى (أخبار أبى تمام ص ٢٦٥) رواية عن أحمد بن موسى قال : أخبرنى أبو الغمر الأنصارى عن عمرو بن أبى قطيفة قال : رأيت أبا تمام فى النوم فقلت له : لم ابتدأت بقولك : كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر . . . فقال لى : ترك الناس بيتا قبل هذا ، إنما قلت :

حرام لعين أن تجف لها شفر   وأن تطعم التغميض ما أمتع الدهر

ومن الواضح أن البيت قد وضع كمطلع للقصيدة تأثرا بما أثير من انتقادات حول المطلع المذكور ، وردا على من عابوه على أبى تمام ، وهذا يعنى تسليم واضعه ورواته بخطأ أبى تمام ، وعجزهم عن تمثل الظروف التاريخية والجو النفسى للمجتمع الإسلامى وقت إنشاد القصيدة على النحو الذى أوضحناه .

(٢) انظر ديوان أبى تمام شرح التبريزى ج٤ ص ٧٩ بالهامش .

أبو تمام بحاجة إلى أن يأتيهم بمظالمه ويقص عليهم خبره ، بعد ما كان من ذيوع الخبر وانتشاره ، وكأنهم بذلك يطالبون منه تقريرا عن الواقعة لاقصيدة شعر . إن أبا تمام فى هذا المطلع قد صدر عن شعور صادق بالمأساة، ففجأ الناس به ، كما فجأهم وفجأه ذلك الخبر المفجع دون توقع له ، وعلى عكس ما كان فى حسبانهم جميعا .

ويثنى أبو تمام على مطلع قصيدته برسم صورة شاملة لليأس القاتل الذى حطم النفوس ، والانهيار المدمر لآمال الأمة بمقتل محمد ، والشلل التام الذى أصاب حركة الحياة نتيجة لشدة الصدمة ، فأوقف كل سعى أو سفر تقتضيه شئونها :

تُوُفِّيَتِ الآمالُ بعد محمدٍ وأصبحَ فى شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفْرُ

وكان ابن حميد ممدوحا جوادا كما قال ابن الأثير[١] . والجود محمدة مأثورة فى المجتمع العربى من قديم ، وخلة فاضلة ترفع صاحبها إلى أعلى مكانة فى مجتمعه ، وتجعل له فضلا وأيادى على الناس يذكرونه بها أبداً ، فإذا فقدوه كانت مصيبتهم فيه عظيمة . وهذا ماأراده أبو تمام حين قدم ذكره بالجود والكرم الفياض ، فى صورة مثالية رائعة ؛ فهو مال لكل فقير قل ماله ، وهو ذخر لكل معدم فقد كل شىء ، بل هو من فيض جوده ودوام عطائه لكل طالب رفده ، أن جعله فى منعة من العوز وحماية من الفاقة ؛لايكاد يتصور أن العسر له وجود فى هذه الحياة ، إذ يرى العيش رخاء دائما فى كنف ذلك الجواد المعطاء :

---

(١) انظر تاريخ ابن الأثير حوادث سنة ٢١٤هـ .

وما كان إلاَّ مالَ من قلَّ مالُه ... وذُخراً لمن أمسى وليس له ذُخْرُ
وما كان يدرى مُجْتَدِى جودِ كفِّه ... إذا ما استهلَّت أنه خُلِق العُسْرُ

وإذا كان موته قد نتجت عنه أضرار جسيمة من توقف وجوه العمل، وتعطل طرق السعى فى سبيل الله ، وانفتاح ثغر آذربيجان أمام بابك والخرمية يعيثون فيه فسادا دون ما رادع يردعهم ، فإنه على أى حال قد قضى شهيدا فى سبيل الله ، فبكته القبائل كلها أحر البكاء حتى إذا غاضت دموعها ذرفت عليه عيونها الدماء ، وكلما بكته قبيلة منها على هذه الصورة الدامية ، تهللت أجواء المنتديات بصورة مقابلة لها ضاحكة مستبشرة ، ترسم خطوطها أحاديث أمجاده العظيمة ، وذكر أعماله الخيرة ، فهو الذى قضى عمره قسمة بين أسمى خلتين يمكن أن يتصف بهما إنسان ، ألا وهما البأس والجود :

ألا فى سبيل الله من عُطِّلَتْ له ... فِجاجُ سبيل الله وانثغَرَ الثَّغْرُ
فتىً كلما فاضتْ عيونُ قبيلةٍ ... دماً ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ
فتىً دهرُه شطران فيما ينوبُه ... ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطر

وأى أحاديث مجد وبطولة أعظم خلودا من تلك الأحاديث التى يتناقلها الناس عن الفتى فى موقفه الرائع أمام الموت ، وقد أحاط به من كل جانب ، فلم يجبن ولم ينخلع قلبه ، وإنما ثبت مكانه رابط الجأش مستبسلا فى دفع الأعداء ، يضربهم بكل ما أوتى من قوة وعزم ، حتى فل سيفه وانحطم ، كأنما سبقه إلى الموت منذرا إياه به ، فتكاثرت عليه رماح الأعداء تطعنه طعنا ، وتقلت عليه الضربات حتى أردته قتيلا . إنها لميتة كريمة لبطل مقدام ، لاتقل عن النصر شرفا وسموا ، وإذا كان النصر قد فاته ولم

ينله ، ففي ميتته تلك مجد عظيم يقوم مقام مجد النصر ويعوضه عن فقده . وكان سهلا عليه أن يفر من الموت ناجيا بحياته كما فعل سواه من أصحابه، ولعل نفسه حدثته بذلك ، ولكنه أبى إباء البطل الحر الكريم ، حفاظا على عزة نفسه ، وإن كان الحفاظ مرا كريها إليها في مثل هذا الموقف ، وصونا لكرامته بما جبل عليه من خلق وعر، شديد على نفسه كما هو شديد على عدوه ، لا يلين أمام شدة ، ولا يقبل الدنية أبدا ، وأى دنية أحط من فرار ، وأى عار أشنع من الجبن في يوم الروع ، وكيف لنفسه أن ترضى وصمة العار وهو يراه الكفر بعينه ، بل أشد من الكفر درجات ، إذن فلا بد من ثبات حتى الموت، الذى بدا له مستنقعا كونته دماء القتلى وأشلاؤهم، فلم يزده هول الموت إلا ثباتا واستبسالا . وضرب الأرض برجله مؤكدا ثباته ، وكأن رجله تكلمت وحاورته فقالت : علام وقفتنى في حومة الوغى ومبرك الجراح ؟ فقال لها : من تحت أخمصك الحشر[1] ، وحيث تقفين سيكون مقتلى واستشهادى ، وسيكون لحدى وفناء جسدى تحت أطباق الثرى ، إلى أن تدور الأزمان في فلكها المقدور ، وتأتى إلى نهايتها المحتومة، ويبعث الموتى من قبورهم في يوم الحشر الأعظم ، فهنا موتى ونشورى وحشرى وكأن أبا تمام كان ملازما له في موقفه البطولى ، يترجم عن مشاعره وخواطره ، وما هى إلا مشاعر مؤمن حق غدا مجاهدا في سبيل الله ، حامدا له في السراء والضراء ، مضحيا بروحه ابتغاء مرضاته ، فنال أجر الشهيد وأعظم به من أجر ، وأبدله الله ثياب الموت الحمراء التى صبغها دمه الزكى بثياب الجنة الخضراء من سندس وإستبرق في رحاب رضوانه ونعيمه السرمدى :

(١) أنظر شعر الحرب في أدب العرب ص ١٥١ .

فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً ... تقوم مقامَ النصر إن فاته النصرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه ... من الضرب واعتلّت عليه القنا السُّمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فردّه ... إليه الحفاظُ المرُّ والخلقُ الوَعْر
ونفسٌ تعافُ العارَ حتى كأنه ... هو الكفرُ يوم الرَّوْع أو دونه الكفر
فأثبتَ في مستنقع الموت رجلَه ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه ... فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجر
تردّى ثيابَ الموت حُمْراً فما دَجا ... لها الليلُ إلاّ وهي من سندسٍ خُضْرُ

وإذا كان مقتل ابن حميد قد فجع الناس جميعا ، فكيف كان أثر مقتله في أهله وعشيرته من طيء وهم بنو نبهان ، الذين عرفوا بالسيادة والشرف منذ الجاهلية ، وكان منهم زيد الخيل الذى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم في عام الوفود وقد عقد له قومه لواء السيادة عليهم ، وشهد له النبي الكريم بالفضل وسماه زيد الخير . وامتد الشرف والحسب في أحفاده حتى العصر العباسى ، فكان منهم القائد العظيم قحطبة ، الذى قاد جيوش العباسيين ضد الأمويين ، وشارك بجهد عظيم في إقامة دولتهم حتى نال شرف الشهادة في تلك المعارك بعد أن تأكدت غلبة العباسيين ، وانكشفت الأمور لصالحهم ، وورث عنه أبناؤه القيادة والسيادة[1]. حتى كان من أحفاده حميد بن عبد الحميد ، الذى قضى على الفتنة في بغداد أثناء وجود المأمون في خراسان ، ومهد لمقدمه إليها بتوطيد الأمر فيها[2] . ثم كان ابنه محمد هذا القائد البطل شهيد حرب بابك . فقومه بنو نبهان إذن هم

---

(١) انظر الطبرى حوادث سنة ١٣١ ، ١٣٢هـ .

(٢) نفسه حوادث سنة ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

أعظم عشائر طيء مجدا وحسبا ، ومحمد بن حميد كان سيدهم بعد أبيه.
وما من ريب فى أن مقتله أدمى قلوبهم حزنا وأسى ، وأفقدهم عظيمهم ورافع راية مجدهم ، فما أشبههم فى هذه الحال بنجوم السماء التى هوى البدر من بينها ، وإذا كان الناس يعزونهم عن فقيدهم العظيم ، فإنهم لا ينفردون وحدهم بتلقى العزاء فيه ، وإنما تشاركهم فى ذلك أمجاد العلا التى فقدت بفقده ابنا من أبنائها وبانيا من بناتها ، وتبكيه مثلها العليا التى تجسمت فى شخصه وفى فعاله ، فهو القائد البطل الذى ضرب المثل الأعلى للبأس والشجاعة، وهو عظيم قوم وسيد بارز من سادات المجتمع العربى والإسلامى، ولم يكن ليبلغ هذه المرتبة فى مجتمعه إلا بما تميز به من كريم الخصال ، وفى مقدمتها الجود والسخاء ، ورهافة الحس الأدبى بما له من ذوق رفيع وثقافة خصبة ، ومن ثم كان تقديره للشعر والشعراء ، كل هذه المثل حزنت لفقده أشد الحزن ، وبكته بكاء حاراً ، فكيف لقومه أن يتجملوا بالصبر على فراقه ؟ ! بل أنى لهم هذا الصبر الذى فقدوه بفقده ، والذى مضى معه إلى الموت شهيدا مثله :

كأن بنى نبهانَ يومَ وفــــاتهِ نجومُ سماء خَرَّ من بينها البدر[1]

---

(١) ذكر الصولى فى (أخبار أبى تمام ص ١٢٥ وما بعدها) أن قوما عابوا قوله هذا فقالوا : أراد أن يمدحه فهجاه ، كأن قومه كانوا خاملين بحياته ، فلما مات أضاءوا بموته . وقالوا : كان يجب أن يقول كما قال الخريمى :

إذا قمر منهم تغورَّ أو خبا بدا قمر فى جانب الأفق يلمع

ورد الصولى على هذا القول فى مناقشة طويلة راميا قائليه بالجهل فى فهم الكلام وتمييز ألفاظ الشعر ، وأورد كثيرا من أقوال الشعراء فى مثل هذا المعنى نذكر =

يُعَزَّوْنَ عن ثاوٍ تُعزَّى به العُلا ويبكى عليه البأسُ والجودُ والشعر
وأنَّى لهم صبرٌ عليه وقد مضى إلى الموت حتى استشهدا هو والصبر

ولم يكتف أبو تمام بما ذكره عن بطولة ابن حميد وسخائه ورفعة شأنه ، بل مضى يعرض شيمه الكريمة التى كان يتحلى بها ، ويعيد القول فى معانى الشجاعة والكرم فيلبسها ثيابا جديدة من فنه الشعرى ، هادفا بذلك إلى تهويل المصيبة وإثارة الأحزان ، فمحمد كان فتى عذب الروح سمح الخلق ، جم التواضع ، لاعن غضاضة فى طباعه ، ولكن لعلو نفسه واستكبارها عن الصغار المتمثل فى التكبر على الناس. وكان الفتى الفارس المغوار حامى الخيل فى الوغى . ومع ذلك فقد سلبت روحه بين أظهرها وبعامل الفروسية التى ارتبطت بها . وكان مشعل نار الحرب وملهب جذوتها ، ومع ذلك أحرقته بلهيبها . وكانت السيوف المأثورة التى تناقلتها أيدى الأبطال ، والتى لم تثلها كثرة الحروب ، ماتزال بحدتها ومضائها ، قاطعة بتارة على عهده وتحت إمرته ، فهاهى الآن وقد غدت من بعده مثلومة مبتورة . وكيف لأثواب الندى والجود أن تنشر بعد أن طوت الحادثات صاحبها محمدا ؟ إنما مثله كمثل شجرة الطيب التى اجتثت من جذورها ، فلم يعد ثمة أمل فى أن تنبت أوراقها الخضراء النضرة التى تماثلها فعاله طيبا ونضرة :

= منها قول جرير فى رثاء الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر

وعقب الصولى متسائلا : أفترى جريرا أراد أن يهجو الوليد ، أو يقول إن بنيه زادوا بموته ؟ ! وخلاصة رد الصولى أن المعنى الذى أراده أبو تمام قصد التفضيل فى السؤدد والخريمى أراد التسوية فيه .

فتىً كان عذبَ الروحِ لا من غَضاضةٍ ولكنْ كِبراً أن يقال به كِبر
فتىً سلبته الخيلُ وهو حِمىً لها وبزَّته نارُ الحرب وهْو لها جَمْر
وقد كانت البيضُ المآثيرُ في الوغى بواترَ فهي الآن من بعده بُتْر
أمنْ بعد طيِّ الحادثات محمداً يكون لأثواب الندى أبداً نَشْر
إذا شجراتُ العرف جُذَّت أصولُها ففي أي فرع يوجد الورقُ النَّضْر؟

وإذا كان فقد ابن حميد غدرة من غدرات الدهر الخئون التي جعلته بغيضا كريها إلى كل من فجعوا فيه ، فإن بشاعة غدره تبدو أشد وأنكى ، إذا عرفنا أن الفقيد الكريم قد حبب هذا الدهر إليهم ، بما عهدوه فيه من خير الأعمال وحميد الخصال ، إنها شيمة الدهر الغادرة التي مازالت أيامه تفجأ بها الناس وترزؤهم . وليس رزء هذه المصيبة محدود الأثر في قبيلة طيئ ، وإنما شمل رزؤها جميع القبائل كتميم وبكر ، ومن الواضح أن أبا تمام قد جعل هذا الأمر مفخرة لقبيلته طيء التي ما تنفك تفقد عظيما منها ، يهلك مجاهدا شهيدا في سبيل الله ، ومن أجل أمته العربية والإسلامية ، فتعم الأحزان بدوها وحضرها ، ولا تختص بها قبيلته وحدها . وهذا يعني أن قبيلته قد عقد لها لواء القيادة ، وتقلدت شرف السيادة فلها أن تفخر بهذا المجد في خضم الكوارث :

لئنْ أبْغِضَ الدهرُ الخئونُ لفقده لَعهدي به ممن يُحَبُّ له الدّهر
لئن غدَرت في الرَّوْع أيامُه به فمازالت الأيامُ شيمتُها الغَدْر
لئن أُلبِستْ فيه المصيبةَ طيِّءٌ فما عُرِّيَتْ منها تميمٌ ولا بكر
كذلك ما ننفكُّ نفقدُ هالكاً يشاركنا في فقده البدوُ والحضرُ

وفي ختام القصيدة يأخذ أبو تمام بالتقليد الموروث في قصائد الرثاء ، وهو استسقاء الغيث لقبر المرثي ، ولكنه يلبس هذا التقليد ثيابا جديدة من فنه المبدع؛

ويضفى عليها رونقا وبهاء ، محتفظا بالصورة الباهرة التى رسمها لصاحبه ، فهذا الغيث الذى يستسقيه لن يكون لسقياه فضل ظاهر ولاصنيعة محمودة ؛ لأنه سيلقى فى القبر غيثا آخر ، وإن كان بلا سحاب ولاقطر ، إنه غيث الكرم والجود ، بل هو البحر سخاء غامرا وعطاء فياضا . وهو الشهيد الطاهر المطهر ، الذى ما أن فارق الحياة حتى تطلعت كل روضة من رياض الأرض راغبة أن تكون قبرا له ، لما ستظفر به من طهر لحده وقدسية مثواه وشرف ضمه . لقد ثوى فى الثرى ، وهو الذى كان يحيا بفيض جوده الثرى ، ويغرق صرف الدهر فى بحر عطائه الخضم ، فعليه سلام الله وقفا مدى الزمن ، وعزاء لأبى تمام ، إذ يواسى نفسه بأن الموت يختار من الناس كل حر كريم ، ويختطفه فى ريعان العمر وزهوة الحياة :

سقى الغيثُ غيثاً وارتْ الأرضُ شخصَه	وإن لم يكن فيه سحابٌ ولا قطر
وكيف احتمالى للغيوث صنيعةً	بإسقائها قبراً وفى لَحْدِه البحر
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تبقَ روضةٌ	غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قبر
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرَى	ويغمرُ صرفَ الدهرِ نائلُه الغمر
عليك سلامُ الله وقْفـــاً فإننى	رأيت الكريمَ الحرَّ ليس له عُمر

(وهكذا ينهى أبو تمام قصيدته دون أن يخرج عن نطاق تلك المأساة ، التى أمضته وصهرت مشاعره فى بوتقة الأحزان والحسرات ، فهو لم يذكر شيئا عن أعداء محمد الذين قتلوه ، ولاعن عقيدتهم الخرمية المعادية للإسلام ، ويبدو أن هذا الجو النفسى الكئيب قد احتواه احتواء كاملا ، أذاب مشاعره ، وملك عليه وجدانه ، فأخرج قصيدته جذوة متقدة من الرثاء الحماسى المحلق فى سماء المثالية الإسلامية . وهو إذا كان قد صور واقع الحدث البطولى لاستشهاد ابن حميد بشكل يقارب مارواه ابن الأثير المؤرخ ، فهذا لايعنى أن كل بيت من أبيات قصيدته قد استند إلى أصل

فى التاريخ كما يقول الدكتور نجيب البهبيتى [1] ؛ لأن ذلك يعنى إنزال فن أبى تمام من عليائه وربطه بالسرد التاريخى التقريرى ، وفرق كبير ما بين الشعر والتاريخ وإن تشابهت بينهما وقائع الأحداث .

وهذه القصيدة التى خلد بها أبو تمام ذكرى محمد بن حميد الطوسى، كانت حديث الناس فى زمانه وبعد زمانه ، إذ جعل من بطولة استشهاده أنشودة حماسية تثير الحمية فى نفس كل محارب ، وتدفعه دفعا إلى خوض غمرات القتال ، ولولا أن فيها ذكرا لمحمد وحده لعددناها قصيدة قيلت فى الجندى المجهول ،الذى قتل فى سهوب خراسان وسفوح جبال آذربيجان ، يتنازع شرفها ألوف من الأبطال الشهداء [2] . ولعل أقوى دليل على بلوغ أبى تمام فى هذه القصيدة قمة الفن الشعرى الحماسى أن أبا دلف العجلى الذى كان عظيم قواد ومدبر حرب فى زمن المأمون والمعتصم [3] تمنى لوكان هو الشهيد وأن هذه القصيدة قيلت فى رثائه ، كأنما يحسد صاحبها على ميتته المخلدة فى لوحات الفن الشعرى . الذى لم تذهب روعته من نفسه حتى وهو فى غمرة الانبهار والإعجاب حين مدحه أبو تمام بقصيدته البائية التى مطلعها :

على مثلها من أربـــــم وملاعب   أذيلت مصونات الدموع السواكب

فقد أمر بأن تدفع له خمسون ألف درهم ، ثم قال له : ما مثل هذا القول إلا مارثيت به محمد بن حميد ، وأنشد أبياتا منها مبديا إعجابه الشديد بها ، ثم عقب قائلا : وددت والله أنها لك فى ! فقال : بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى ، وأكون

---

(١) انظر كتاب « أبو تمام الطائى » ص ١٠٤ .

(٢) انظر شعر الحرب فى أدب العرب ص ١٥١ .

(٣) انظر هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص ٩٣ .

المقدم قبله ، فقال له : لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر [١] .

وتزيد أهمية رأى أبى دلف خاصة ، إذا عرفنا أنه كان من كبار القواد الذين شاركوا فى القضاء على بابك ، وأنه أبلى أحسن البلاء فى تلك الحرب ، وقد أشاد أبو تمام فى هذه القصيدة التى مدحه بها ببطولته وانتصاره ، وعلى الرغم من أنه الظافر المنتصر على من هزم ابن حميد وقتله ، فإنه رأى بطولةاستشهاده أجدربالفخر والمجد من ذلك الظفر والانتصار الذى حظى هو به ، وهذا أمر قد يبدو معكوسا أو غير طبيعى ، ولكنه سحر شعر أبى تمام الذى أحدث أثره البالغ فى نفس أبى دلف .

وقد كثر الجدل حول هذه القصيدة ، لما حظيت به من شهرة واسعة ، وحسد أبا تمام عليها خصومه من الشعراء ، ومنهم دعبل الخزاعى الذى وقعت بينه وبين أبى تمام مهاجاة ، فأراد أن يقلل من شأن هذه القصيدة ، ولكنه لم يستطيع ذلك أو لم يحاول إلا بعد وفاة أبى تمام ، فادعى أنه سرق معظم أبياتها من مرثية لشاعر جاهلى اسمه مكنف أبو سلمى ، من ولد زهير بن أبى سلمى : قالها فى رثاء زفافة العبسى ، ومنها قوله :

أبعدَ أبى العباس يستَعتَبُ الدهرُ   وما بعده للدهر عُتبى ولا عُذْرُ
ولو عوتبَ المقدارُ والدهر بعده   لما أعتبا ما أورق السَّلَمُ النَّضرُ
ألا أيها الناعى ذفافةَ والندَى   تعست وشُلَّت من أناملك العشرُ

إلى قوله :

كأن بنى القعقاع يوم وفـــاته   نجومُ سماء خرَّ من بينها البدرُ
توفيت الآمال بعــد وفاته   وأصبح فى شغل عن السفَر السفْرُ

---

(١) انظر أخبار أبى تمام ص ١٢٤ — ١٢٥ .

يعزون عن ثاو تعزى به العلا ويبكى عليه المجد والبأس والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله رذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

ثم يقول دعبل : فهذا شعره الذى به حذق وشهر ، إنما قاله غيره ، وأثار معانيه سواه ، فلما عجز عن حسن الاستعارة أغار على أصل الكلام بالقحة [1]

ويرد الصولى على ادعاء دعبل هذا بما يؤكد كذبه ، فيذكر أن الحسن بن وهب لما حدث بهذا الحديث قال : أما قصيدة مكنف هذه فأنا أعرفها ، وشعر هذا الرجل عندى ، وقد كان أبو تمام ينشدنيه ، وما فى قصيدته شىء مما فى قصيدة أبى تمام ، ولكن دعبلا خلط بين القصيدتين ، إذ كانتا على وزن واحد ، وكانتا مرثيتين ليكذب على أبى تمام ، [2] ولسنا بحاجة إلى دفع تلك التهمة عن أبى تمام ، وهو الشاعر الفذ الذى تميز بالموهبة والقدرات الفنية المبدعة التى تغنيه عن السرقة من شاعر آخر مهاجل قدره .

* * *

ولم يقف رثاء أبى تمام لمحمد بن حميد عند هذه القصيدة وحدها ، بل نراه يجدد رثاءه بين الحين والحين ، كلما هاجت فى نفسه كوامن الأشجان ، أو أثارتها أحداث الحروب المتوالية ، وما تنطوى عليه من فواجع أليمة تلحق ببنى حميد ، وكأنما كانت هذه القصيدة ميثاق وفاء لمحمد وآله ، وعهدا أخذه على نفسه أن يخلد ذكرهم المجيد فى أروع شعر حماسى قيل فى الرثاء . فهذه قصيدة أخرى له فى

---

(١) انظر أخبار أبى تمام ص ٢٠٠ والموازنة ص ٢٩ ط الآستانة ، وتاريخ ابن عساكر حـ ٤ ص ٢٥ ، والأغانى حـ ١٥ ص ١٠٧ ط بولاق . وهناك اختلاف بين هذه المصادر فى روايته الخبر والشعر .

(٢) انظر أخبار أبى تمام ص ٢٠١ .

رثاء محمد تقطر كلماتها حزنا وتفيض أبياتها لوعة وأسى يقول :[1]

أصمَّ بكَ الناعي وإن كان أسمعا ... وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا
لِمَلْحَدِ أبي نصرٍ تحيةُ مُزنةٍ ... إذا هي حيّت مُمْعِراً عاد مُمْرِعا[2]
فلم أرَ يوماً كان أشبهَ ساعةً ... بيدي من اليوم الذي فيه ودَّعا
مصيفٌ أفاضَ الحزنُ فيه جداولاً ... من الدمع حتى خِلتُه عادَ مَرْبَعا
ووالله لا تقضي العيونُ الذي له ... عليها ولو صارت من الدمع أدمُعا

ويعيد الحديث عن كرمه الفياض ، وموقفه البطولي الخالد في مواجهة الموت ، وثباته في مأزق الردى حيث يفر الشجعان ، وإقدامه على المخاطر غير هياب ولا وجل من سوء منظرها الكريه ، حريصا على أن يذكر أحسن الذكر بما قدم من تضحية وفداء ، وإذا كان الردى قد خانه وقصف عمره ، فإنما هو كالسيف الذي ظل يضرب ويحطم حتى تكسر وتحطم ، يقول :

فتىً كان شرباً للعفاة ومرتعاً ... فأصبح للهنديَّة البيضِ مرتعا
فتىً كلما ارتاد الشجاعُ من الردى ... مَفَرّاً غداةَ المأزقِ ارتادَ مصرعا
إذا ساء يومٌ في الكريهة منظراً ... تصلاه علماً أن سيحسُن مسمعا
فإن تُرمَ عن عُمْرٍ تدانى به المدى ... فخانك حتى لم يجد فيك منزعا
فما كنت إلا السيفَ لاقى ضريبةً ... فقطَّعها ثم انثنى فتقطَّعا

* * *

ويحلق أبو تمام في سماء الخيال ليرسم صورة الخلود لذكرى محمد ، إذ يراه في منامه محتبيا بنجاد السيف ، وقد أشرق وجهه نورا ، فبدا كالبدر يجلو ضوؤه ظلمة

---

(١) انظر ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ج٤ص٩٩—١٠٠ .

(٢) يقال أمعر المكان إذ لم يكن فيه نبت وهو مكان معر ومعمر .

الليل ، يتوسط روضة فيحاء بالأزاهير ، زاخرة بالنعم التى حباه الله بها ، ثوابا منه على ما قدم من صالح الأعمال ، ومن التضحية بروحه فى سبيل الله ، فقال له أبو تمام — وهو يبكى حزنا لفقده وفرحا لمرآه فى هذا النعيم المقيم — ألم تمت ياحبيب النفس منذ زمن ؟ فيرد عليه قائلا : لايموت كريم مادامت أعماله الخيرة خالدة الذكر. إن هذه الرؤيا تتكون عناصرها فى مخيلة أبى تمام من آيات القرآن الكريم التى تبين ما أعده الله فى جنات النعيم للشهداء الأبرار من أمثال محمد ، وهو إذ يصوره فى رحابها إنما يستهدف تأكيد وعد الله له ، ودعوة لمن يريد أن يحذو حذوه فى العمل والجهاد وفى الجود والإحسان ، يقول : (١)

محمد بن حميد أخلقت رِمَمُه	أُريق ماءُ المعالى مُذ أُريق دمُهْ
تنبهتْ لبنى نبهانَ يوم ثوى	يــدُ الزمان فعاثت فيهم وقمهْ
رأيته بنجاد السيف محتبيا	كالبدر حين جلَتْ عن وجهه ظلَمُهْ
فى روضة قد علا حافاتِها زَهَرٌ	علمت عند انتباهى أنها نِعَمُهْ
فقلت والدمع من حزن ومن فرح	يجرى وقد ملأ الخدين مُنسجِمُهْ
ألم تمت ياشقيقَ النفس من زمنٍ	فقال لى : لم يمت من لم يمت كرمُهْ

* * *

وتظل ذكرى ابن حميد ماثلة فى نفس أبى تمام تحييها الأحداث الأليمة، وتشعل جذوتها كل فاجعة تنزل بأحد من عشيرته وأهله ، فلما قتل أخوه قحطبة فى إحدى المعارك ، تمثل له مقتل محمد كأنما وقع مرة أخرى فى مقتل أخيه ، وانطلق لسانه بالرثاء الحار باكيا محمدا وأخاه بل وأخويه . ويظن جامعو شعره أن القصيدة فى رثاء محمد أساساً ، ويختلط عليهم الأمر ، فيحسبون اسم أخيه اسما آخر له ، يدل

---

(١) انظر الديوان جـ٤ ص ١٣٧ .

على ذلك تقديم التبريزى للقصيدة بقوله « وقال يرثى محمد بن حميد ، ويسمى أيضا قحطبة، ويقال قحطبة أخوه »(١) والمحقق أن قحطبة هو أخوه ، وأن القصيدة نظمت بعد مقتله فى معركة تسمى بالنباج ، والنباج اسم لموضع بالجزيرة العربية ، وذكر ابن منظور فى لسان العرب (٢) أن بلاد العرب بها نباجان أحدهما عن طريق البصرة ، يقال له نباج بنى عامر وهو بحذاء فيد ، والآخر نباج بنى سعد بالقريتين. وليس لدينا ما يرجح أى النباجين كانت المعركة فيه . وعلى أى حال فإن اسم المعركة ومكانها يثبت أن المقتول فيها ليس محمدا ، وإنما هو أخوه قحطبة ، كما أن أبا تمام يذكر ما كان من خذلان أسرته له فى هذه المعركة ، لائما إياهم على هذا الموقف المتخاذل ، ومتحسرا على قعودهم عن نصرته ، وكأنهم لا يدرون أنهم بذلك إنما يخذلون أنفسهم : يقول : (٣)

بأبى وغير أبى وذاك قليلُ ... ثاوٍ عليه ثَرَى َ النِّباج مَهيلُ
خذلته أسرتهُ كأن سراتهم ... جهلوا بأن الخاذل المخذول
أكّالُ أشلاء الفوارس بالقنا ... أضحى بهنَّ وشِلْوُهُ مأكول

وبعد هذه الأبيات ينتقل مباشرة إلى ذكر محمد ، كأنما أثار مقتل أخيه كوامن أشجانه وهواجع أحزانه . وهو إذ يذكر مقتل محمد إنما يذكره متأملا حكمة الأقدار وتصاريف الأحداث متخذا من قتله شاهدا على ذلة كل عزيز أمام نوازل القضاء ، وأنه إذا كان قد لحق به الضيم بعد العزة والإباء فليس ذلك بالأمر الغريب لأن ضيم الأقدار لا سبيل إلى التوقى من نزوله ، مهما كانت أسباب المنعة التى يحتمى بها أى عزيز ، يقول :

---

(١) نفسه ج٤ ص ١٠١ .

(٢) انظر لسان العرب مادة نبج .

(٣) انظر الديوان ج٤ ص ١٠١ .

كفى فقتل محمدٍ لى شاهدٌ أن العزيزَ مع القضاء ذليـــــل
إن يُستضَمْ بعد الإباء فإنه قد يستضامُ المصعَب المعقول

ويستعيد الحديث عن موقفه البطولى فى لقاء الموت ، واستحسانه وجه الردى الكئيب ، على ما يحيط به من زخرف الدنيا وجمال وجه الحياة . إن هذا البطل الفدائى لاينسى أبدا ، وكيف ينساه أبو تمام وهو الذى كان لى حمى ونصيرا ،ويدا قوية على كل الشدائد ، بل كان المثل الأعلى للرجال فى كريم الشيم وجميل الخصال . وهيهات أن يجود الزمان بمثله ، أو يأتى بشبيهه ، وما مقتله بالنسبة لأبى تمام إلا مقتل للأمل الذى كان يعلقه على وجوده والمجد الذى كان سيعلى شأن طيء ويرفع قدر العرب والمسلمين :

مستحسنٌ وجهَ الرَّدَى فى مَعْرَكٍ وجهُ الحياة بحومتيه جميل
أنسى أبا نصرٍ نسيتُ إذن يدى فى حيث ينتصر الفتى وينيل
هيهات لايأتى الزمانُ بمثله إن الزمانَ بمثله لبخيـــــل
ماأنت بالمقتول صبراً إنما أملى غداة نعيِّك المقتول

لقد خلف مقتله أسوأ الآثار فى عالم البطولة والمجد ، فالسيف يبكى معولا ، لفقده المبارز الذى فرض سلطانه على الرقاب ، والذى جعله فى يده صاحب الصولة والبطش ، والمجد التليد ظامىء لايجد من يرويه ويعيد إليه نضرته وبهاءه ،والثأر الذى كان يبلغ غايته بانتقامه من يكون له من بعده ؟! والخيل التى كان يقتحم بها القفار المجهولة ، ساريا بها فى ظلمات الليل البهيم منصلتا مقداما ، لاشك أنها ستظل ذاكرة له تلك الجرأة والجسارة . والأحساب العريقة ، والنهى الذكية المدبرة للأمور ، كلها صارت بعده مغلولة مثلوبة ،بينما بقيت السيوف البيض ملساء لايضرب بها ولايصيبها فلل ، ومكارم الفعال ما الذى يمكن أن تقوله بعد أن فقدت جوده

ونداه ؟! إنها لاشك قد أصبحت فى حالة من الحيرة والذهول ، لاتدرى ماذا تقول ! فمن ذا الذى يحدث نفسه بعد ذلك بخلود الحياة ، وفى فقد محمد دليل قاطع على حتيمة الفناء ، وبطلان ما قد تتوهمه النفس من إمكان البقاء. يقول :

للسيف بعدك حُرقةٌ وعويل وعليك للمجدِ التليد غَليل
إن طال يومُك فى الوغى فلقد تُرى فيه ويومُ الهام منك طويل
فستذكرُ الخيلُ انصلاتَك فى السُّرى والفقرُ معروف الرَّدَى مجهول
وتُفَلَّلُ الأحساب بعدك والنُّهى والبيضُ مُلس مابهن فلول
من ذا يحدِّثُ بالبقاء ضميرَه ؟! هيهات أنت على الفناء دليل
ياليت شعرى بالمكارم كلِّها ماذا وقد فقدت نداك تقول ؟

وذكرى محمد ما تزال باقية حية فى نفوس الناس ، تتجدد أمجادها فى كل مشهد نرى فيه عملا عظيما أو موقفا بطوليا ، ولاسيما إذا كان ذلك المشهد لأخ له لقى حتفه مناضلا فى ساحة الحرب ، إنه يعيد إلى الأذهان مشهد بطولة محمد كأنما وقع بالأمس ، ويجدد معه مشاهد فروسيته وقوة بطشه بالأعداء ، مقتحما كتائبهم ، يسفك دماءهم ، ويثير فى قلوبهم الرعب والفزع ، حتى إن الشجاع الثابت الجأش منهم ليكون على يقين من أنه لامحالة مقتول بيده ، ومن أن محمدا هو رسول المنية أو ملك الموت جاءه ليقبض روحه ، يقول :

كم مَشهدٍ قد جدَّدته لك العلا وكأنه بالأمس وهو مُحيل
وكتيبةٍ كُتبتْ لها أرواحُها واليوم أحمرُ من دمٍ مصقول
ماشك أثبتهم يقيناً أنـــــه للموت فى قبضِ النفوسِ رسول

وبعد أن يوفى أبو تمام ذكرى محمد حقها من الوفاء المخلص والرثاء الهامى الباكى ، يعود إلى ذكر أخيه قحطبة الذى بدأ به قصيدته ، والذى كان ينبغى أن يخصه

بالتقديم وبالجزء الأكبر من الرثاء . ولكنه على ما يبدو تمثل مقتل الآخرين وحدة متكاملة فى ملحمة البطولة والفداء . ومحمد هو بطل هذه الملحمة ، ثم إن بطولته لها أبعادها وآثارها العميقة فى تاريخ الأمة العربية والإسلامية على مدى العصور ، وفى مجتمع دولتها المعاصر له ، بينما تنحصر بطولة قحطبة فى نطاقها المحلى الضيق ، لاتثير اهتمام الناس إلا فى حدود أهله وقومه ، وليس لها مكان فى تاريخ الدولة الإسلامية ، ومن ثم رأى أبو تمام أن ذكرى محمد أولى بالتقديم والاهتمام وإن بعد العهد بمقتله ، وأن استعادة حديث بطولته من شأنه أن يضفى على مقتل أخيه شرفا ومجدا تليدا . ونراه فى وصفه لمقتل قحطبة يصوره ليثا مقداما كأخيه لايرعبه روع القتال ولاقلة الأنصار ، قد أغمد الخوف فى نفسه إغمادا ، واستل السيف على أعدائه استلالا ومشى إلى الموت الزؤام مشى الخليل إلى خليله مرحبا متهللا ، ففقد مثل هذا البطل ليس فقدا لفرد من الأفراد ، وإنما هو فقد لقبيل عديد من عشيرته وقومه ، فياله من خطب جلل ، يزيد الأحزان تراكما فى نفس أبى تمام ، ويصيبها بحرق شديدة من اللوعة والأسى تطول آلامها وأيامها ؛ يقول :

يايوم قحطبةٍ لقد أبقيت لى	حُرَقاً أرى أيامَها ستطول
ليثٌ لو ان الليث قام مقامَه	لانصاعَ وهو براعةٌ إجفيل
للرأى جمعاً قليلا فى الوغَى	وأولو الحفاظ من الحفاظ قليل
لاقى الكريهةَ وهو مغمدُ رَوْعه	فيها ولكنْ سيفُه مسلول
ومشى إلى الموتِ الزؤامِ كأنما	هو فى محجَّته إليه خليل
لم يودِ منه واحدٌ لكنما	أودى به من أسودان قبيل

ولعل تشابه تصويره لشجاعة قحطبة فى لقاء الموت ، مع تصويره لشجاعة محمد فى قصيدته الأولى كان سببا فى حدوث الخلط ، الذى وقع فيه شراح الديوان بين

الشخصيتين ،واعتبار قحطبة هو محمد نفسه ،دون تنبه إلى أن ما تضمنته القصيدة من إشارات واضحة تدل على كونهما شخصيتين منفصلتين كما بينا من قبل .

وينتهى أبو تمام إلى رثاء بنى حميد بذكر الإخوة الثلاثة منهم ، مصرحا باسم آخر لأحدهم هو محمد أيضا كاسم أخيه الأكبر ، ولكنه لم يذكر شيئا عن موته وكيف وقع ، وإنما أجمله فى الذكر والرثاء مع أخويه . فهم جميعا قد تخطفهم الموت فأصبحت منازلهم وعراصهم كأنها الطلول الدراسة ، ومثلهم كمثل الأسود التى يدركها الفناء بينما تبقى أغيالها وأجماتها . وبعيد الحديث عن بطولتهم وشجاعتهم ، وما اتسموا به من الصبر والجلد فى لقاء الموت تحت ظلال السيوف ، والاستبسال الذى بلـــغ ذروة التضحية والفداء ، حتى كان أرواحهم ومهجاتهم ليست لهم فيحرصوا عليها ، وأنها لن تنسب إليهم إلا إذا أريقت وماؤهم وأزهقت بإراقتها أرواحهم . فعند ذاك تنسب إليهم فى ذكراهم الخالدة ، ويحيون بها فى جنات النعيم مع الشهداء الأبرار. وهم قد ألفوا المنايا وأحبوها شأن المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله، فلا يقتل منهم قتيل إلا فى ميدان الحرب خائضا غمارها ،ولا عزاء لأبى تمام يواسى به نفسه فى فقدهم، إلا أن هذا الدهر الذى كانت غدراته وريبه سببا فى أن يشكلهم سوف يلقى المصير نفسه . وتدور عليه دائرة الفناء فينتهى إلى ممات كما انتهوا،ويموت معه الموت نفسه ليشكله المعذبون المخلدون فى النار ، إذ كانوا يرون فيه راحة لهم عما هم فيه ،وهذا المعنى الذى يبدو غريبا إنما اقتبسه أبو تمام من حديث شريف روى فيه أن الموت إذا حصل وأهل الجنة فى الجنة،وأهل النار فى النار، يجاء به فى صورة كبش أملح فيذبح بين النار والجنة ، فيجزع لذلك أهل النار جزعا شديدا لأن الموت لهم راحة . يقول :

أضحت عراصُ محمدٍ ومحمدٍ وأخيهما وكأنهن طلولُ
أبنى حُميدٍ ليس أولُ ماعفا بعد الأسود من الأسود الغِيل

مازال ذاك الصبرُ وهو عليكمُ ... بالموت فى ظلِّ السيوف كفيل
مستبسلون كأنما مُهَجاتُهم ... ليست لهم إلا غداةَ تسيل
ألِفوا المنايا فالقتيلُ لديهمُ ... من لا تجلِّى الحربُ وهو قتيل
إن كان ريبُ الدهرِ أثكلنيهمُ ... فالدهرُ أيضا ميتٌ مثكول

* * *

وتعددت مراثى أبى تمام لبنى حميد ، إذ وجد فى مقاتلهم وبطولاتهم صورة مثلى للشجاعة العربية، ومادة وفيرة لشعره الحماسى، وكأنهم قد رفعوا على رءوسهم رثاء أبى تمام لبطلهم الأول محمد راية ولواء ، وعاهدوا أنفسهم على أن يظل هذا اللواء معقودا لهم ، وأن يقتفوا أثر بطلهم فى كل معترك ، لتظل الصورة المثلى الباهرة التى رسمها له أبو تمام حية متجددة فى كل منهم ، فكانوا بحق نتاجا زاهرا لغرس حماسته ، وتفجرت فى عروقهم دماء الحمية والبأس ثائرة متغطرفة ، تدفعهم إلى الموت دفعا ، بينما يزداد أبو تمام بفقدهم حزنا على حزن ، وكأنما غدت نفسه مقبرة تضم رفاتهم ومختزنا تصب فيه دماؤهم ، فيقول فيهم : (١)

أى القلوب عليكم ليس ينصدعُ ... وأى نوم عليكم ليس يمتنع ؟
ماغاب عنكم من الإقدام أكرمُه ... فى الرَّوعِ إذ غابت الأنصار والشيع
بنى حميد بنفسى أعظمٌ لكم ... مهجورةٌ ودماءٌ منكم دفع

ويعيد الحديث عن بطولاتهم فى صور فنية رائعة ، لا يفقدها تكرار مضامينها روحها الحماسية الملتهبة ، فهم لا يرهبون المنايا، وإنما يقبلون عليها إقبالا، وينتجعونها فى منابتها انتجاعا ، كما تنتجع الإبل منابت الكلأ لترعاه ، ولم يعهد مثل ذلك فى

---

(١) انظر الديوان ح٤ ص ٨٩ .

أحد قبلهم، فإن من يرى انغماسهم فى الروع، وخوضهم غمار الهيجاء غطاريف سباقين إلى الحتوف، يعتقد أنهم يحملون لها فى أنفسهم حبا شرها، واشتهاء جشعا، فجعلوا من أنفسهم هدفا لها ترصدهم رصدا لتصيبهم برميها، ولتخطفهم من بين ملايين البشر، حتى إنه لو خر سيف من كوكب العيوق منصلتا إلى الأرض لما وقع إلا على رءوسهم. يقول :

ينتجعون المنايا فى منابتها ولم تكن إبلهم فى الدهر تنتجع
كأنما بهم من حبها شره إذا هم انغمسوا فى الروع أو جشع
لو خر سيف من العيوق منصلتا ما كان إلا على هاماتهم يقع
إذا هم شهدوا الهيجاء هاج بهم تغطرف فى وجوه الموت يطلع

وهم قد عرفوا برحابة النفوس وسعة الصدور إلى درجة أنها تستوعب الأرض الشاسعة، ولكنهم مع ذلك لا يرضون إلا أن يحملوها فوق طاقتها، ويجشموها العظائم التى قد تفوق مقدرتها، وإن أعداءهم ليودون أن يكون لهم بعض صنيعهم الذى بلغ ذروة المثالية فى كل الشيم، ولو كان الثمن لتحقيق هذه الرغبة أن يقتلوا من أجلها، إذ كان بنو حميد مبعث نور يعم الأرض أينما نزلوا، ومبعث خير تزهو به الدنيا حيثما اجتمعوا، وبسمة بشر يضحك لها الدهر، بما تمثل فيهم من كريم الخصال والسبق إلى كل عمل عظيم، وإن أيامهم لكثرة ما زخرت به من الخير والأنس والازدهار، صارت مميزة مفضلة كأيام الجمع التى فضلها الله على سائر الأيام، وجعلها أعيادا لعبادته، يجتمع المسلمون لها فى بيوته ومساجده، يقول :

وأنفس تسع الأرضَ الفضاء ولا يرضون أو يُجشِموها فوق ما تسع
يودّ أعداؤهم لو أنهم قتلوا وأنهم صنعوا بعض الذى صنعوا
عهدى بهم تستنير الأرض إن نزلوا فيها وتجتمع الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة كأن أيامهم من أنسها جمع

ويخص أبرز شخصيتين فى بنى حميد بذكر خاص ، وإن كان موجزا ، فيوم النباج الذى قتل فيه قحطبة كما عرفنا الى القصيدة السابقة ، يستعيد ذكره أبو تمام مولدا من مادته اللغوية معنى رثائيا موفقا ، والفعل نبج بمعنى صاح . وقد أبقى يوم النباج هذا نابجة تصبح نادبة قتيله ، فتنقطع أحشاء قومه كمدا وحزنا لصياحها . أما أبو نصر محمد شهيد حرب بابك ، فقتله ما يزال يثير حسرات أبى تمام ، الذى يعد وقوعه أمرا لا يستقيم مع المنطق ، ولا تسيغه نواميس الحياة ، فكيف يقتله بابك ذلك الغوى المفسد ؟! وهو البطل المؤمن ! إن هذا لأمر أشبه بأن يرى الإنسان ضبعا فى شدقه سبع . أو ليس افتراس الضبع للسبع أمرا يثير الدهشة لما فيه من مخالفة لقوانين الطبيعة ؟ فيالها من مفارقة شديدة تزيد مشاعر الحسرة فى فؤاده تأججا والتهابا ، وأيا ما كان الأمر فلا ينبغى أن يشمت فى مقتله ولا فى مقاتل بنى حميد إنسان عاقل ، وهل تكون الشماتة فى أمثال هؤلاء الذين كانوا أسودا فى الوغى ؟! والذين لقوا حتوفهم صابرين مستبسلين بينما نجا غيرهم من الهلاك بجبنهم وجزعهم ، إنه لأمر طبيعى أن يسوقهم صبرهم وثباتهم إلى نهايتهم المحتومة ، فلا عجب فى ذلك ، بل فيه التشريف لهم والتمجيد لذكراهم الخالدة . يقول :

يومَ النِّباج لقد أبقيتَ نابجةً أحشاؤنا أبدًا من ذكرها قطعُ
من لم يعاينْ أبا نصرٍ وقاتلَه فما رأى ضَبُعًا فى شدقها سبع
فيم الشماتة إعلاناً بأسد وغى أفناهم الصبر إذ أبقاكم الجزع ؟!
لا غروَ إن قتلوا صبرا ولا عجبٌ فالقتل للصبر فى حكم القنا تبع

وهكذا جعل أبو تمام من آل حميد وعلى رأسهم محمد مثلا عليا للبطولة العربية الإسلامية ، وقدوة يحتذى بها فى التضحية والفداء وإنكار الذات ، ونظم فى رثائهم

أناشيد حماسية بالغة الإثارة والتأثير ، تنفخ فى روح الأمة الإسلامية مبادىء النضال والجهاد ، لتعيدها جذوة متقدة كما كانت فى عهودها الأولى، ولتواصل مسيرتها لإعلاء كلمة الله ودحض القوى المناوئة للإسلام ، وفى مقدمتها الخرمية البابكية التى كانت تمثل فى ذلك الحين أكبر خطر يهدد دولة الإسلام الكبرى ، وعقيدته الدينية المثلى .

الفصل الثالث

فى انتصار اسحاق بن ابراهيم المصعبى

كان مقتل محمد بن حميد الطوسى ،وهزيمة جيشه بهذه الصورة المنكرة ، ضربة موجعة لجيوش الدولة العباسية ، أصابتها بالذهول ، وأفقدتها القدرة على التجمع، ورد الضربة إلى بابك وخرميته قرابة أربع سنوات ، شغلت الدولة فى خلالها بتضميد الجراح،ومحاولة الصمود أمام القوى البابكية ، التى استفحل أمرها وتفاقم خطرها ، وامتد نفوذها إلى المناطق المجاورة لآذربيجان ، والتى أدى انتصارها إلى تشجيع قيام ثورات أخرى فىأرمينية ، اضطرت الدولةإلى مواجهتها . كما أنالخليفة المأمون كان منصرفا إلى حرب الروم[1] ، يقود الجيوش بنفسه ، ويغزوهم فى بلادهم ، ليلقنهم درسا قاسيا ، وحتى لايظنوا به ضعفا بعد أن عرفوا أخبار الهزائم التى منيت بها جيوشه أمام بابك ، وليمنعهم من التلاحم معه والتحالف على ضرب دولته .

وفى تلك الظروف العصيبة بعد هزيمة جيش ابن حميد ، ولى المأمون عبد الله ابن طاهر على كور الجبال وأرمينية وآذربيجان ، فخرج عبد الله وأقام بالدينور ، وكتب إلى مهدى بن أصرم الذى تولى قيادة الجيش فى أرمينيه وآذربيجان بعد مقتل محمد بن حميد ، وإلى محمد بن يوسف وعبد الرحمن بن حبيب ، القواد الذين

---

(١) انظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢١٥هـ ومابعدها حتىسنة٢١٨هـ.

كانوا مع محمد بن حميد أن يقيموا بمواقعهم ، ولكن الظروف لم تتح لعبد الله بن طاهر أن يعد العدة لحرب بابك ، فلم يلبث أن توفى أخوه طلحة الذى كان واليا على خراسان ، فولاه المأمون عليها مكانه ، وولى على بن هشام آذربيجان ومحاربة بابك ، وولى عبد الأعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمى أرمينية . التى شبت فيها ثورة بقيادة محمد بن عتاب ، وانضمت إليه الصفارية ،فكانت مركز خطر جديد يهدد أمن الدولة(١) .

ولا تذكر المصادر التاريخية شيئا عن الأحداث التى وقعت فى آذربيجان، أو الوقائع التى دارت بين بابك وولاة الدولة فى هذه المنطقة، بعد هزيمة ابن حميد ومقتله سنة ٢١٤ هـ وحتى سنة ٢١٨ هـ التى توفى فيها المأمون وتولى المعتصم الخلافة. ويبدو أن أحداث هذه السنين لم تكن تتجاوز المناوشات التى لا يعنى المؤرخون بذكرها ، ولم تكن هناك وقائع ذات أهمية أو خطر .

وما كاد المعتصم يستقر ببغداد بعد عودته من الثغر ومبايعته بالخلافة وحتى خرجت المحمرة بالجبل ، فقتلوا وقطعوا الطريق وأخافوا ،وعرضوا لحاج خراسان فهزموهم ، وقتلوا منهم جماعة فوجه المعتصم إسحاق بن ابراهيم فى جيش . . .

---

(١) انظر ابن الأثير حوادث سنة ٢١٤ هـ وكذلك اليعقوبى . وذكر الطبرى خبر عبد الله بن طاهر فى حوادث سنة ٢٠٧ هـ . وقد فهم منه الدكتور عبد المحسن سلام أن عبد الله بن طاهر كان على خراسان فى تلك السنة . وعلق عليه بأنه خطأ من الطبرى يخالف ما ذكره ابن الأثير واليعقوبى (انظر الثورة البابكية هامش ص ٦٧) والواقع أن نص الطبرى ليس فيه خطأ ولا مخالفة للمؤرخين كما ظن الدكتور سلام فقد ذكر أن طلحة بن طاهر أقام واليا على خراسان فى أيام المأمون سبع سنين بعد موت أبيه طاهر سنة ٢٠٧ هـ وأن عبد الله ولى خراسان سنة ٢١٤هـ بعد موت طلحة .

ونفـذ فواقمهم ، فقتـل منهم مقتلة عظيمة وأقام حتى أصلح البلد بعد أن نالته منهم شدة »[1] .

ويذكر الطبرى تلك الأحداث بصورة تختلف تفاصيلها عما ذكره اليعقوبى وان تشابه الخبر فى جملته يقول : « وفيها دخل فيما ذكر — جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق فى دين الخرمية ، وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان فوجه المعتصم إليهم عساكر ، فكان آخر عسكر وجه إليهم ، عسكر وجهه مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ، وعقد له على الجبال فى شوال فى هذه السنة ، فشخص إليهم فى ذى القعدة ، وقرىء كتابه بالفتح يوم التروية ، وقتل فى عمل همذان ستين ألفا ، وهرب باقيهم الى بلاد الروم[2] » ثم يكمل الطبرى أخبار تلك الأحداث فى السنة التالية ، اذ قدم فيها اسحاق بن ابراهيم بغداد من الجبل ومعه الأسرى من الخرمية والمستأمنة ، كما يورد رواية أخرى عن عدد القتلى الذين قتلهم إسحاق فى محاربته اياهم ، بأنهم كانوا نحوا من مائة ألف سوى النساء والصبيان[3]

ويضيف التبريزى فى تقديمه لإحدى قصائد أبى تمام فى مدح إسحاق بن إبراهيم بهذه المناسبة بعض تفصيلات لم يوردها المؤرخون عن هـذه الواقعة يقول : « وقال يمدح إسحاق ابن إبراهيم ، ويذكر إيقاعه بالمحمرة أصحاب بابك . وكانوا تواعدوا الى موضع علم به ، فوقف لهم فيه ، فكل من جاء قتل وحزت أذنه حتى وجه الى المعتصم بستين ألف أذن »[4] .

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٧٥ .

(٢) انظر الطبرى حوادث سنة ٢١٨ هـ بعد تولى المعتصم الخلافة . وكذلك ابن الأثير حوادث السنة نفسها .

(٣) المصدر نفسه حوادث سنة ٢١٩ هـ

(٤) انظر ديوان أبى تمام شرح التبريزى ج ٣ ص ٢٩٧ .

ويجدر بالذكر أن نعرف بهذا القائد المنتصر إسحاق ، فهو ابن ابراهيم بن مصعب الخزاعى من موالى خزاعة ، وابن عم طاهر بن الحسين قائد المأمون الشهير ، وقد ولى إسحاق بغداد أكثر من عشرين سنة ، وكان يسمى صاحب الجسر وكان صارما سائسا حازما ، وهو الذى كان يطلب العلماء ويمتحنهم بأمر المأمون[1] أثناء محنة خلق القرآن .

كان انتصار إسحاق على الخرمية أو المحمرة من أتباع بابك الذين تكاثروا تكاثرا كبيرا ، هو أول انتصار يحرزه قائد عباسى بعد هزائم متلاحقة استمرت سبعة عشر عاما . ولاشك أن هذا النصر قد غمر قلوب المسلمين بالفرحة والابتهاج وشفى غليل نفوسهم التى برحتها الآلام والأحزان، وكان أبو تمام يترقب هذا اليوم على أحر من الجمر ، ليطفىء به جذوة الحقد والأسى التى تضطرم فى نفسه اضطراما منذ مقتل محمد بن حميد ، فما أن بلغته أخبار هذا الانتصار حتى هب يملئه على الملأ ويتغنى به فى قصائد حماسية متفجرة . ولم تكفه قصيدة واحدة ليفرغ فيها شحنات مشاعره التى تمازجت بها شتى الانفعالات ، وإنما نظم ثلاث قصائد يأخذ بعضها بعناق بعض ، وتتدفق فى ثناياها روح متفائلة متفاخرة . ويشد أبو تمام رحاله إلى إسحاق بالجبال لينشده مديحه الحماسى ، غير منتظر عودته إلى بغداد ، اذ تستحوذ عليه رغبة ملحة فى الذهاب إلى تلك المناطق التى طحنتها الحروب « وروت ثراها دماء الشهداء » ويسجل رحلته إليه فى قصيدة منها ، مما يرجح أنها أولى قصائده الثلاث ، ومطلعها[2] :

---

(١) انظر شذرات الذهب ح ٢ ص ٨٤ ، وانظر خبر المحنة بالقرآن فى الطبرى حوادث سنة ٢١٨ ﻫ .

(٢) انظر ديوان أبى تمام شرح التبريزى ح ٣ ص ٢٦١ .

يا ربع لو ربعوا على ابن هموم مستسلم لجوى الفراق سقيم

وبعد مقدمة غزلية تقليدية من عشرة أبيات ، ينتقل إلى وصف رحلته إلى إسحاق فيقول :

وإلى حذاب أبى الحسين تشذرت زمامها كالمصعب المخطوم[1]
جارتك فى مُمْج خوانف فى السُّرى وعوارف بالمَعْلَم المأموم[2]
من كلِّ ناجيةٍ كأن أديمها حيصت ظهارته بجلد أطوم[3]

ويستطرد فى وصف الرحلة ، والإبل التى حملته إلى ممدوحه ، الذى اختاره الخليفة المعتصم لمجابهة هذا الأمر الخطير ، والذى استعمله الخليفة المأمون من قبله على شرطة بغداد ، فكلاهما وجداه رجلاً محمود الفعال ، مخلص النصيحة صادق العزيمة ، فرفعاه إلى المكانة اللائقة به وأولياه حللا من التبجيل والتعظيم ، وقدماه على سواه لما يحزب من الأمور ، وأى أمر كان أشد خطر على الدولة فى ذلك الوقت من الخرمية الباغية ؟! يقول :

إن الخليفة والخليفة قبله وجداك تَرْبَ نصيحةٍ وعزيم

---

(١) تشذرت الناقة : رفعت وجدت فى سيرها . المصعب : الفحل . المخطوم الذى جعل فى أنفه خطام .

(٢) المعج : جمع معوج وهى التى تمعج أى التى تسير سيرا سهلا . الخوانف : التى تختف فى سيرها أى تقلب خفافها إلى الجانب الوحشى ، وقيل : الخناف : أن تعطف رأسها فى السير من النشاط المعلم : الطريق الواضح أو الممدوح المعتمد . المأموم : المقصود .

(٣) الناجية : الناقة السريعة . حيصت : خيطت . الظهارة : ضد البطانة . الأطوم : ضرب من السمك وقيل هى السلحفاة .

وجدَاكَ محموداً عليَّ بألواْ ... لكَ في مفاوضةٍ ولا تقديمِ
مازلتَ من هذا وذاكَ لابساً ... حللاً من التبجيلِ والتعظيمِ

ويعرب أبو تمام عن مشاعر الفرحة التى غمرته مفديا إسحاق بنفسه ، لما حققه من نصر مؤزر فى تلك الحروب ،التى جثمت أشباحها الرهيبة على تلك المنطقة لفترة طويلة من الزمن ، وتركت جبالها وسكانها فى ظلمة الهزيمة ودمار اليأس ، وأحالت حياتهم إلى طرمساء مدلهمة من الشقاء والهوان . وكانت وقائعه بهؤلاء الأعداء من الخرمية فى موضع يسمى « الداذويه » وفى موضع آخر يسمى « خيزج » وغيرهما من المواضع، حيث أعمل فيهم السيف يطيح رءوسهم ويحصدها حصدا، وحيث فتك بهم رجاله الأشاوس ومزقوهم تمزيقا ، كأنما هم أسود أغيال أو جن ليل صريم فما أشبههم بقائدهم البطل ، وما أحقهم أن ينسبوا إليه فيلقبهم بالمصعبيين ، إنهم يبدون كالبدور المضيئة فى دجى المعارك ، تنجلى بهم ظلمتها ، وتنكشف غمتها ، وتتلألأ دروعهم التى تسربلوا بها كأنها النجوم :

نفسى فداؤك والجبالُ وأهلها ... فى طِرْمِساءَ من الحروب بهيمِ
بالداذويه وخيزجٍ وذواتها ... عهدٌ لسيفك لم يكن بذميمِ [1]
بالمصعبيين الذين كأنهم ... آسادُ أغيالٍ وجنُّ صريمِ [2]

---

(١) الداذويه وخيزج: اسمان لموضعين بآذربيجان ،وفى معجم البلدان لياقوت (خيرج) بالراء المهملة وليست بالزاى المعجمة كما هى فى البيت. وفى شرح التبريزى لهذا البيت يقول معلقا « يعنى وقائعه بالخرمة بالجبال بعد قتل بابك ، وكان قد وجه بستين أذن » ومن الواضح أن تحديد التبريزى لهذه الوقائع بأنها بعد قتل بابك خطأ تاريخى ، فمن الثابت أن بابك لم يقتل إلا بعد ذلك بحـــوالى أربع سنوات .

(٢) صريم يحتمل وجهين : أحدهما : أن يعنى به الليل ، والثانى : أن يكون

مثل البدور تضيء إلا أنها قد قُلنست من بيضها بنجوم

وإذا كان التاريخ لم يذكر تفاصيل هذه المعارك ، ولم يشر فيما أوجزه عنها من أخبار إلى قيادة بابك للخرمية فيها ، فإننا نجد أبا تمام يذكره مهزوما مخذولا ، قد ولى فى جيشه هاربا يضرب فى الأرض ناجيا بنفسه ، وهو يلومها أشد اللوم ويعذلها على ماسولت له من شر البغى وسوء العمل ، إذ كان يهدف هو وأتباعه الى تحقيق غايتهم بنشر عقيدتهم المفسدة ، وهدم العقيدة الإسلامية الهادية ، ولكن أنى لهم ذلك وسيف الخليفة إمام المسلمين يقطع عليهم السبل ، ودعوات المظلومين الذين عانوا من طغيانهم تشق عنان السماء لتلقى الإجابة من الله عز وجل أن ينصرهم على عدوهم وعدوه ، كما وعدهم بذلك فى محكم آياته ، وها هو وعده يتحقق على يد ذلك القائد المؤمن :

ولى بها المخذولُ يعذِلُ نفسه متمطِّراً فى جيشه المهزوم
راموا اللتيَّا والتى فاعتاقهم سيفُ الإمام ودعوةُ المظلوم

ولم يرد أبو تمام أن يصور هذه الحروب على أنها مجرد انتقام من بابك وأتباعه، فليس الانتقام فى شريعة الإسلام غاية يسعى إليها ، وإنما هو وسيلة لتحقيق غاية أسمى ، ألا وهى إعلاء كلمة الله ، ورفع راية التوحيد ، وإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل . وإسحاق بصفته قائدا لجيش إسلامى لابد أن يكون ملتزما بمبادئ الإسلام ، وهذا مايؤكده أبو تمام ، إذ يذكر لنا أنه ناشد البابكيين بالله أن يعودوا إلى الحق ، ووعظهم أن يسلموا ويؤمنوا ويقلعوا عما هم فيه من غى وضلال ، على الرغم من احتدام المعارك ، وثقته بقوة جيشه ، ورجحان كفته بالنصر ، فهو

= جمع صريمة من الرمل وهى القطعة العظيمة منه ، لأنهم يصفون الرمل بأن الجن تعزف فيه .

لا يعظهم باتباع الحق من موقف ضعف ، وإنما هو فى موقف القوة ، يمد لهم يد السلام ، ويدعوهم إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة وإن كان يملك القدرة على البطش والتنكيل بهم ، فلما تبين له جموحهم عن دعوة السلام ، وتثبت من عدم استجابتهم لنصيحة الحق ، دمر بيوتهم تدميرا ، وهتك حرماتهم هتكا ، وجرد فيهم بيض السيوف تطيح بهاماتهم وتحصدها حصدا ، مستعينا فى ذلك بالله ربه أولا ، فما النصر إلا من عند الله، ثم بخليفة المسلمين المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين، وفى اسمه دلالات ومعان من قوة الإيمان بالله والاعتصام بقدرته ،والاحتماء فى ظلال رعايته وكفى بالله نصيرا ، وبهذه العدة الروحية القوية أوقع بهم تلك الوقعة المنكرة فى عقر دارهم ، وعلى ساحات أرضهم فى مشرق الدولة ، وأنزل صواعق الموت التى تصدعت من هولها الجبال ، وامتد زلزالها ليهز جبال الروم هزا عنيفا ، كأنما تنذرهم إنذارا مشددا بما ينتظرهم من هلاك ودمار ، إذا مابدرت منهم بادرة عدوان على أرض الإسلام،وماهذه الحروب فى حقيقتها إلا صراع بين الحق والباطل بين دين التوحيد الذى تجرد متصديا لدين التخريم ليمحقه محقا ، لأن عقيدته ليست إلا فتنة وفسادا ، ولن يحقق لهم حياة الرغد والنعيم كما يزعمون ، أو كما تعنى كلمة « خرم »[١] التى نسبت اليها عقيدتهم ، وها هو الحق يظهر ، ويتبين لهم أن تلك العقيدة قد سلبتهم نعمة الإسلام ، وحرمتهم نضرة السلام ، وألقت بهم فى نار جهنم حيث يكون شرابهم وطعامهم من الغسلين والزقوم ، كما وعدهم الله هم وأمثالهم من دعاة الكفر والإشراك والمفسدين فى الأرض : يقول :

ناشدتَهم بالله يومَ لقيتَهم والخيلُ تحت عَجاجةٍ كالنِّيمِ [٢]

---

(١) انظر ما كتب فى معنى كلمة خرم فى الفصل الأول من هذا البحث .

(٢) النيم : الفرو القصير ، وقيل النيم : تكسر الرمل إذا درجت عليه الريح

ومنحتهم عطفيك من متوعر متسهل قاسي الفؤاد رحيم

حتى إذا جمحوا هتكت بيوتهم بالله ثم الثامن المعصوم

فتجردت بيض السيوف لهامهم وتجرد التوحيد للتحريم

غاديتهم بالمشرقين بوقعة صدعت صواعقها جبال الروم

أخرجتهم بل أخرجتهم فتنة سلبتهم من نضرة ونعيم

نقلوا من الماء النمير وعيشة رغد إلى الغسلين والزقوم

ويستطرد أبو تمام واصفا أحوال الحرب وبطولة إسحاق فى خوض غمارها فهى إذا ماحمى وطيسها ، وجهلت غاراتها ، وغلت مراجلها على حطب متقد من الرماح المحطومة ، كانت على يقين من أن المنايا مؤتمرة بأمره ، يوجهها حيث يشاء لتختطف أرواح الاعداء ، وأن الوغى هو كأسه التى امتزجت فيها ألوان الردى ودماء الجراح ليسقى منها هؤلاء الخرمية الباغين وينفذ أبو تمام بثاقب فكره متأملا طبيعة الحرب وواقعها ، وكأنه محارب صهرته تجربتها ، فيراها فى جهالتها جموحا قد ركبت رأسها ،وقلبت موازين القيم المتعارف عليها بين الناس، فالسفيه الجاهل الذى يقتحم أخطارها متهورا مقداما غير هياب أو مفكر فى العواقب ، إنما هو الشجاع الحق والبطل المغوار الذى يعدل ألف عاقل أو حليم فى حلبتها ، إذ لا مجال فيها للحلم وإعمال الفكر . فلو أن لقمان الحكيم نفسه شارك فيها لفقد حكمته ، ولطبعته بطوابع جهالتها ، التى تطير لها العقول وتذهل من هولها الألباب وتجثم فى أوكارها طيور الموت ، وإسحاق فى غمار هذه الأهوال هو السيف الذى يضرب ضرباته القاتلة فى كل اتجاه ، فيجتث أعناق الفرسان المقدمين ويحتز عرشها وعصبها ليفصلها عن أجسادهم فصلا ، لما يتميز به ذلك القائد من حزم باتر ، وإقدام ثائر وقيادة متبصرة وحماسة متفجرة :

والحرب تعلم حين تجهل غارة تغلى على حطب القنا المحطوم

أن المنايا طَوْعُ بأسِك والوغى ... ممزوجُ كأسِك من ردًى وكُلوم

والحربُ تركبُ رأسَها في مشهد ... عُدِلَ السفيهُ به بألف حليم

في ساعة لو أن لقمانًا بها ... وهو الحكيم لصار غير حكيم

جثمت طيورُ الموت في أوكارها ... فتركن طيرَ العقل غير جُثوم

والسيف يحلفُ أنك السيف الذى ... ما اهتزَّ إلا اجتثَّ عِرْشَ عظيم[1]

ويخرج أبو تمام من هذا الوصف الحماسى المفعم بأحاديث البطولة ، ليعبر عن اعتزازه بهذا النصر المبين ، وتفاؤله بماسيكون بعده من حياة مطمئنة هنية ، فقد دخل بمقدمه على إسحاق تحت مظلة الأمن التى أظل بها تلك المنطقة المضطربة الثائرة ، وتراجعت عنه الخطوب متقهقرة كأنما تخشى بطش إسحاق بها ، وفزعت ذاهبة مودعة إلى غير عودة ، لأنها أيقنت من فشلها فى أن تلحق به ضرا أو تنال منه منالا ، بعد أن صار محتميا بحماه ، آمنا فى جواره ، ناعما بالسلامة والرعاية والتكريم :

مشت الخطوبُ القهقرى لما رأت ... خَبَبى إليك مؤكِّدًا برسيم

فزعت إلى التوديع غير لوابثٍ ... لما فزعتُ إليك بالتسليم

بهذا يستوفى أبو تمام عناصر الموضوع الرئيسى فى القصيدة ثم يستكمل مديحه بتلك المعانى التقليدية المعروفة عن كرم ممدوحه وجوده الفياض مؤملا أن ينال منه نصيبا موفورا وعطاء جزيلا .

* * *

---

(١) العرش : واحد العرشين ، ويقال إنهما عصبتان فى العنق ، وربما قالوا « العرش » مركب العنق فى الكاهل .

والقصيدة الثانية التى مدح بها أبو تمام إسحاق — على الأرجح — هى تلك التى قدم لها التبريزى ببعض المعلومات التاريخية ، عن إيقاع إسحاق بأصحاب بابك وتقتيلهم وحز آذانهم كما أشرنا من قبل ، وهى التى يقول فى مطلعها :(١)

خَشُنْتِ عليه أختَ بنى خُشَيْنِ   وأنجحَ فيك قولُ العاذِلَيْنِ

وبعد مقدمة غزلية تقليدية لاتتجاوز خمسة أبيات ، ينتقل أبو تمام إلى مدح إسحاق ، كأنما يتعجل الدخول فى الموضوع دون ما إطالة فى التقديم له كما فعل فى قصيدته السابقة ، إذ تشده الأحداث شدا ، ويدفعه انفعاله المتحمس دفعا إلى غرضه الرئيسى ، ولكنه لا يدلف مباشرة إلى حديث الحرب ، بل يمهد له بذكر ما يتصف به ممدوحه من الجود والسخاء ، ومن نور البصيرة وذكاء العقل ، ومن عظمة السؤدد وعلو المجد ، ومن حزم فى القيادة وشجاعة فى خوض المعارك ، مما جعله موضع ثقة الخليفتين المأمون والمعتصم — كما ذكره من قبل — وسيفهما الذى يضربان به كل عاص أو خارج ، فهو بذلك قد استجمع صفات الشخصية العظيمة الجديرة بعظائم الأمور :

لإسحاقَ بن إبراهيمَ كفٌّ   كفَتْ ما فيه نَوْءُ المرْزَمَيْنِ
ونورًا سؤددٍ وحجًا إذا ما   رأيتَهما رأيتَ الشِّعْرَيَيْنِ
ومجدٌ لم يَدَعْه الجود حتى   أقام مداوِمًا للفَرْقدينِ
حليفُ ندىً وتربُ علاً إذا ما   هتفتَ به وسيفُ خليفتين

ومن هذا التمهيد يدخل إلى ذكر إيقاعه بأصحاب بابك فى عقر دارهم ، حيث تمنعوا بالجبل ، فما منعهم ولاحماهم من نوازل الموت وكوارث الهلاك التى حلت

---

(١) الديوان ج٣ ص ٢٩٧ .

بهم ، وزلزلتهم زلزالا شديدا ،وكشفت عنهم حجب الشك والضلالة ،التى رانت على قلوبهم وأعمت بصائرهم . ولقد اشتفت منهم السيوف والرماح اشتفاء أذهب ماكانت تكنه لهم من الحقد والشجا ، وكانت لانتصارات إسحاق فى هذه الوقائع نتائج باهرة ، أشرقت لها مواقف الحج ومشاعره بخيف منى وبعرفات والمزدلفة، وابتهجت جموع الحجيج مهللة مكبرة ،ولاشك أن أباتمام يشير بذلك إلى ماذكره المؤرخون، من تعرض أصحاب بابك لحاج خراسان وقتل جماعة منهم[1] ، فكان مافعله إسحاق انتقاما لهم ، ونقمة من الله أنزلها بهم عقابا لهم على مااقترفوه من إثم عظيم ، واعتداء على حرمة الله فى حجاج بيته الأطهار . فهاهم أعداء الله قد أخمد ضجيجهم واختفت ثورتهم فى المشرق ، بعد أن بثوا الرعب فى قلوب الناس حتى من كانوا بعيدا عن أيديهم فى مغرب الدولة ، فياله من نصر مظفر عمت به النعماء جميع الخلق فى الأرض والسماء ، وعلت كلمة الحق على مزاعم الباطل ، ولولا سيف إسحاق الماضى الذى قضى عليهم وقطع دعاواهم الكاذبة ، لشوهوا ملة الإسلام وخلطوا بها تعاليم ملتهم ، ولأشركوا مع النبى محمد نبيهم المزعوم فى الرسالة كما يدعون ، وكما عرفنا من مبادىء عقيدتهم الخرمية[2] ، فمعاذ الله أن يكون لأكاذيبهم المضللة بقاء فى دولة الإسلام ، أو وجود بجانب دعوته السامية إلى الحق والخير :

سَلِ الجبلَ المنَّمَ كيف أخنَى ... عليه زُخْرفًا نكدٌ وحَيْن
أزَلتَ الشكَّ عنهم يومَ رانت ... ضلالتُهم عليهم أىَّ رَيْن
لقيتَهُمُ بحلاَّبِ المنايا ... بعيد الرِّزِّ نائى الحَجْرتين[3]

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ٥٧٥ .

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ١٦١ .

(٣) الرز : الصوت . الحجرتان : الناحيتان .

فما أبقيتَ للسيف اليماني شجاً فيهم ولا الرمح الرديني
وقائع أشرقتْ منهن جَمْعٌ إلى حيفَىْ صِفِّينَ والموقفين
ثوى بالمشرقين لهم ضجاجٌ أطار قلوبَ أهلِ المغربين
فمسّتَ الخلقَ بالنعماء حتى غدا الثقلان منها مثقلين
ولولا سيفك الماضي تسمّوا خليلَيْ صلّة ومحمّدين
ولكن قلتَ والمهجات تجري معاذَ الله من كذبٍ ومَيْنِ

ويرى أبو تمام فى وقائع إسحاق بالبابكيين عملا حربيا عظيم الشأن، يستحق أن يخلد فى التاريخ بحروف من نور ، وأن تكتب فيه أروع صفحات المجد والفخار ، ويذهب فى تمجيده مذهبا جديدا يجمع بين التاريخ والشعر ، مستعرضا ثقافته التاريخية الواسعة ، ومعرفته بأيام العرب فى الجاهلية والإسلام ، والمعارك المشهورة فى تاريخ الفرس والروم ، فيسجل العديد من هذه الأيام وتلك المعارك التى ملأ ذكرها الخافقين ، ليقول إن وقائع إسحاق قد أربت عليها ، بل محت ذكرها ، وأنها أجدر بأن تذكر وتمجد وتخلد ، فيقول معددا أيام العرب فى الجاهلية والإسلام :

محوْتَ بها وقائعَ من ملوكٍ وكُنَّ وقد ملأْنَ الخافقين
صبيحةَ خازرٍ أنستْ ومهوى عبيدِ الله فيها والحصَيْن[1]
ويومَ الربيع إذ دامتْ معدٌّ بأجمعها وأسرةُ ذى رُعَيْن[2]

---

(١) موقعة « خازر » بناحية الموصل وهى التى انتصر فيها إبراهيم بن الأشتر والمختار الثقفى على جيش الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد ، والحصين بن نمير السكونى اللذين قتلا فى المعركة .

(٢) فيف الريح هو يوم اجتمعت فيه قبائل معد ووحدت أمرها لحرب =

وأيامَ الذَّنائبِ زعزَعتْها ... ويومَ مُهلهلٍ والشَّعْثَمَينْ (١)
وأيامَ الكُلاب غداةَ هزَّت ... مراريَّينَ فيها مُفْتَرِقينْ (٢)
أخٌ تركتْ أسنَّتُه أخاه ... تليلاً للجبين وللبدين

ويسجل وقعة مشهورة لإياس بن قبيصة الطائى ، هى « ساتيدما برواز » التى أوقع فيها بقيصر الروم وجيشه ، فوضع فيهم السلاح وقتلهم ، ونجا قيصر فى خواص أصحابه ، يقول :

ومن ساتيدما بَرْواز فلَّت ... شبا فخرٍ فسيحَ الطائفين (٣)
بَلاَ فيها إياسٌ كلَّ لَدْنٍ ... وكلِّ مصمِّمٍ فى العظْمِ لَيْن

= اليمنيين وملوك حمير من أسرة ذى رعين الذين كانت لهم سيطرة على هذه القبائل .

(١) أيام الذنائب من أيام حرب البسوس التى كانت بين بكر وتغلب ، ومنها أيضا يوم الشعثمين الذى قتل فيه مهلهل ابنى معاوية بن ذهل فى طلب دم كليب وكان اسم أحدهما شعثم والآخر شعثب .

(٢) الكلاب : اسم لماء بين الكوفة والبصرة ، وقد نسبت إليه عدة وقائع ، والذى عناه منها هنا يوم منها هو الكلاب الأول ، وكان بين الملكين الكنديين سلمة وشرحبيل ابنى الحارث بن عمرو آكل المرار ، وهما عما امرىء القيس بن حجر ، وذلك لتنازعهما فى الملك بعد موت أبيهما ، وقد انحازت لكل منهما بعض القبائل ، وقتل شرحبيل فى هذا اليوم .

(٣) ساتيدما : اسم جبل يجىء منه نهر وهو أصل دجلة ، وبه سميت هذه الواقعة ، وفيها حديث طويل خلاصته أن شهريار الأصبهبذ قائد جيوش كسرى انضم إلى قيصر ، لعلمه بأن كسرى ينوى الغدر به وقتله ، فدبر كسرى مؤامرة أوقع بها بينه وبين قيصر الذى اضطر إلى الانهزام خوفا من خيانة شهريار ، فأتبعه كسرى إياس بن قبيصة فقتل الكثير منهم ولهذا ملكه كسرى على العرب بعد النعمان بن المنذر .

ويستمر فى ذكره لأيام العرب فيقول :

وحُجْراً وامرأ القيس بن حُجْر ليالى كاهلٍ وبنى قُعَيْن[1]
ويومَ البِشرِ أنسته وهدَّت وقائمَ راهطٍ وبناتِ قين[2]

ويختار أبو تمام من تاريخ الفرس واقعة هامة تتصل اتصالا وثيقا بموضوعه الأساسى وهى الواقعة التى فتك فيها كسرى أنو شروان بالمزدكية ، بعد أن استشرى خطرهم وعم إفسادهم فى أيام أبيه قباذ ، وقد عرفنا أن الخرمية أتباع بابك كانوا يأخذون بمبادىء المزدكية ويعملون على إحيائها ونشرها ، ويعيد التاريخ نفسه ، فيفعل بهم إسحاق مافعله أنو شروان بأسلافهم من قبل ، حين جعلهم عبرة لأهل المشرقين وسامهم أشد ضروب الخسف والتنكيل ، يقول :

ويوم المَصْدقيَّة حين ساموا أنو شَرْوان خطباً غير هَيْن[3]
فقادهم هريتُ الشِّدق جهمٌ لدى أشباله ذو لِبْدتين[4]

---

(١) يعنى قتل بنى أسد حجرا ، وطلب امرىء القيس بثأره وقتله بنى كاهل وبنى قعين من بنى أسد .

(٢) يوم البشر الذى أوقع فيه الجحاف بن حكيم السلمى ببنى تغلب فقتل الأطفال وبقر بطون الحبالى . ومرج راهط ، كانت فيه الوقعة بين آل مروان وابن الزبير ، وكانت كلب مع آل مروان ، وقيس مع ابن الزبير يقودهم الضحاك بن قيس الفهرى الذى قتل فى ذلك اليوم . ويوم « بنات قين » أوقعت فيه فزارة ومن ضامها بكلب بن وبرة . وقال الصولى : « بنات قين » يوم اقتتل سعيد بن عيينة بن حصن وخلجة الفزارى كتابا عن عبد الملك أنهم ولوا صدقات كلب ، فقتلوهم بموضع يقال له بنات قين .

(٣) المصدقية : نسبة إلى « مصدق » ويقال « مزدق » أو « مزدك »

(٤) الهرت : سعة الشرق

فأضحَوْا بعد عزٍّ واختيالٍ وهمْ عِبَرٌ لأهل المشرقين

ولا ننسى أن أبا تمام قد عدد كل هذه الوقائع والأيام المشهورة ليفضل عليها وقائع إسحاق بالبابكيين ،وليرفعها فوقها درجات فى سلم المجد والانتصار ، ثم يضيف عاملا قويا يعزز به هذا التفضيل وهو عامل الجهاد الدينى ، فحروب إسحاق فى حقيقتها جهاد فى سبيل الله ، وإعلاء لكلمته ، ورفع لراية دينه،ودحض للكفر والكافرين، تذكرنا بغزوات النبى (ص) وانتصاراته فى بدر وحنين ، فيقول مؤكدا هذا المعنى :

ولكن أذكرتْنا يومَ بدرٍ ومشتَجَرَ الأسنَّةِ فى حُنَيْن
رددْتَ الدينَ وهو قريرُ عين بها والكفرُ وهو سخينُ عينِ

وبهذه الروح الإسلامية ينهى أبو تمام موضوعه الحماسى فى القصيدة كما بدأه بها ، ثم يختم مديحه بتلك المعانى التقليدية فى الإشادة بكرم الممدوح الذى طوقه وأصلح حاله ، ورد عنه عادية الأيام .

* * *

وننتقل إلى قصيدته الثالثة فى مدح إسحاق وذكر وقائعه وانتصاراته على البابكيين والتى يرجح أنها آخر قصائده الثلاث ماذكره فيها عن انصراف إسحاق بجيشه ومغادرته الجبل بعد إنتهاء الحرب .

وهى التى يبدؤها بقوله[1] :

أصغَى إلى البين مُغْتَراً فلاجَرمَا أنَّ النَّوى أسأَرَتْ فى قلبه لَمَمَا

---

(١) الديوان جـ٣ ص ١٦٥ .

وبعد مقدمته التقليدية التى يتحدث فيها عن قسوة البين والفراق ولوعة الأشواق فى ثمانية أبيات ، ينتقل إلى موضوعه الحماسى ببراعة فنية ، فيربط بينه وبين المقدمة ربطا طريفا ، إذ يدعو على الفراق الذى صب عليه بهمومه وأحزانه أن يصب عليه انتقام إسحاق فى يوم الروع ، كما يصب على أعدائه فيقول :

صُبَّ الفِراقُ علينا صُبَّ من كَثَبٍ عليه إسحاقُ يومَ الرَّوْعِ منتقما

وبهذا ينفتح له مجال القول فى بطولات إسحاق وانتصاراته التى حققها ، فيلقبه بسيف الإمام ، وهو لقب شبيه باللقب الذى رسمه به فى القصيدة السابقة ، وإن كان قد جعله هناك سيف خليفتين ، ولعله رأى فى تخصيص اللقب هنا دقة أكثر ، وربطا أشد بالأحداث التى هو بصدد الحديث عنها ، فيتخذ منها سببا قويا لتسميته به ، وهو أنه بهمته العالية وعزيمته الجبارة تمكن من القضاء على أهل الكفر ، وتخرم جموعهم مبيدا مهلكا ، فما أجدره بهذا اللقب الذى سمته به همته ، وما أحقه بأن يقود جيش الدولة باسم الخليفة ، لينزل أقسى العقاب بهؤلاء الخرمية الجائرين المفسدين ، وليكون خليفة الموت فيهم ورسوله إليهم ، فبقهره إياهم قرت عين الدين فى « قران » ، وانشترت عيون الشرك فى « الأشترين » ، وعلت راية الإسلام مرفرفة بالنصر فى يوم « خيزج » الذى طيرت أهواله الألباب . ولولا جهاده العظيم من أجل نصرته للإسلام من كيد أعدائه ، ولأصابه ضرر بالغ ، ولتراجعت دعوته منكمشة بعد امتداد ولازداد نفوذ بابك وانتشرت دعوة الخرمية مهددة عقيدته ومن اعتنقوها وآمنوا بها كما أثبتت ذلك أحداث الفساد والتخريب التى قام بها البابكيون قبل إيقاع إسحاق بهم :

سيفُ الإمامِ الذى سَمَّتْهُ هِمَّتُهُ لما تخرَّمَ أهلَ الكفرِ مُخترِما(١)

---

(١) تخرم : استأصل واقتطع و« مخترم » اسم فاعل منها . ويلاحظ تعمد أبى تمام اشتقاق هذين اللفظين من اسم « الخرمية » أتباع بابك .

إن الخليفةَ لما صالَ كنتَ لهُ خليفةَ الموتِ فيمن جارَ أو ظلما
قَرَّتْ بقُرانَ عينُ الدين وانشَتَرَتْ بالأشتَرينِ عيونُ الشركِ فاصطُلما[1]
ويوم خيزَجَ والألبابُ طائرةٌ لولم تكن ناصرَ الإسلام ماسَلِما

ويلاحظ أن أبا تمام فى هذه الأبيات قد وضع الخطوط الرئيسية لموضوعه الحماسى وسجل وقائع إسحاق التى انتصر فيها كأنها عنوان له ، وحتى لا يكون حديثه تقريريا كأحاديث المؤرخين ، نجده يستخدم معرفته اللغويـــة ومهارته الفنية لتوليد المعانى الجديدة من الاشتقاقات اللغوية للألفاظ على طريقته المعروفة فى مذهبه الذنى .

ويمضى أبو تمام بعد ذلك مفصلا القول فى وصف الأحداث وتصويرها ، وفى رسم الصورة المثالية للبطل الإسلامى فى ميدان الحرب . وبطله هنا هو إسحاق بطبيعة الحال ، ولكنه لايفرده وحده بالبطولة ، إذ يشرك معه فيها أهله وعشيرته من آل مصعب ، فيكون بذلك قد جمع له مجد الحسب ومجد النصر . وهذا مانراه حين يذكر مافعله إسحاق بالأعداء ، فقد أضحك منهم ضباع القاع بماخلفته معاركه من جثث قتلاهم وجيفهم التى غطت وجه الأرض ، فأكلت منها وشبعت بعد جوع وعبوس . بينما أبكى عيون من أفلتهم الموت منهم دماء ، لشدة حزنهم على قتلاهم ، ولم يتحقق له ذلك بيده وحده ، بل كان لكل بطل من آل مصعب يد فيه . ويصف أبو تمام هذا البطل المصعبى بأنه قوى كالحصن المنيع يصعب على عدوه أن ينال منه ، أويطاوله سموا وعلو ، وأنه متيقظ دائما لاتغفل عينه عن عدوه سواء كان مقيما أو مرتحلا . وهو فى شجاعته جسور مقدام ، يواجه

(١) قران قصبة البذين بآذربيجان حيث استوطن بابك الخرمى . والأشترين : مثنى « أشتر » : ناحية من نهاوند وهمذان (انظر معجم البلدان لياقوت) وقد ثناها أبو تمام على قياس تثنيتهم « البذ » ، وانشترت من الشتر وهو انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

أطراف الأسنة لايخشى طعانها ، ويقتحم الصفوف فاتكا بأعدائه مسيلا دماءهم حتى تسربله وتغطى وجهه ، فيبدو وكأنه اتخذ منها لثاما . وتراه فى شدة غضبه مكشرا قد قلصت شفتاه عن أسنانه ، فتخاله مبتسما لاعابسا . إنه بهذه السمات وتلك الفعال مأمون على المجد حريص على رفع لوائه ، والحفاظ على قيمه ومثله ، إذا ما احتدمت المعارك واشتجرت الرماح ، بينما تجده من ناحية أخرى غير مأمون على أرواح الأعداء بل متهما بسلبها واغتصابها . ومع أن هاتين الصفتين / تبدوان متناقضتين لغة ، فإنهما متفقتان فى تكوين شخصية بطله واجتماعهما فيه أمر طبيعى يتفق مع شخصيته وفروسيته . وتكتمل له الصورة المثالية بعناصرته للحق وذوده عن حماه ، ووقوفه ضد كل من يطغى او يجور ، وإن كانت تربطه به صلة من قرابة أو رحم فلا يتردد فى ضربه بسيفه الذى يراه حينئذ أقرب رحما إليه من ذلك الطاغية الجائر :

أضحكتَ منهم ضباعَ القاعِ ضاحيةً	بعد العُبوسِ وأبكيتَ العيونَ دَمَا
بكل صعبِ الذُّرا من مُصعبٍ يقظٍ	إن حلَّ متّئداً أو سار مُعتزما
بادى المحيَّا لأطرافِ الرماحِ فما	يُرى بغيرِ الدَّمِ المعبوطِ ملتثما
يُضحى على المجد مأموناً إذا اشتجرتْ	سمرُ القنا وعلى الأرواح مُتَّهما
قد قَلَّصتْ شفتاهُ من حفيظته	فخيلَ من شدَّةِ التَّعبيس مُبتسما
لم يطغَ قومٌ وإن كانوا ذوى رَحِمٍ	إلاَّ رأى السيف أدنى منهمُ رَحِما

ولايفوتنا أن نستجلى ماوراء هذا البيت الأخير من معنى بعيد ، ولكن أبا تمام قصده قصدا ذلك أن إسحاق من أصل فارسى ، إذ كان جده مصعب مولى لخزاعة . وقد تولى قيادة جيش الدولة لمحاربة بابك وأتباعه من الخرمية والمحمرة وهم فارسيون مثله ، تجمعهم وإياه رابطة القومية الفارسية ، إلا أن العقيدة قد فرقت بينهم ، فهو مسلم وهم خرمية مزدكيون ، وقد ساقه قدره ليتحمل مسئولية هذا الأمر ذوداعن عقيدته الإسلامية ، وحربا على أبناء عمومته ، الذين لم تشفع لهم قرابتهم أو فارسيتهم

عنده ، فكان تنكيله بهم شاهدا قويا على انتصار العقيدة الإسلامية فى نفسه وفى نفس كل مصعبى من أهله ، بل فى نفس كل فارسى آمن بها واعتنق مبادئها السامية التى تصغر أمامها علاقات القرابة والقومية .

ويواصل أبو تمام حديثه الحماسى الملتهب مصورا ضروب التنكيل التى أنزلها إسحاق بهم ، وما انتابهم من الرعب والفزع منذ علموا بقدومه إليهم فمشت قلوبهم فى صدورهم ، وإن عزماته الجبارة التى صبها عليهم صبا لو رمى بها ركن الدهر لانهدم تحت وطأتها ، ومالهم من سبيل إلى النجاة منها وقد أحاطت بهم من كل جانب ، فعقلت كل ناكص ، وألجمت كل جامح ، ثم كان لحد السيف حكمه القاطع فانتهك به أنفسهم ، جزاء وفاقا على مااقترفوا من آثام ، وماانتهكوا من حرمات قبل أن يأتيهم . فقد عاثت كتائبهم فى الأرض فسادا ، وبثت الخوف والفزع فى كل مكان ، وقذفت فى القلوب رعبا تزول له الجبال ، ولكنه كان أشد من هذه الجبال ثباتا فى لقائهم حتى قضى عليهم . وفى ذلك إشارة للأحداث التى ذكرها المؤرخون كما سبق أن عرفنا :

مشَتْ قلوبُ أناسٍ فى صدورهِمُ ... لما تراءَوْكَ تمشى نحوهم قُدُما

أمطرتهمْ عَزَماتٍ لو رميتَ بها ... يومَ الكريهةِ ركنَ الدهرِ لانهدما

إذا همُ نكصوا كانت لهم عُقُلا ... وإن همُ جمحوا كانت لهم لُجُما

حتى انتهكتَ بحدِّ السيفِ أنفسهم ... جزاءَ ماانتهكوا من قبلكَ الحُرَما

زالتْ جبالُ شَرَوْرَى من كتائبهم ... خوفًا وما زُلْتَ إقداماً ولا قَدَما

ويتفنن أبو تمام فى رسم صور هزيمتهم وتقتيلهم ، فهم قد احتلبوا الأمانى الكبار مؤملين تحقيقها باذلين أقصى الجهود والهمم لمخضها وأخذ زبدتها ، ولكن

إسحاق حرمهم من الوصول إلى غايتهم ومحض أمانيهم قبل أن يمخضوها ، وجنى تتاجها قبل أن ينعموا به ، وأعادها عليهم هموما بعد أن كانت هِمما . ورءوسهم التى فصلتها سيوفه عن أبدانهم قد حملت على أسنة الرماح ، فبدلت من ظهورهم قنا الرماح مدعما لها ترفع عليه . وانسدلت ضفائر الشعور من كل لمة على صدر القناة التى نصبت عليها رأسها ، فبدت فى منظرها وكأنها علم مرفوع ، وهو علم يرمز إلى النصر العباسى بطبيعة الحال ، خاصة إذا عرفنا أن أعلام العباسيين كانت سوداء كشعر رءوس القتلى . وماأشد الرعب الذى ملأ قلوبهم حين حكم السيف فى رقابهم ، ورأوا أنه لامنجاة لهم من الموت الماثل أمامهم ، فراحوا يتنصلون من كل الجرائم التى ارتكبوها ، ومن دعاوى الكفر والشر التى نادوا بها وحاربوا من أجلها، وماتنصلهم هذا إلا دليل قاطع على ضعف عقيدتهم وضعف إيمانهم بها ، وعدم استعدادهم للتضحية بالحياة فى سبيلها .

لما مَخَضْتَ الأمانىَّ التى احتلبوا ... عادت هموماً وكانت قبله هِمَما
بدَّلْتَ أرؤسَهم يومَ الكريهة من ... قَنا الظهورِ قنا الخَطِّىِّ مُدَّعَما
من كل ذى لِمَّةٍ غطَّتْ ضفائرُها ... صدرَ القناة فقد كادت تُرى عَلَما
راح التنصُّلُ معقوداً بألسنهم ... لما غدا السيفُ فى أعناقهم حكَما

وتاريخ هؤلاء الخرمية عنصر هام من عناصر الموضوع ، أشار إليه أبو تمام فى القصيدة السابقة ، ويعيد الإشارة إليه فى هذه القصيدة ، مؤكدا بذلك أنهم إمتداد للمزدكية الذين ظهروا فى أيام قباذ ، وأشاعوا الفوضى والفساد والانحلال فى أرجاء البلاد حتى قضى عليهم ابنه أنو شروان قضاء مبرما ، ولعل أباتمام يقصد بفضح تاريخهم أنهم لايمثلون القومية الفارسية فى شىء ، وإنما يمثلون عقيدة شيوعية هدامة حاربها الأكاسرة أنفسهم ، ورفضها المجتمع الفارسى رفضا قاطعا . ومع ذلك فقد بقيت جذور فتنتهم كامنة زمنا لتنبت فروعها وتمتد كلما تهيأ لها

المناخ المناسب ، ولتعيد الفتنة من جديد مابين حقبة وأخرى ، ولتصطلى بنارها الأمم والشعوب ، وتذوق ويلات الدمار من جرائها ، حتى استشرى خطبهم فى هذه المرة ، وأينعت ثمار مدتهم التى طال زمنها ، وأنضجت فتنتها ، فأرسل الله إسحاق ليصطرم عمرها ويقطع دابرها ، ويخلص الناس من شرها الفظيع ، وهو بذلك قد أدى عملا جليلا فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، وطاعة لأمره بحرب الكافرين الباغين ، كما أرضى بعمله هذا خليفة الإسلام ، وشفى نفوس المسلمين من العرب والعجم ، الذين أصابهم من تلك الفتنة ضر شديد ، وجعل من هؤلاء الأعداء لله ولدينه عبرة ، وتركهم سيرا يتحدث بها الناس فى كل مجتمع ، ويستخلصون منها المواعظ والآيات ، ولو أنها كتبت بتفاصيلها لملأت صحف الأرض ، وليت التاريخ حقق أمنية أبى تمام فسجلها كاملة لا مبتسرة موجزة على النحو الذى رأيناه :

كانوا على عهدِ كسرى فى الزمان وإنْ — يستشْرِ الخطبُ إلا كلّما قُدما
فى كل جوشنِ دهرٍ منهمُ فئةٌ — تُرْحى رحَى فتنة قد أشجعَتْ الأمما[1]
حتى إذا أينعت أثمارُ مدَّتهمْ — أرسلكَ اللهُ للأثمار مُصْطَرِما[2]
أطعت ربَّكَ فيهم والخليفةَ قد — أرضيتَه وشفيتَ العُرْبَ والعجما
تركتَهُمْ سِيَراً لو أنها كُتِبتْ — لم تُبقِ فى الأرض قِرْطاساً ولا قلما

وانجلت المعارك عن هذا النصر الحاسم الذى أحرزه إسحاق ، فلم يلبث أن انصرف بجيشه عائدا إلى بغداد ، كما تذكر كتب التاريخ ، ولم تستغرق حملته تلك أكثر من ستة شهور[3] ، ولا يفوت أبا تمام أن يستخلص من عودته السريعة هذه معانى حماسية رائعة ، فهو إذا كان قدا تصرف ولم يمكث ، فانه ترك آثار

---

(١) جوشن : صدر .

(٢) يصطرم : يقطع . من الصرم وهو القطع .

(٣) شخص إليهم إسحاق فى شهر ذى القعدة من سنة ٢١٨ هـ وقدم بغداد يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ٢١٩ هـ .

حربه قائمة بينهم ، وخلف نتائج عقابه الصارم العادل أمنا وسلاما ينعم الناس فى ظلاله . وهو واثق من قدرة جيشه على الحركة السريعة النشطة وأنه بإمكانه أن يعود إليهم فى أسرع وقت ممكن إذا ماأثاروا الفتنة مرة أخرى ، بل إذا بعثوا إلى الحياة من جديد ، فإن جيشه سيكون رصداً لهم يفاجأون به قد آب أسرع من البرق قبل مبعثهم كأنما أعلم بأمرهم وكشف له سرهم :

ثم انصرفتَ ولم تلبثْ وقد لَبِثَتْ سماءُ عدلِكَ فيهم تُمطِر النِّعما
لو كان يَقْدَمُ جيشٌ قبل مبعثهمْ لكان جيشُكَ قبل البعث قد قَدِما

ولا تقف انفعالات الحماسة بأبى تمام عند هذا الحد ، وبعد أن سجل عودة إسحاق بجيشه . بل نراها تنفجر من جديد كأنها بركان لا يلبث أن يهـدأ حتى يعاود ثورته قاذفا بالحمم ، فاذا به يستأنف حديث الحرب والمعارك ، ويرسم صورا جديدة لهزيمة الخرمية وسحقهم ، كأنما يطفىء بها أتون حقد ملتهب فى قلبه لما ارتكبوه من الجرائم البشعة ، التى بلغت ذروتها بمقتل محمد بن حميد والتى لقى الناس فيها أشد البلاء ، وإذا كان هذا الطغيان الجائر ، والبطر الظالم قد سماهم الأسد الغضاب ، فان سيوف إسحاق لم تهجع فى أغمادها حتى صيرتهم نعما ضعيفة مسخرة . وإن شياطينهم التى باتت تنفث الشر فى كل مكان ، قد ولت محترقة بسعير المعركة ، كأنما رجموا بشهب من رماح جنود الاسلام . وقد تركهم إسحاق كالجزر المذبوحة فى ذلك اليوم الذى لفتهم ظلماته ، وحاقت بهم كوارثه ، بينما أضاء وجه إسحاق بالنصر المبين كالقمر فى الليلة الظلماء ، وترقبت طيور الرخم ماخلفته المعركة من رءوسهم فتعرقتها وعرتها من اللحم ، حتى أظهرت بياض عظامها ، وتركتها تشبه الرخم فى بياضها :

سمَّاهمُ البطرُ الأسْدَ الغضابَ فلم تهجعْ سيوفُكَ حتى صُيِّروا نَعَما
ولَّت شياطينُهم عن حدِّ ملحمةٍ كانت نجومُ القنا فيها لهم رُجُما

تركتهم جَزَراً فى يوم معركة ... أقمرتَ فيها وكانت فيهم ظُلَما
قد بَيَّضَتْ رَخَمُ الهيجا جماجِمَهُمْ ... حتى لقد تركتْها تشبه الرَّخَما

وغادر إسحاق تلك المنطقة الجبلية التى كانت مرتعا لاضطراباتهم المخربة ، بعد أن كفى المسلمين عاديتهم ، وخلصهم من شرور بغيهم ، وصارت الأهواء كلها موحدة على دين الاسلام ، واجتمع شمل القوم بعد الفرقة والتمزق. وتجددت الأمانى فى حياة آمنة مطمئنة ، عامرة بالإيمان والهدى بفضل الجهاد الصادق لجيش الاسلام وقائده الذى جعل من هذا الجبل ركنا مقدسا لايعبد فيه غير الله ، ويكاد يبلغ فى حرمته حرم مكة الشريف :

غادرت بالجبل الأهواءَ واحدةً ... والشملَ مجتمعاً والشَّعبَ مُلتئما
جدَّدتَ غَرسَ المُنَى منهم بذى لَجَبٍ ... أبقى بهم من أنابيت القنا أجَما
لو كان فى ساحة الإسلام من حَرَمٍ ... ثانٍ إذاً كنت قد صيرتَه حَرَما

وينتقل أبو تمام من حديث الحرب والبطولة إلى مدح صاحبه بالجود والكرم ، فيمزج بين اللونين مزجا طريفا مظهراً براعته الفنية ، ومهارته فى استخدام نوافر الأضداد . ليقول إن إسحاق يغدو إلى الحرب مغتنما أرواح الأعداء ، يسلبهم إياها سلبا ، ولكنه إذا سئل نوالا أو طلب منه عطاء ، أجاب وأعطى بسخاء فيكون بذلك هو المغتنم المسلوب بعد أن كان فى الحرب المغتنم السالب ، وهو فى كلتا الحالتين يعمل عملا مجيدا يصدر فيه عن همة طبعت بها شخصيته وصيرت المجد طوع يديه :

تغدو مع الحرب للأرواحِ مُغتنِما ... فإذا سئلتَ نوالاً رحتَ مُغتَنَما
فالمجدُ طوعك ماتعدوك همَّتُه ... أكنتَ مهتضِماً أو كنت مهتضَماً

ويستطرد بعد ذلك فى مديحه بالجود والكرم كما هى التقاليد المتبعـــة فى

قصائد المديح ، إلا أنه يشرك معه آله من بنى مصعب كما أشركهم معه فى صفات البطولة ، وليجمع لهم بذلك كل المكرمات التى تصنع لهم فخرا وتبنى لهم مجدا وترفعهم إلى مراتب علية القوم :

فخراً بنى مصعبٍ فالمكرُمات بكم عادت رِمَـاماً وكانت قبلكم أكَما
نقولُ إن قلتمُ لا لا مُسَلِّمةً لأمركم ونعم إن قلتم نعما
مامنكم أحدٌ إلا وقد فَطِمتَ عنه الأعادى بسيما المجد مُذ فُطِما

وإسحاق بأعماله الجليلة وعلى رأسها ذلك النصر العظيم الذى حققه للإسلام على أعدائه الكفرة ، إنما هو مشعل نور وهدى ، وإذا حل فى بلد أقام فيها الأمن وأزال الخوف من نفوس الناس ، بما عرف عنه من الشجاعة والحزم، وجنب الناس محن الفقر والفاقة ، بما جبل عليه من السماحة والكرم ، فهو مثل طيب لعشيرته الأكرمين ، الذين أخلصوا العمل فى خدمة الدولة وصيانة مجدها ، وحراسة نعمها وخيراتها :

أبو الحسين ضياءٌ لامعٌ وهدىً ماخامَ فى مشهدٍ يوماً ولاسئما
إذا أتى بلداً أجلَت خلائقُه عن أهله الأنكدَين الخوفَ والعَدما
من يسألِ اللهَ أن يُبقِى سراتكمُ فإنما سالة أن يبقىَ الكرما
قد قلتُ للناس إذ قاموا بشكركمُ الآن أحسنتمُ أن تحرسوا النِّعما

ويجمل القول فى هذه القصائد الثلاث التى مدح بها أبو تمام إسحاق أنها سجلت لهذا البطل صفحات خالدة فى سجل البطولة الإسلامية ، وعوضته الكثير عن إهمال التاريخ لذكر وقائعه وانتصاراته ، إذ لم يعرها المؤرخون اهتماما يليق بها ، ولم يكتبوا عنها إلا سطورا قليلة تكاد تواريها فى زوايا النسيان ، ولكن

أبا تمام أبرزها الى مكان الصدارة ، وأحاطها بهالة نورانية من الجلال والقدسية ، ولعل هذا ماجعل اسحاق يقدره حق قدره ، يدل على ذلك مايذكره الصولى فى أخباره فيقول « ما كان أحد أشغف بشعر أبى تمام من اسحاق بن ابراهيم المصعبى وكان يعطيه عطاء كثيراً[1] » .

---

(١) أخبار أبى تمام ص ٢٢١ .

الفصل الرابع

المعارك الأخيرة والقضاء على البابكية

كانت بشائر النصر التى رفرفت أعلامها على جيش إسحاق المصعبي ، وعودته مظفرا إلى بغداد ، من أهم العوامل التى شجعت الخليفة المعتصم على مواصلة الجهود لاستئصال شأفة بابك والخرمية ، والقضاء عليهم قضاء نهائيا .

وبادر المعتصم بالاعداد لهذا الأمر « فوجه أبا سعيد محمد بن يوسف إلى أردبيل ، وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل، ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ، فتوجه أبو سعيد لذلك وبنى الحصون التى خربها بابك[1] » .

وقد مر بنا أن محمد بن يوسف كان من القواد الذين رافقوا محمد بن حميد فى حملته التى انتهت بمقتله ، وأنه وقف بجانبه مدافعا مستبسلا حتى اللحظة الأخيرة ، فله من الخبرة بالحرب وشجاعة القلب مايؤهله لتولى تلك المهمة الخطيرة ، كما أنه اكتسب معرفة بأساليب الخرمية فى الحرب ومسالك المنطقة التى يتحركون فيها . مما يجعله كفئاً لمجابهتهم والتصدى لهم حتى يتم الاستعداد لضربهم الضربة القاضية .

وأردبيل هى عاصمة إقليم آذربيجان فى ذلك الحين . وكانت قريبة من « البذ » معقل بابك ، الذى استشعر بالخطر حين رأى أبا سعيد يقيم تلك

---

(١) الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٠ .

التجهيزات العسكرية ، ويعمل على تأمين الطريق إلى أردبيل ، فلم يكن بابك ليسكت على ذلك ، أو ليغفل عن تلك الأخطار المحدقة به . وأخذ يشن غاراته على حصون أبي سعيد ، الى أن كانت احدى سراياه — التي يقودها رجل من قواده اسمه معاوية — منصرفة راجعة بعد أن أغار بها على بعض النواحي ، فبلغ أمرها أباسعيد ، ، الذي وجد الفرصة سانحة للفتك بها ، فجمع رجاله وخرج معترضا طريقها ، وأوقع بها هزيمة ساحقة ، فقتل منهم جماعة وأسر منهم جماعة وغنم ما كان لديهم من أسلاب ، ووجه الرءوس والأسرى إلى المعتصم ، فكانت هذه أول هزيمة يوقعها أبو سعيد بأصحاب بابك[1] بعد هزيمتهم السابقة على يـــد إسحاق المصعبي .

* * *

وتلت هزيمة أصحاب بابك على يد أبي سعيد هزيمة أخرى ، أو خديعة دبرها لهم محمد بن البعيث[2] الذي كان في قلعة حصينـــــة من كورة آذربيجان تسمى « شاهي » كما كان له حصن آخر يسمى « تبريز » وكان ابن البعيث هذا مصالحا لبابك ، إذا توجهت سراياه نزلت به، فأضافهم وأحسن إليهم ، حتى أنسوا به وصارت لهم عادة. وظل الأمان متبادلا بين الطرفين طيلة الفترة التي كان فيها بابك صاحب النفوذ والسيطرة في تلك المنطقة . ولعل ابن البعيث عرف بما يعد لبابك ، ورأى بوادر نهايته تلوح في الأفق . فقرر العدول عن موقفه المصالح له ، وإظهار تأييده للدولة بعمل جرىء يثبت به حسن نواياه ، وإخلاصه في الولاء للخلافة .

---

(١) الطبري وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٠ .

(٢) كان البعيث أبو محمد صعلوكا من صعاليك الوجناء بن الرواد صاحب قلعة شاهي ، وقد أخذ محمد هذه القلعة من ابن الرواد .

ولاحت له الفرصة حين وجه بابك رجلا من أصحابه يقال له « عصمة » فى سرية ، فنزل بابن البعيث فى قلعته ، فقدم له ولرجاله واجبات الضيافة ، ودعاه أن يصعد إليه فى وجوه أصحابه ، فصعد فغداهم وسقاهم حتى أسكرهم ، ثم وثب على عصمة فاستوثق منه ،وقتل من كان معه من أصحابه ، وأمره أن يدعو الآخرين رجلا رجلا ليصعد إليه ،فكلما صعد رجل أمر بضرب عنقه ، حتى علم من تبقى منهم بالمؤامرة فهربوا ، ووجه ابن البعيث بعصمة إلى المعتصم ، فاستخلص ما لديه من معلومات عن بلاد بابك ومسالكها ووجوه القتال فيها[1] ، ولاريب أن هذه المعلومات كانت لها فائدتها الكبيرة فى تدبير الأمور والخطط الحربية ، وتجنب الكثير من المخاطر التى تعرضت لها جيوش الدولة من قبل .

* * *

عقد المعتصم العزم على إنفاذ أمره بالحرب ، فاختار لها قائدا عظيما من قواده الذين حنكتهم تجاربها ، وهو حيدر بن كاوس الملقب بالأفشين ، وولاه قيادة الجيوش فى الثانى من جمادى الآخرة لسنة عشرين ومائتين[2] ، فتوجه بعسكره حتى وصل إلى « برزند » فعسكر بها ، ورم الحصون وضبط الطرق فيما بينها وبين « أردبيل » ووزع قواته على المواقع التى تخيرها ليحكم السيطرة ويأمن المباغتة ، فأنزل محمد بن يوسف بموضع يقال له « خش » فاحتفر فيه خندقا ، وأنزل الهيثم الغنوى فى رستاق يقال له « أرشق »فرم حصنه وحفر حوله خندقا ، وأنزل علويه الأعور وهو من قواد الأبناء فى حصن مما يلى أردبيل يسمى حصن النهر[3] .

---

(١) انظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٠هـ .

(٢) أنظر الطبرى حوادث سنة ٢٢٠هـ . وأورد ابن الأثير الخبر دون ذكر لتاريخه .

(٣) أنظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٠ هـ .

وكان الأفشين يقصد بهذا التوزيع تأمين القوافل والسابلة فى مسيرتها بين هذه المواضع . إذ يكلف قائد كل حصن بحمايتها وتوصيلها إلى قائد الحصن الذى يليه ، ويسلمها له فى موضع متفق عليه بمنتصف الطريق ، ويتم تبادل القوافل بين كل قائدين حسب نظام دقيق حتى يأمنوا شر الغارات التى تشنها عصابات بابك ، وظل الأمر جاريا على هذه الخطة(١) .

واهتم الأفشين كذلك بأمر الجواسيس ، فإذا ظفر أحد من قواد المسالح بجاسوس لبابك ، وجه به إليه ، فكان لا يقتلهم ولا يضربهم ، وإنما يحاول استمالتهم إلى جانبه بشتى الوسائل ، ويعطيهم من الهبات ضعف ما كان بابك يعطيهم ، فى مقابل أن يقوموا بالتجسس لصالحه ، ويموهوا على بابك قدر الاستطاعة .

* * *

سارت الأمور على هذا المنوال من التربص والحذر أمدا ، حتى تحين الفرصة المناسبة للانقضاض ، ثم كان أن وجه المعتصم قائده التركى «بغا الكبير» بمال إلى الأفشين عطاء لجنده وللنفقات ، فقدم به بغا إلى « أردبيل » ونزل بها . وعلم بابك بخبره ، فأعد العدة لقطع الطريق عليه قبل وصوله إلى الأفشين . وأخبر أحد الجواسيس أبا سعيد بما يدبره « بابك » ، فأسرع بإبلاغ الأفشين . الذى دبر خطة مضادة لإنقاذ قافلة المال والإيقاع ببابك وأصحابه . وكتب إلى أبى سعيد بأن يحتال للتحقق من صحة هذا الخبر فمضى متنكرا هو وجماعة من أصحابه حتى رأوا نيران بابك فى المواضع التى وصفها لهم الجاسوس ، وتيقن من صحة الخبر . وكتب الأفشين إلى بغا أن يظهر أنه يريد الرحيل ويسير بالقافلة كأنه يريد برزند ، حتى إذا وصل الى مسلحة النهر أو قريبا منها ، ترك القافلة والرجال متجهين الى حصن النهر ، وليعود هو بالمال الى أردبيل .

ونفذ بغا خطة الأفشين ، وتم وصول القافلة إلى حصن النهر ، بينما عاد هو بالمال ، وعلم بابك بخبر وصول القافلة ، ولكنه لم يعلم شيئا عن تدبير الأفشين وإرجاع المال ، فتعبأ فى خيله ورجاله وتربص بالقافلة على طريق النهر . وكان الأفشين قد ركب من برزند فى اليوم الذى وعد فيه بغا عند العصر ، فوافى «خشن» مع غروب الشمس ، فنزل معسكرا خارج خندق أبى سعيد ، فلما أصبح ركب فى سر وصمت ، دون ضرب طبول أو نشر أعلام . وجد فى السير متجها إلى أرشق ليلتقى بالهيثم فى الطريق .

وكانت القافلة قد خرجت فى ذلك اليوم من حصن النهر إلى أرشق، فانقضت خيل بابك عليها ، وهم لايشكون أن المال بها ، فقاتلهم علويه صاحب حصن النهر فقتلوه وقتلوا من كان معه . وغنموا كل ما كان معهم ، ولكنهم اكتشفوا أن المال قد فاتهم ، فأخذوا ملابس القتلى ودراريعهم ولبسوها متنكرين بها ، واتجهوا للقاء الهيثم الغنوى على أنهم أصحاب النهر ، ليخدعوه ويتمكنوا من الفتك به وبرجاله . ولكنهم وقفوا فى غير الموضع المتفق عليه لتبادل القوافل . وجاء الهيثم فوقف فى موقفه المحدد ، ورآهم فى موضع غير المتفق عليه ، فشك فى الأمر ، وأرسل بعض رجاله للتحقق منهم . فتبين لهم أنهم الخرمية وليسوا أصحاب حصن النهر . ورجعوا إلى الهيثم ركضا ليبلغوه بالخديعة ، وبما حدث لرفاقهم ، فرجع الهيثم منصرفا إلى حصنه قبل أن يتمكنوا منه ، وحمى القافلة التى كانت معه ، والتى كان سيسلمها إلى علويه . واستطاع أن ينجو برجاله وقافلته ، ويدخل حصنه «أرشق» محتميا به .

وبادر الهيثم بإرسال فارسين من رجاله لاخبار الأفشين وأبى سعيد بما حدث . بينما حاصر بابك الحصن ، وأنذر الهيثم أن يخليه وينصرف ، ولكنه رفض ،

فحاربه بابك الذى وضع له كرسى وجلس عليه يشرب الخمر والحرب مشتبكة كعادتـــه .

ولقى الفارسان الأفشين على أقل من فرسخ من « أرشق » وما أن رآهما يركضان من بعيد حتى أمر بدق الطبول ونشر الأعلام والإسراع ركضا بالخيل نحوهما ،فلم يزل الناس فى طلق واحد متوا كضين حتى داهموا بابك وهو جالس، إلا أنه تمكن من الفرار فى نفر قليل ولقى بقية رجاله مصرعهم جميعا ، فقتل منهم أكثر من ألف رجل .

ودخل بابك موقان مجللا بخزى الهزيمة بعد أن نجا من الهلاك المحقق ، فأقام بها إلى ان جاءه مدد من عسكره ، فرحل بهم إلى البذ . أما الأفشين فقد بات ليلته بأرشق ثم رجع إلى معسكره ببرزند ، وقد كادت خطته أن تنجح نجاحا كاملا ، لولا مشيئة القدر التى قيضت لبابك النجاة ، ليمتد الصراع والجلاد زمنا يقرب من عامين آخرين ، ولتشتد الحرب بينهما ضراوة وفتكا .

وأياما كانت نتيجة معركة أرشق هذه فانها بلاشك قد رفعت من الروح المعنوية لجند المسلمين ، وثبتت أقدامهم على أرض النضال ، ودفعتهم إلى مواصلة الجهاد حتى النصر النهائى الحاسم ، الذى بدت لهم علاماته من خلال هذا النصر المظفر فى تلك الوقعة . كما أن جدار الرهبة والخوف الذى كان قائما فى نفوس الكثيرين ، تأثرا بما عرفوه عن حدوث بابك وطغيانه قد تهدم وانمحت آثاره ، ليقوم مكانه صرح الإيمان والثقة بالنصر .

* * *

بقى الأفشين معسكرا ببرزند ، إلى أن تحين فرصة أخرى للايقاع ببابك ، وبقى قواده فى مسالحهم حسب النظام الذى وضعه من قبل ، وعاد الخرمية لمهاجمة

القوافل المتنقلة بين هذه المسالح . ونجحوا فى الاستيلاء على قافلتين ، إحداهما كانت متجهة من « خشن » إلى « برزند » فهاجمها أحد قواد بابك وقتل رجالها واستولى على كل ما كانت تحمله من المؤن والميرة ، مما عرض عسكر الأفشين للقحط وقلة الزاد. وبادر الأفشين بالكتابة إلى صاحب المراغة يأمره بحمل الميرة والتعجيل بها إليه ، لإنقاذ عسكره من القحط والجوع ، ووجه إليه صاحب المراغة بقافلة ضخمة فيها مايقرب من ألف ثور سوى الحمر والدواب وغير ذلك لحمل الميرة ، وعزز القافلة بعدد من الجند لحمايتها ، ولكن حظهـــا كان عاثرا كسابقتها ، إذ هاجمها الخرمية فاستباحوها عن آخرها ووقع رجالها فى أيديهم بين قتيل وأسير .

وأدى ذلك إلى اشتداد الضائقة بالأفشين وجنده ، وتعرضوا للهلاك جوعا ، ولكن الأزمة مالبثت أن انفرجت ، إذ كتب الأفشين إلى صاحب السيروان لإغاثتهم من المجاعة فحمل إليهم كميات كبيرة من الأطعمة والمؤن ، . وأمكن إيصالها إليهم دون أن تقع فى أيدى الخرمية ، وتبع ذلك قدوم « بغا الكبير »على الأفشين بما كان يحمله من مال لنفقات الجيش وبمن كان معه من رجال لتعزيز قوته .

• • •

تجهز الأفشين بعد انفراج تلك الأزمة ، ووصول إمدادات من الجند والمطوعة ، فوجه بغا الكبير فى جمـــع من المعسكر ليدور حول « هشتا دسر » وينزل فى خندق محمد بن حميد فيحفره ويحكمه ، بينما رحل هو وأبو سعيد من معسكريهما ، ونزلا بموضع على بعد ستة أميال من البذ يسمى « درود » فاحتفر الأفشين به خندقا وبنى حوله سورا ، وتحصن بهذا الموقع استعدادا لتوجيه ضربته فى الوقت المناسب .

ولم يلبث بغا أن تحرك من معسكره دون علم الأفشين أو أمره ، فدار حول

« هشتادسر » حتى دخل قرية « البذ »[١] ، وأقام بها يوما ، ولكن الخرمية داهموا فرقة من جيشه فقتلوا منها عددا وأسروا عددا آخر . وأحس بغا بخطورة موقفه فانسحب بعسكره إلى خندقه شبيها بالمنهزم . وأرسل بابك أسيرين منهم إلى الأفشين ليوقع الرعب فى نفسه . كما كتب بغا إليه يعلمه بما حدث ، ويطلب مددا يعزز به جنده المفلول . فأرسل إليه بعض رجاله المبرزين ، منهم أخوه الفضل بن كاوس وأحمد بن الخليل ليشدوا أزره ويرفعوا الروح المعنوية لعسكره. وكتب إليه يعلمه باليوم الذى حدده لغزو بابك ، ويامره أن يخرج إليه فى اليوم نفسه ، كى يطبقا عليه من جهتين .

وخرج الأفشين من دروذ فى اليوم المحدد للهجوم . وكذلك خرج بغا من خندقه فصعد هشتادسر ، وعسكر بها ، إلا أن سوء الأحوال الجوية بهبوب رياح باردة وهطول مطر غزير ، عرضه لخطر شديد ، واضطره إلى العودة لخندقه . بينما واقع الأفشين بابك من الغد فهزمه ، واحتل موقعه وأخذ خيمته وامرأة كانت معه . وارتد بابك بعد الهزيمة إلى البذ ليحتمى بها[٢] .

وتجهز بغا من الغد ، وصعد هشتادسر ثم انحدر منها يريد البذ ، وعلم فى طريقه بهزيمة بابك فاطمأن . ولكنه لم يستطع أن يواصل مسيرته ، إذ تعب رجاله ، وكان قد أمسى عليه ، فرأى أن يتخير مكانا حصينا للمبيت به ، والتمس

---

(١) هذا ماأورده الطبرى وابن الأثير فى أحداث سنة ٢٢١ هـ ، وهو خبر يثير الشك والتساؤل فكيف نتصور أن بغا دخل البذ بهذه السهولة ودون مقاومة تذكر !؟ بينما لم تتمكن جيوش الأفشين من إقتحامها إلا بعد حصار طويل ، فشلت خلاله مرتين فى محاولة إقتحامها .

(٢) أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢١ هـ .

جبلا رأى من أعلاه معسكر الأفشين وأعلامه تلوح من بعيد ، فقرر أن يعسكر به ليلته إلى الغد ، ولكن الجو اكفهر ، وتكاثف الضباب والسحاب ، واشتد البرد ، وهطل مطر غزير ، ونزل ثلج كثير ، فحسبوا فى موضعهم ثلاثة أيام لايستطيعون حراكا ، وضجر الناس لماأصابهم من ضير ولفناء الزاد ، فطلبوا النزول من الجبل على أية حال ، إما راجعين وإما محاربين . فانحدر بغا بهم من الجبل متجها إلى البذ ، حيث وجدوا الجو صحوا والسماء صافية ، وتبين لهم سوء اختيار معسكرهم على قمة الجبل ، والبقاء به هذه الأيام الثلاثة التى أصابهم خلالها ضير شديد[1] .

وكان بغا يظن أن الأفشين مايزال مقيما بموقعه الذى عسكر فيه بعد هزيمته لبابك . ولم يدر أن بابك انتهز فرصة نزول الضباب والثلج فى تلك الأيام، فبيت الأفشين ونقض عسكره فى هجوم ليلى خاطف ، واضطره إلى الجلاء عن موقعه والانسحاب إلى معسكره فى « درون » .

واقترب بغا بمعسكره من البذ ، فلقيتهم طلائع بابك ، وعلم بعض رجاله منهم بخبر هزيمة الأفشين وانسحابه[2] ، وبأنهم أعدوا لهم جيشين ليسحقهم ، كى يبثوا فى قلوبهم الرعب ، وظن بغا وأصحابه أن فى الأمر خدعة ، ولم يتيقنوا من صحته إلا بعد أن صعدوا إلى رأس جبل ونظروا إلى الموضع الذى كان يعسكر فيه الأفشين ، فوجدوه خاليا ، فتملكهم الخوف ، ورأوا أن ينصرفوا راجعين قبل أن يجنهم الليل ، وجدوا فى السير وطلائع بابك تتابعهم ،وداخل الرجالة رعب

---

(١) أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢١ هـ .

(٢) أغفل الدكتور سلام فى كتابه عن الثورة البابكية (ص٧٧) خبر هزيمة الأفشين ، وصور وصول هذا الخبر من طلائع بابك إلى جيش بغا على أنه من قبيل الدس والخديعة (ص ٧٨) . وفى ذلك تحريف للحقائق التاريخية .

شديد فطرحوا أسلحتهم . واضطرب نظامهم . وتشاور بغا وأصحابه فى الأمر ، واستقر رأيهم على أن يعسكروا بأحد الجبال خشية أن يهاجمهم الخرمية فى الليل ويأخذوا عليهم المضيق . ونزلوا بجبل شديد الانحدار ، وباتوا على تعبية وتحارس من ناحية مصعده ، ولـكن الخرمية جاءوهم من الناحية الأخرى ، فتعلقوا بالجبل حتى صاروا إلى مضرب بغا ، فكبسوه ، وبيتوا العسكر فقتلوهم ، واستولوا على المال والسلاح ، وافتكوا أسيرا كان لديهم له مكانته وهو ابن زعيمهم السابق جاويدان . وتمكن بغا من النجاة والوصول إلى خندقه ، بينما قتل عدد من أصحابه ، ومر الناس منهزمين منقطعين حتى وافوه بالخندق ، فلم يتبعهم الخرمية الذين اكتفوا بالغنيمة والأسير[١] .

وأقام بغا بخندق محمد بن حميد خمسة عشر يوما ، حتى أتاه كتاب الأفشين يأمره بالرجوع إلى المراغة ، وأن يرد إليه المدد الذى أمده به . إذ وجده قائدا فاشلا لايعتمد عليه ولا يرجى على يديه نصر . بعد أن تبين له سوء تصرفه الذى كان سببا فى فشل خطته ، وضياع جهوده سدى ، بل كان سببا فى إيقاع بابك به بعد أن كان هو المنتصر .

وأقبل الشتاء ببرده القارس ففرق الأفشين الناس فى مشاتيهم إلى أن يحل الربيع فيمكنه استئناف عملياته الحربية . ولـكنه فى هذه الفترة من المهادنة الشتوية لم يغفل عن تقصى أخبار أعدائه ، فعلم أن قائدا لبابك اسمه طرخان ، له عنده منزلة عظيمة ، قد استأذنه فى أن يشتو بقرية له بناحية المراغة ، فكتب إلى ترك مولى إسحاق بن إبراهيم الذى كان يقيم بها ، وأمره أن يسرى إلى تلك القرية فيقتل طرخان أو يأتى به أسيرا ، وأنفذ ترك الأمر ، وتمكن من قتله ، وبعث

---

(١) أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢١هـ .

برأسه إلى الأفشين[1] . فكانت ضربة قاصمة لبابك أفقدته أعظم قواده .

* * *

كان المعتصم فى بغداد يتابع الأحداث التى تصل أخبارها إليه أولا بأول[2] ، فلم ترتح نفسه لتلك الهزائم التى لحقت بجيوشه ، وضاق ذرعا لطول المدة التى قضتها هناك دون أن تحقق هدفه المنشود وكانت السنة الثانية والعشرون بعد المائتين للهجرة قد دخلت ، فوجه إلى الأفشين مددا آخر من الجند بقيادة جعفر ابن دينار الخياط ، ثم أتبعه بعدد كبير من المال عطاء للجند ولنفقات الحرب مع قائده « إيتاخ »[3] .

وبدأ الأفشين تحركاته عندما انقضى الشتاء ببرده القارس ، وتحسنت الظروف

---

(١) نفس المصدرين السابقين .

(٢) يذكر الطبرى (أحداث سنة ٢٢٣هـ) أن المعتصم لعنايته بأمر بابك وأخباره ولفساد الطريق بالثلج وغيره جعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة ، على رأس كل فرسخ فرسا معه مجر مرتب ، فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدا بيد ، وكان ماخلف حلوان إلى أذربيجان قد رتبوا فيه المرج ، فكانت يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ، ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعروا إذا جاءهم الخبر ، فاذا سمع الذى يليه البعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه ، فكانت الخريطة تصل من معسكر الأفشين إلى سامرا فى أربعة أيام أو أقل .

(٣) أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢٢هـ .

الجوية ، فرحل من برزند إلى موضع يسمى « كلان روذ » فاحتفر فيه خندقا ، وتبعه أبو سعيد فعسكر بازائه على بعد ثلاثة أميال منه [1] .

ولم تمضى أيام قليلة حتى بلغ الأفشين خبر بأن « آذين » قائد بابك قد عسكر فى موقع قريب منه ، وأنه قد صير عياله فى جبل قريب يشرف على «روذالروذ» ورفض أن يدخلهم حصنا [2] استهتارا منه بجيش المسلمين الذين لقبهم باليهود . ووجد الأفشين فى ذلك فرصة لاختطاف عياله ، وتلقينه درسا لاينساه . فوجه إليهم ظفر بن العلاء السعدى فى جماعة من الفرسان والكوهبانية [3] ، الذين كانت مهمتهم الوقوف على رءوس الجبال ومراقبة الموقف ، حتى إذا رأوا خطرا لوحوا بالأعلام ، ليعرف الأفشين . وسروا فى الليل وعبروا مضيقا صعبا لايسمح إلا بمرور نفر واحد ، وصعدوا الجبل فأخذوا عيال آذين ، الذى علم بالخبر فأرسل إليهم رجالته فقطعوا عليهم الطريق، بينما كمن بعضهم عند المضيق ،ودارت معركة وقع فيها بعض القتلى،واستنقذ بعض النساء . وكان الكوهبانية قد لوحوا بأعلامهم حينما رأوهم ، فوجه الأفشين إليهم مظفر بن كيدر ، وأتبعه بأبى سعيد ،

---

(١) أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢٢هـ .

(٢) ذكر الدكتور سلام فى كتابه (الثورة البابكية ص ٨٠) خبر هذه الوقعة محرفا ، إذ قال أن آذين هو الذى كان يقيم فى هذا الموضع ومعه فرسان لايتحصنون فى حصن ، وأن الأفشين وجه ظفر بن العلاء إلى آذرين ورجاله ، وواضح أن الخبر بهذا الشكل يخالف ماورد فى المصادر التاريخية التى نقل عنها، (أنظر الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢١هـ).

(٣) الكوهبانية : هم الأدلاء وأصحاب الأخبار على مايذكر الطبرى وابن الأثير .

ثم ببخار أخذاه فى جماعات من الفرسان ، فأسرعوا الركض ورآهم رجالة آذين المتربصين عند المضيق ، ففروا إلى أصحابهم ، ونجا ظفر بن العلاء بمن معه من عيال آذين ، وعادوا جميعا إلى المعسكر وقد نجحوا فى تنفيذ مهمتهم ، فكانت ضربة موفقة حطمت كبرياء القائد البابكى المغرور .

* * *

واصل الأفشين زحفه من « كلان روذ » إلى « البذ »[1] معقل بابك . واتبع خطة مغايرة لخطته السابقة ، فلم يعد ينزل المنازل التى كان ينزلها ويتحصن بها ، وإنما جعل يتقدم قليلا قليلا ، ويعسكر كل أربعة أميال دون أن يحفر خندقا . وكانت مسيرته على طريق المضيق الذى ينحدر إلى « روذ الروذ » . وقد أمره المعتصم أن يجعل الناس نوائب تقف على ظهور الخيل ، كما يدور المعسكر بالليل مخافة البيات ، ولكن الناس ضجوا من التعب والتعبئة المستمرة . فأسكتهم بأن هذا أمر أمير المؤمنين . ثم انحدر فى خاصته إلى « روذ الروذ » حتى شارف موضع الوقعة التى كانت بينه وبين بابك فى العام الماضى ، فوجد به كردوسا من الخرمية[2] ، فواقفهم دون حرب طول النهار ، وظل يفعل مثل ذلك معهم أياما ، فيرسل أحدا من قـــواده لمواقفتهم حتى يقيم استحكاماته دون أن يفسدوا عليه عمله .

وأثناء ذلك كان قد أمر الكوهبانية أن يختاروا له مواقع يتحصن بها عند

---

(١) انظر تفاصيل خبر فتن البذ فى الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢٢هـ .

(٢) ينقل الدكتور سلام فى كتابه (الثورة البابكية ص ٨١) هذا الجزء من الخبر بشكل غير دقيق إذ يقول : «إنه وجد هذا الموضع محتلا يحتله كردوساه قائد الخرمية » والتحريف فيه واضح .

رءوس الجبال ، فوقع اختيارهم على ثلاثة أجبل ، وجدوا عليها آثار حصون قديمة خربة ، فأمر الفعلة من رجاله ببنائها وتحصينها على كل الجهات التى أن يؤتى من قبلها . ثم نقل إليها الرجالة وكلفهم بحراستها ، كما أمر بحفر خنادق على الطرق المؤدية إليها ، فلم يترك لكل جبل منها إلا مسلكا واحدا : وبذلك أتم تحصين مواقعه تحصينا قويا يصعب على الخرمية اجتيازه أو تهديده ، لتكون معسكرات آمنة لجيشه الكثيف .

وأراد بابك أن يقف على طبيعة هذه الاستحكامات : فاحتال لذلك بأن أرسل إلى الأفشين رسولا يحمل هدية له من القثاء والبطيخ والخيار ، ويعلمه أنه وجده فى أيامه هذه فى جفاء يأكل الكعك والسويق هو وأصحابه ، بينما ينعم الخرمية بعيش رغد ، وفهم الأفشين مقصد بابك من إرسال رسوله ، فقبل الهدية منه ، وأمر أن يحمل على دابة ليرى كل المواقع والتحصينات والخنادق ، حتى يقف على مدى مناعتها ، ويعلم صاحبه بذلك ، فيسقط فى نفسه اليأس من إمكان مهاجمتها أو اقتحامها . ويعرفه أن جيش المسلمين على درجة عالية من القوة والمنعة والثقة بالنفس بحيث لايخشى قوة الخرمية ولايقيم وزنا لمعرفة بابك بدخائل مواقعه ، وهذا التصرف من الأفشين وإن كان خاطئا من وجهة النظر العسكرية ، إلا أنه يعد عملا بارعا فى الحرب النفسية ، يدل على حنكة الأفشين وخبرته الحربية الواسعة .

ولم يستطع بابك أن يستفيد شيئا من معرفته بدخائل هذه المواقع ، إلا أنه أرسل جماعة من رجاله ليلا ليصيحوا ويركضوا دوابهم خلف سور خندق الأفشين فيزعجوه ، ولكن الأفشين قابل فعلهم بهدوء وصمت ، وتركهم يكررونه ليلتين أو ثلاثا حتى أنسوا وزال عن أنفسهم توقع الخطر . وفى الليلة التالية أعد لهم الأفشين كمائن ، فلما جاءوا فى وقتهم شدوا عليهم ففزعوا وتشتتوا فى عدة طرق

وتسلقوا الجبال نجاة بأنفسهم ولم يعودوا إلى فعلتهم مرة أخرى .

واتبع الأفشين مع بابك أسلوب المطاولة والحذر الشديد ، فلم يتعجل الهجوم خشية الكمائن التى أعدها الخرمية للوثوب على جيشه إذا مانشب القتال . وعبأ أصحابه وقسمهم فرقا وكراديس ، وحدد لهم مواضعهم فى السير والوقوف حسب نظام دقيق . وكان يخرج بهم فى كل أسبوع عند منتصف الليل ، فتضرب الطبول وتوقد الشموع والنفاطات وترفع الأعلام ، ويسير بهم زحفا عبر الوديان والجبال مسافة الأميال الستة من « روذ الروذ » إلى « البذ » . وكان بابك عندما يحس بتحركهم يفرق أصحابه إلى مكامنهم فلايبقى معه إلا نفر يسير . وقدبلغ الأفشين خبر تدبيره هذا ، فزاد من الحيطة والحذر ، وشدد أوامره بعدم الاشتباك فى حرب حتى يفسد عليهم تدبيرهم ، كما كان يفرق كوهبانيته ليفتشوا الأودية طمعا فى العثور على مواضعهم .

وكان الأفشين إذا أراد أن يصعد الركوة التى كانت عليها وقعته مع بابك فى العام الماضى ، خلف بخارا خذاه عند رأس عقبة على الطريق فى ألف فارس وستمائة راجل ليحفظوه ، وليحموا ظهره من وثبة الكمناء الذين كانوا يكمنون فى واد تحت تلك العقبة دون أن يعرف موضعهم ، وحين يصعد الأفشين إلى ذلك الموضع يجلس على كرسى فوق تل يشرف على باب البذ ، وكان يأمر من قواده أباسعيد وجعفرا الخياط وأحمد بن الخليل أن يتقدموا فى كراديسهم فيقفوا فى مواجهة أسوار البذ دون أن يتحركوا لحرب . وكان بابك يخرج عسكرا مع قائده « آذين » فيقفون على تل بإزاء الكراديس الثلاثة خارج البذ ليمنعوهم من التقدم إلى بابها .

ويظل الأفشين وقواده على هذه الحال من المرابطة والمواجهة ، بينما يجلس الخرمية بين يدى بابك يشربون النبيذ ويزمرون ويضربون الطبول . وبعد أن

يؤدى المسلمون صلاةالظهر ، يأمر الأفشين بالانصراف ، فيبدأ أقربهم إلىالعدو أبو سعيد فينصرف ثم يتبعه أحمد بن الخليل ، ثم جعفر الخياط ، ثم ينصرف هو بعدهم ، ويظل بخار اخذاه فى موقفه عند العقبة حتى تمر جميع الفرق ، فينصرف فى آثارهم .

وظل الأفشين متبعا هذه الخطة الاستعراضية شهورا ، فيخرج فى يوم من كل أسبوع على هذه الشاكلة ثم يعود . وكان بابك والخرمية يتلظون غيظا من فعله ، فكانوا إذا دنا موعد الانصراف ضربوا بصنوجهم ونفخـــوا بوقاتهم إستهزاء بهم وتنفيسا عن غيظهم، حتى بلغ بهم الضجر مبلغه لهذه المطاولةولكثرة التفتيش عن كائنهم . فحاولوا جر الأفشين إلى الحرب ، وانتهزوا فرصةانصراف فرقه فى أحد المرات ، وانتظروا حتى انصرفت فرقتان ، وأثناء انصراف الفرقة الثالثة بقيادة جعفر ، فتحوا باب خندقهم ، وخرج منهم عشرة فوارس فحملوا على مؤخرة فرقته ، وارتفعت الضجة فى العسكر ، فعاد جعفر فى جماعة من أصحابه ، وحمل على الخرمية حتى ردهم إلى باب البذ ، فخرج عليهم بابك فى عدة فرسان واحتدم القتال ووقعت بينهم جراحات . ومع ارتفاع الضجة رجع جماعة من المطوعة كانوا فى كردوس أبى دلف ، دون أمر من الأفشين ، حتى صاروا إلى جانب البذ فتعلقوا بسورها وكادوا يصعدونه .

ورجع الأفشين فجلس فى موضعه وهو يتلظى غيظا من جعفر ويقول : قد أفسد على تعبيتى وما أريد » . وأرسل جعفر الى الأفشين أن يمده بخمسمائة راجل من الناشبة ليتمكن من اقتحام البذ ، ولكنه رفض وأمره أن يتخلص بالتدريج وينصرف بأصحابه ، كما أمر أبادلف أن يصرف المطوعة . ومع أن هذه الاشتباكات كانت منافية لخطة الأفشين ، فإنها جاءت بنتيجة طيبة ساعدت على نجاح تلك الخطة ، إذ ظن الكمناء فى مخابئهم أن الحرب قد اشتبكت بالفعل،

فنمروا ووثبوا من تحت عسكر بخارا خذاه ، كما وثب كمين آخر من وراء الركوة التى كان يعقد عليها الأفشين ، ولكن وثبتهم لم يكن لها تأثير يذكر ، ولم تفاجىء جند المسلمين أو تفزعهم ، فظلوا وقوفا على رءوسهم لم يتزحزحوا عن مواضعهم ، وحمد الأفشين ربه أن كشف له مكامنهم ، التى جهد كثيرا للعثور عليها ، وكان يخشى مخاطرها على جيشه أشد الخشية .

ورجع جعفر وأصحابه والمطوعة ، وجاء إلى الافشين يلومه على أن قطع به ولم يمدده بما طلب من جند ، حيث كان يظن أنه سيدخل بهم البذ ، وجرت بينهما نفرة شديدة وملاحاة . كما جاء رجل من المتطوعة إلى الافشين ومعه صخرة ، فأخذ يلومه قائلا : أتردنا وهذا الحجر أخذته من السور ؟ ! ولكن الافشين أوضح لهم ما كان يتهددهم من خطر الكمائن التى ظهرت ، فلما رأوا مواضعها تبينت لهم الحقيقة وقدروا فداحة الخطب الذى كان يمكن أن يتعرضوا له لو تحرك بخارا خذاه والافشين من مواضعهم للمشاركة فى القتال .

وعاد الجميع إلى معسكرهم بروذ الروذ ، فأقاموا أياما أشاع خلالها المتطوعة الأقاويل عن مماطلة الافشين أن يحدثوا فتنة بين الجند ، فجمع رؤساءهم وناقشهم فى الأمر ، وبين لهم خطأ مايتقولون به ، فطلبوا منه أن يأذن لهم بالقتال وحدهم ، وألا يحرمهم من الاستشهاد فى سبيل الله ، فوافقهم على رأيهم ، وبارك عزيمتهم الصادقة ، وأذن لهم أن يختاررا اليوم الذى يحبون لمناهضة العدو ، فخرجوا مستبشرين فبشروا أصحابهم ، فمن كان أراد الانصراف منهم أقام ، ومن كان على مسافة قريبة ممن انصرفوا وسمع بذلك رجع للمشاركة فى الجهاد .

لم يكن الافشين يريد المعركة الفاصلة فى ذلك الحين ، إذ كان يعتقد أنه مازالت هناك بعض مواضع الكمائن خافية عليه ، وأن المطاولة ترهق العدو ، وتفقده الصبر على الصمود ، وتقلص ما كان له من النفوذ والسيطرة والرهبة فى

هذه المنطقة الشاسعة ، ولكنه نزل على رأى المطوعة ليمنع الفتنة من أن تستشرى ، وليرفع من الروح المعنوية التى أصابها الفتور واليأس ، وليمتص غضب الغاضبين من مصابرته التى طال أمدها ، وليقضى على ماوقر فى نفوس بعض رجاله منذ الاشتباك السابق من أنه قطع بهم ، وعوقهم عن مواصلة النضال وفتح البذ الذى كان وشيكا حسب ظنهم .

وأمر الافشين كل رجاله بالتأهب للقتال فى يوم حدده لهم ، وأظهر أنه يريد الحرب لامحالة وخرج الجميع بنفس النظام الذى كانوا يخرجون فى المرات السابقة ، حتى صار كل منهم فى موضعه ، وجلس هو فى مكانه ، وقال لأبى دلف : قـل للمطوعة أى ناحية هى أسهل عليكم فاقتصروا عليها ، وقال لجعفر : العسكر كله بين يديك والناشبة والنفاطون ، فإن أردت رجالا دفعتهم إليك ، فخذ حاجتك وماتريد ، واعزم على بركة الله ، فادن من أى موضع تريد ، ودعا أباسعيد أن يقف معه بفرقته لمتابعة مايجرى .

واتجه أبو دلف وأصحابه من المطوعة إلى حائط البذ فصعدوه وتعلقوا به كما فعلوا فى المرة السابقة ، وحمل جعفر حملة حتى ضرب باب البذ فوقف عليه ، فتصدى له الخرمية وواقفوه ، وفتحت جماعة أخرى منهم الباب وخرجوا على أصحاب جعفر فنحوهم عنه ، وشد آخرون على المطوعة من الناحية الأخرى فطرحوهم عن السور ، وجرحوهم بالصخر فرقوا عن الحرب وتوقفوا . وبرك مائة من أصحاب جعفر خلف تراسهم فواقفوا الخرمية متحاجزين ، لايقدم بعضهم على الآخر ، واختلف بين النشاب والحجارة ، ثم تناجزا بعد ذلك وكره الافشين أن يطمع العدو فى رجاله ، فوجه فرقة من الرجالة ليقفوا الى موضع المطوعة ، وبعث الى جعفر بفرقة أخرى ، ولكن جعفرا رأى ألا جدوى من الحرب فى هذا الموضع وتوقف القتال ، فأمر الأفشين بالانصراف وحمل الجرحى . وعاد الجميع إلى معسكرهم .

وإذا كانت هذه المحاولة لاقتحام البذ قد فشلت وخيبت أمل جعفر والمطوعة، فإنها قد حققت مكسبا نفسيا ومعنويا لجيش المسلمين ، إذ قضت على الأقاويل والخلافات ، وأعادت إليهم الثقة الكاملة فى قيادة الأفشين وحنكته وبعد نظره . واستقر أمرهم على حسن الطاعة له والانصياع لأوامره دون مراجعة أو تشكيك. وإن كان المطوعة قد تغلغل اليأس فى نفوس الغالبية منهم ، وفقدوا الأمل فى إمكان الفتح ، فانسحب كثير منهم عائدين إلى ديارهم ، وليس هذا بغريب منهم، لأنهم ليسوا أهل حرب ، ولا طاقة لهم على طول المرابطة والمصابرة ، ولا قيد عليهم فى أن يقيموا أو يرحلوا .

وخلال هذه الفترة من التضييق الشديد على بابك ، ومحاولة اقتحام معقله ، وعدم قدرته على الحركة وشن الهجمات المضادة كما كان يفعل فى السنين السابقة ، أيقن بابك أنه فى موقف الضعف الذى يشرف به على الهلاك ، فكتب إلى ملك الروم توفيل بن ميخائيل « يعلمه أن ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته إليه حتى وجه خياطه (يعنى جعفر بن دينار) وطباخه (يعنى إيتاخ) ولم يبق على بابه أحد ، فإن أردت الخروج إليه فاعلم أنه ليس فى وجهك أحد يمنعك ، طمعا منه بكتابه ذلك إليه فى أن ملك الروم إن تحرك انكشف عنه بعض ما هو فيه بصرف المعتصم بعض من بإزائه من جيوشه إلى ملك الروم واشتغاله به عنه »[1] ولكن النتيجة التى كان يأملها بابك بكتابه هذا جاءت متأخرة ، إذ تحرك ملك الروم بالفعل بناء على كتاب بابك فأوقع بأهل زبطرة وملطية بعد أن كان بابك

---

(١) لم يورد الطبرى وابن الأثير هذا الخبر ضمن أحداث فتح البذ ، وإنما أورداه فيما بعد ضمن خبر إيقاع الروم بأهل زبطرة من أحداث سنة ٢٢٣هـ .

قد قضى عليه وعلى حركته قضاء مبرما . وكان يظن أنه سيمكنه الصمود أمام الأفشين حتى يضطر المعتصم إلى سحب جيوشه أو بعضها لمواجهة ملك الروم .

وبعد فشل محاولة اقتحام البذ أقام الأفشين بخندقه أسبوعين قرر فى خلالهما حسم الأمر ، إذ تجمعت لديه معلومات جديدة عن العدو وعن كمائنه ، ونضجت فى ذهنه خطة جديدة تقضى بحصار جيش آذين المرابط على التل المواجه للبذ ، والذى كان يقف دائما فى مواجهة جيشه كلما خرج فى مرات خروجه الاستعراضية السابقة . وباحكام هذا الحصار يسهل القضاء عليه ، وتفقد البذ حمايته القوية ، ويصبح سقوطها أمرا ميسورا .

وبدأ الأفشين تنفيذ خطته فبعث عند الغروب ألفا من رجالته الناشبة ومعهم أدلاء ليدوروا خلف التل الذى يقف عليه آذين ، متخذين طرقا غير مألوفة عبر جبال وعرة حتى لايعلم العدو بأمرهم ، وتمكن هؤلاء من الوصول إلى رأس الجبل المشرف على ذلك التل عند السحر . وربطوا منتظرين ساعة الصفر ، حيث كان الافشين قد أمرهم بألا يبدءوا الهجوم إلا إذا رأوا اشتباك الحرب . كما وجه فرقة أخرى من الفراغنة بقيادة بشير التركى فى جوف الليل لترابط فى أسفل الوادى تحت تل آذين ، فتسد عليه هذا المنفذ ، وتشل حركة الكمين الذى أبلغ الأفشين بوجوده فى هذا الموضع .

وتجهز الافشين وقواده للخروج كعادتهم فى المرات السابقة ، وتحركوا فى السحر حتى بلغ الافشين مجلسه ، وفى هذه المرة لم يوقف القواد فى مواضعهم السابقة ، وإنما أمرهم بالدنو من التل الذى عليه آذين والإحداق به ، فتقدموا حتى صاروا حلقة حوله . ثم ارتفعت ضجة من أسفل الوادى ، وإذا بالكمين الذى تحت التل قد وثب ببشير التركى والفراغنة ، واشتبك القتال بينهم . ولكن الافشين أمر القواد ألا يتحركوا . وسمع الناشبة المرابطون عند رأس الجبل تلك

الضجة ، فانحدروا رافعين الأعلام على الرماح ، قاصدين عسكر آذين ، الذى وجه إليهم بعض رجالته ليصدوهم . عند ذلك حمل جعفر الخياط وأصحابه على الخرمية حملة شديدة حتى قلبوهم فى الوادى ، كما حمل عليهم جماعة من أصحاب أبى سعيد ، وإذا بطريقهم آبار محفورة تساقطت فيها أرجل الخيل ، فأمر الافشين الفعلة بردمها ، ثم حمل الجميع حملة واحدة . وكان آذين قد أعد فوق الجبل عجلا عليها صخور فدفعوها نحوهم ، ولكنهم رأوها فأوسعوا لها حتى لاتصيب أحدا ، وشد المسلمون عليهم من كل وجه فلم يتركوا لهم منفذا النجاة .

ورأى بابك أصحابه قد أحيط بهم ، وأيقن ألا جدوى من المقاومة ، فخرج من طرف البذ فى جماعة ، وأقبل يريد الافشين ، وأبلغ أبو دلف الافشين بأمره ، فركب إليه حتى دنا من موضع يسمع عنده كلامه . والحرب ماتزال مشتبكة فى ناحية آذين . فقال له : أريد الأمان من أمير المؤمنين ، فقال له الافشين : قد عرضت عليك هذا وهو لك مبذول متى شئت ، فقال : قد شئت الآن ، على أن تؤجلنى أجلا أحمل فيه عيالى وأتجهز . فقال له الافشين : قد والله نصحتك غير مرة فلم تقبل نصيحتى . وأنا أنصحك الساعة ، خروجك اليوم فى الامان خير من غد ، قال : قد قبلت أيها الامير ، وأنا على ذلك، فقال له الافشين : فابعث بالرهائن الذين كنت سألتك . قال : نعم ، أما فلان وفلان فهم على ذلك التل ، فمر أصحابك بالتوقف .

وحاول الافشين وقف القتال ، ولكنه أبلغ أن أعلام الفراغنة قد دخلت البذ ، وصعدوا بها القصور ، فركب وصاح بالناس ، فدخلوا البذ[1] حتى امتلأت

---

(١) كان دخول المسلمين البذ فى يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان فى هذه السنة ٢٢٢هـ (أنظر الطبرى وابن الاثير) .

بهم شوارعها . وكان بابك قد كمن فى قصوره سثمائة رجل ، ففتحوا أبوابها وخرجوا يقاتلون مستبسلين قتالا شديدا ، وأمر الافشين باحراق القصوروهدمها، وماهى إلا ساعات قليلة حتى كان كل مقاتلة الخرمية قد أفنوا عن آخرهم ، وأخذ أولاد بابك ومن كان معهم من عيالاتهم،ومع المساء أمر الأفشين رجاله بالانصراف إلى خندقهم ، ثم عادوا إلى البذ فى اليوم التالى للتفتيش عمن بقى من الخرمية ولاستكمال أعمال الحرق والهدم التى استمرت ثلاثة أيام ، حتى تركوها قاعا صفصفا وخرابا يبابا .

* * *

بعد أن كلم بابك الأفشين أثناء المعركة ، وأخذ منه وعدا بالأمان ، نزل هو ومن كان برفقته إلى الوادى ينتظرون أن يوقف الأفشين القتال ، حتى يقدم له الرهائن التى طلبها . ولكنه رأى الحرب تزداد استعارا ، وجند الأفشين يقتحمون مدينته ويحرقون قصوره ، ويفتكون برجاله فتكا ذريعا ، فأيقن أن الأمان الذى يرجوه أمر بعيد المنال ، وأن الفرصة سانحة أمامه للهرب فرارا من الموت المحقق الذى ينتظره ، وأملا فى اللحاق ببلاد الروم ، ليواصل نضاله ضد المسلمين الذين قوضوا ملكه ، وهدموا مجده وسلطانه .

ولما علم برجوع الأفشين وجنوده إلى خندقهم فى مساء اليوم بعد انتهاء المعركة، رجع هو وأصحابه إلى البذ تحت جنح الظلام فحملوا من الزاد ما أمكنهم وأخذوا أموالهم ، ثم دخلوا الوادى الذى يلى هشتادسر ، متجهين إلى أرمينية .وعلم الافشين بذلك فكتب إلى ملوك أرمينية وبطارقتها يعلمهم بالأمر ، ويأمرهم أن يحفظ كل واحد منهم ناحيته ، وألا يسلكها أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه .

وجاءت الأخبار إلى الافشين بأنه نزل واديا كثير العشب والشجر ، طرفه

بأرمينية وطرفه الآخر بآذربيجان ، ولا يمكن الخيل أن تنزل إليه ، ولا يرى من يستخفى فيه لكثرة شجره ومياهه ، ويسمى هذا الوادى غيضة . فوجه الأفشين فرقا من عساكره للوقوف على كل الطرق والمنافذ المؤدية إلى تلك الغيضة لحراستها والقبض على بابك إذا ماحاول الخروج منها .

وفى هذه الفترة ورد كتاب أمير المؤمنين المعتصم فيه أمان لبابك ، فدعا من كان استأمن إليه من أصحابه وفيهم ابنه الأكبر ، فقال لهم : هذا مالم أكن أرجوه من أمير المؤمنين ، ولاأطمع له فيه ، أن يكتب إليه وهو فى هذه الحال بأمان ، فمن يأخذه منكم ويذهب به إليه ؟ فلم يجسر أحد منهم على القيام بتلك المغامرة ، لعلمهم بأن بابك سوف يقتل من يواجهه بذلك . فطلب الأفشين أن يتطوع بعضهم لهذا الأمر ، فقبل رجلان منهم على أن يضمن الأفشين لهما أن يجرى على عيالاتهما الأرزاق ، فضمن لهما الأفشين ذلك . وتوجها بالكتاب ومعه كتاب آخر من ابن بابك يحثه على قبول الأمان . وظلا يدوران فى الغيضة حتى وجداه . وماأن قرأ كتاب ابنه حتى غضب غضبا شديدا ، وعنف الرجلين وضرب عنق من كان يعرفه منهما ، ورد الآخر وحمله كتاب إلى ابنه يسبه فيه سبا قبيحا ويتبرأ منه ويقول له : لأن تعيش يوما واحدا وأنت رئيس خير من أن تعيش أربعين سنة عبدا ذليلا[1] .

وظل بابك ومن معه مستخفين بالغيضة إلى أن فنى مالديهم من زاد ، فاحتال للخروج منها متخذا طريق جبل ليس فيه ماء ، مماجعل عسكر الأفشين يتنحون عنه إلى موضع قريب من الماء ، موكلين حراسته إلى أربعة منهم يغيرون كل يوم

---

(١) أنظر تفاصيل ذلك فى الطبرى وابن الأثير أحداث سنة ٢٢٢هـ .

بالتناوب ، وخرج بابك ورفقته دون أن يروا الحراس ، وساروا إلى أن نزلوا على عين ماء ليتغدوا ، وهم يظنون أنهم بمأمن ، ولكن الحراس أخبروا قائدهم بأمرهم ، فتوجه إليهم بعسكره ، وما أن رآهم بابك حتى ركب وأسرع بالفرار هو وغلام له وأخوه عبد الله ، بينما تمكن العسكر من أخذ أخيه معاوية وأمه وامرأة كانت معه ، فبعثوا بهم إلى الأفشين .

ويفهم من ذلك أنه لم يكن مع بابك فى ذلك الحين إلا هؤلاء القلة من أهله . وأن بقية أصحابه الذين كانوا برفقته إما تخلوا عنه نجاة بأنفسهم ، وإما أنه فرقهم حتى يسهل عليه الفرار والاستخفاء بهذه الجماعة من أهله .

ومضى بابك فى فراره حتى دخل جبال أرمينية ،وكان بطارقتها قد شددوا على رجال مسالحهم فى مراقبة نواحيهم ، فلا يجتازها أحد إلا أخذوه حتى يعرفوه ، واضطر الجوع بابك أن يرسل غلامه ليأتيه بطعام من حراث رأوه فى أحد الأودية، فركب إليه الغلام فى سلاحه . ورآه شريك الحراث كان على بعد يقضى حاجته ، فظن أنه جاء يغتصب طعام شريكه ، فعدا إلى المسلحة وأبلغهم بالأمر ، فأبلغوا بدورهم حاكم المنطقة سهل بن سنباط الذى أسرع بالمجىء فى جماعة ، فوافى الحراث والغلام عنده ، فسأله عن مولاه فدله عليه ، فلما رأى وجه بابك عرفه ، فترجل ودنا منه فقبل يده ، وسأله عن وجهته ، فقال له : أريد بلاد الروم . فقال له ابن سنباط : لا تجد موضعا ولا أحدا أعرف بحقك ولا أحق أن تكون عنده منى ، وليس بينى وبين السلطان عمل ، وكل من ها هنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك ، قد صار لك منهم أولاد[1] . وتمكن ابن سنباط من خداعه وإقناعه بالذهاب معه

---

(١) كان بابك إذا علم أن عند بعض البطارقة ابنة أو أختا جميلة وجه إليها يطلبها، فإن بعث بها إليه وإلا بيته وأخذها ، وأخذ جميع ماله من متاع وغير ذلك ، =

إلى حصنه ، ولـكنه طلب منه أن يرسل أخاه إلى حصن ابن اصطفانوس زيادة منه فى الحيطة ، فأجابه إلى طلبه وأرسله إلى هناك .

وأعلم ابن سنباط الأفشين بخبره ، فشكر له فعله ووعده خيرا كثيرا ، وأرسل إليه رجلا من خاصته للتأكد من صحة الخبر ، ولما تيقن منه وجه إليه أبا سعيد وبو زبارة فى جماعة من العسكر . وأمرهما أن يعملا بما يشير به ابن سنباط ، الذى دبر خطته بأن يقيما فى موضع حدده لهما . ثم أغرى بابك بالخروج للصيد ، وأعلمهما أن يكمنا فى جبل على جانبى الوادى الذى سيتصيدان به ، حتى إذا رأوهما هناك ، أطبقا عليهما بالعسكر من الجهتين فأخذوهما وكان مقصد ابن سنباط بهذه الخطة ألا يشعر بابك بأنه خان عهده وأسلمه لأعدائه ، ولـكن ما أن نفذت الخطـــة ، وأحدقت العساكر ببابك ، حتى فهم أن ذلك من تدبير ابن سنباط ، فشتمه وقال: إنما بعتنى لليهود بالشىء اليسير ، لو أردت المال وطلبته لأعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء .

وأخذه أبو سعيد إلى الأفشين، [1] الذى صعد العسكر إلى برزند ، وجلس فى خيمته ، وأمر الناس أن يصطفوا صفين ، وأنزل بابك فمشى بينهما حتى جاء فوقف بين يديه ، ثم أمر به فسجن فى بيت ووكل به من يحرسه . وأرسل لإحضار أخيه من حصن ابن اصطفانوس ، فلما جىء به حبسه معه فى سجنه . وأمر الأفشين لسهل بن سنباط بعطاء جزيل بلغ مليون درهم ، ومنطقة مغرقة بالجواهر ، وزاده

= وصار به إلى بلده غصبا » .

أنظر تاريخ الطبرى حـ٩ ص٤٨ ط دار المعارف بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(١) كان وصول بابك إلى الأفشين ببرزند لعشر خلون من شوال فى هذه السنة.

(أنظر الطبرى آخر أحداث سنة ٢٢٢ هـ) .

تكريما بأن أنعم عليه بتاج البطرقة ، كما أعطى ابنه الذى صحب بابك إليه مائة ألف درهم .

وكان قد تجمع لدى الأفشين بعد سقوط البذ عدد كبير من النساء والصبيان ، ذكروا أن بابك كان أسرهم ، وأنهم أحرار من العرب والدهاقين ، فأمرهم أن يكتبوا إلى أوليائهم ، فكان كل من جاء فعرف امرأة أو صبيا أو جارية ، وأقام شاهدين على صدق دعواه أخذ من كان له ، فرد الكثيرين منهم إلى ذويهم ، وبقى كثيرون ينتظرون أن يجىء أولياؤهم .

وكتب الأفشين إلى المعتصم يعلمه بأسر بابك وأخيه ، فكتب المعتصم إليه يأمره بالقدوم بهما عليه . فلما عزم الأفشين على الرحيل أعلم بابك وسأله مايشتهيه من بلاد آذربيجان ، فقال : أشتهى أن أنظر إلى مدينتى ، فأجابه الأفشين إلى طلبه، ووجهه إليها فى حماسة جماعة من رجاله ، فى ليلة مقمرة ، فدار فيها ونظر إلى القتلى والبيوت والقصور التى أحرقت ودمرت تدميرا ، وامتلأت نفسه حسرات على مجده الزائل ، وكأنه شاعر أجتذبه الحنين إلى أطلال حبيبته، فوقف عليها باكيا مجترا ذكريات أيامه الحلوة ، ولا ندرى ما إذا كانت المشاعر التى تختلج بها نفس بابك فى ذلك الحين هى مشاعر الندم على خروجه ومحاربته للإسلام ودولته ، أم هى مشاعر الحقد والنقمة على أولئك المسلمين الذين قوضوا ملكه وسلطانه ، وقضوا على دعوته وعقيدته ، وإن كانت الدلائل والشواهد التى نراها من خلال فراره ورفضه أمان أمير المؤمنين تؤكد أنه كان ومايزال متمسكا بمبادئه ،مصرا على كفره وعصيانه ، فهو فى موقف الحاقد الناقم لا المخطىء النادم .

وقدم به الأفشين إلى سامرا[٢] . فاحتفلت الدولة احتفالا عظيما بذلك الحدث

---

(٢) كان قدوم الأفشين على المعتصم ببابك وأخيه ليلة الخميس لثلاث خلون من صفر سنة ٢٢٣ هـ (أنظر الطبرى) .

التاريخى الخالد ، ورفرفت أعلام النصر فى كل مكان ، وسجد المعتصم لله شكرا ، أن مكنه من ذلك العدو الجبار الذى أقض مضجع دولة الإسلام سنين عددا ، أهلك فيها الحرث والنسل حتى قتل فيما يروى المؤرخون مائتى ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان ، واستنقذ ممن كان فى يده من المسلمات وأولادهم سبعة آلاف وستمائة .

ولشد ما كان شوق المعتصم ورجال دولته إلى رؤية بابك مصفدا بالاغلال ، فما كاد الأفشين يصل به إلى سامرا ، وينزله فى قصره بالمطيرة حتى ذهب بأحمد بن أبى دؤاد وزير المعتصم متنكرا فى جوف الليل ، فرآه وكلمه ، ثم رجع إلى المعتصم فوصفه له ، فلم يصبر المعتصم حتى ركب إليه ودخل متنكرا فنظر إليه وتأمله ، وبابك لا يعرفه ، فلما كان الغد ، قعد له المعتصم واصطف الناس على جانبى الطريق من باب العامة إلى المطيرة لرؤيته ، وقد أركب على فيل كمى بالديباج حتى أدخل دار العامة إلى أمير المؤمنين ، فأمر بقطع يديه ورجليه . ثم بشق بطنه وفصل رأسه عن جسده ، ووجه برأسه إلى خراسان ، وصلب بدنه بسامرا عند العقبة، وكان الذى تولى قتله سيافه نفسه إمعانا فى إزلاله ، وقتل أخوه عبدالله فى بغداد مثل قتلته ، وصلب بدنه فى الجانب الشرقى بين الجسرين ، وشهد الناس فى قتلهما وصلبهما كيف تكون نهاية الطغيان وعاقبة الإفساد والكفران ، ورأوا حكم الله ينفذ فيمن حاربه وحارب دينه ، وعاث فى الأرض فسادا ، إحقاقا لقوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا : أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا فى الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

الفصل الخامس

فى انتصار الأفشين

كانت مظاهر الفرح والابتهاج التى عمت أرجاء الدولة ، وغمرت قلوب المسلمين فى كل مكان لا يحيط بها وصف ، لهذا النصر الأعظم الذى خلص الأمة الإسلامية من أكبر خطر كان يهدد عقيدتها ويسلبها امنها واستقرارها .

وبعد تنفيذ الحكم بقتل بابك ، وتوجه المعتصم إلى الأفشين فتوجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم ، منها عشرة آلاف ألف له خاصة ، وعشرة آلاف ألف يفرقها فى أهل عسكره ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه ، وأمر للشعراء بصلات ، وكان على رأسهم شاعر الحماسة الأكبر أبو تمام ، فأنشده قصيدته التى يقول فى مطلعها :[1]

بذَّ الجلادُ البذَّ فهو دفين ... ما إن بها إلا الوحوشُ قطينُ

وواضح أنه مطلع حماسى يتناسب مع الجو المشبع بفرحة النصر ، يعلن فيه غلبة النضال وظفر الجلاد الذى استبسل فيه جند الإسلام ، فدمروا مدينة « البذ » معقل بابك المنيع ، وتركوها خرابا بلقعا لا يسكنه سوى الوحوش ، بعد أن كانت حاضرة سلطان عامرة بحياة النعيم والرفاهية . وكأنما أراد أبو تمام بهذا المطلع أن يكون عنوانا على رأس القصيدة تتمثل فيه عناصر موضوعها ، فلم يكن هناك مجال للبدء

---

(١) أنظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٣ والقصيدة فى الديوان ح٣ ص ٣١٦

بتلك المقدمة التقليدية المعهودة فى قصائد المديح ، ولم تكن لتحتملها نفوس الحشد الحافل الذى يصغى لإنشاده ، بل إن أبا تمام نفسه لم يكن ليستطيع الخروج عن نطاق انفعالاته وأحاسيسه المتأججة حمية وتحمسا ، وكان صادقا مع نفسه فى اقتحام موضوعه أقتحاما .

ويثنى أبو تمام على مطلعه هذا فيقول :

لم يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصبرَ فى هيجاءَ إلا عَزَّ هـــذا الدين

ولاشك فى أنه يقصد بالصبر هنا ما عرف عند الافشين من مصابرة طويلة فى تلك الحرب ، ضج منها كثير من جنده ، وكادت تنقلب إلى اتهام له بالمماطلة كما سبق أن عرفنا ، ولكنها بعد أن حققت نتائجها المرجوة أصبحت مضرب المثل وحديث الناس . فالمعنى العام الذى يفهم من البيت ، والذى يجعل من صبر المحارب دعامة أساسية لإحراز النصر وإعزاز الدين به إلى جانب السيف فى يده، هو معنى معروف مطروق لا جديد فيه ، ولكن الجديد فيما وراءه من تخصيص «هذا الصبر» وربطه بالأفشين . وتمثل أحداث المعارك ودوره فيها فى أذهان الجميع ، كفيل بوصول المعنى الذى يريده أبو تمام إليهم فى سهولة ، وهذا ما لم يدركه شراح الديوان ، وما ينبغى علينا أن ندركه .

ويردف أبو تمام مصورا ما فعله الأفشين بمدينة البذ وأصحابها من الخرمية فيقول :

قد كان عُذْرَةَ مغربٍ فافتضَّها بالسيف فحل المشرق الأفشين

فأعادها تعوى الثعالبُ وَسْطها ولقد ترى بالأمس وهى عرين

جادت عليها من جماجم أهلها   دِيَمٌ أمارَتْها طُلىً وشئون[1]

كانت من الدم قبل ذاك مفازةً   عوراً فأمست وهى فيه معين

بحراً من الهيجاء يهفو ، مالهُ   إلا الجناجنَ والضلوعُ سفين

فقد كانت البذ حصنا منيعا فى مشرق الدولة ببلاد آذربيجان صعب على رجال الدولة فى مغربها أن يفتتحوه ، وكأنه بكارة عذراء يحرم عليهم أن يقربوها ، حتى جاء الأفشين فحل المشرق وبطله العظيم فافتضها بسيفه وأزال بكارة حرمتها ، فهو رجلها الذى اختاره القدر لها وخصه بشرف افتضاضها . وكانت البذ عرين أسدها بابك فأحالها الأفشين إلى خرائب مقفرة تعوى الثعالب فى أرجائها ، إذ أهلك أهلها وقتلهم تقتيلا ، وأسال دماءهم سيولا غمرت ساحاتها ، كأنما هطلت عليها سحب ثرة من الدماء التى صبتها شئونهم وعروقهم إثر ضرب أعناقهم وفصل رءوسهم عن أجسادهم . وصارت مدينتهم معينا زاخرا يموج بدمائهم ، بعد أن كانت مفازة لا ترى فيها نقطة دم ، كالمفازة التى لا تجد فيها نقطة ماء . بل إنها قد صيرتها هيجاء القتال بحرا يضطرب بالأهوال ويمور بالدماء ، ليس فيه من سفن إلا عظام الصدور وضلوعها التى تشكل تجويفاتها ، تشكيل عروق الخشب تجويفات السفن ، فتطفو فى بحر الدماء كما تطفو السفن فى بحر الماء .

وينتقل أبو تمام من تلك الصور الدامية المثيرة إلى الحديث عن صاحبها الأفشين وما تميز به من أصالة المجد عن أب وجد ، ومن كريم الشمائل وحميد الخصال ، فيقـول :

---

(١) أماره : أساله ومار الدم : جرى والمور : الموج والاضطراب . طلى (بضم الطاء) : قشرة الدم وكمكاء الدم .

لاقاهم ملك حباه بالعـــلى جرس وجانا خُرَّة الميمون
ملك تضىء المكرمات إذا بدا للملك منه غُرَّة وجبين
ساس الجيوش سياسة ابن تجارب رمقته عين الملك وهو جنين
لانت مهزته فعز وإنما يشتد بأس الرمح حين يلين
وترى الكريم يعز حين يهون وترى اللئيم يهون حين يهون

فهو ملك ورث العلا عن جدود كانوا ملوكا فى بلادهم أشروسنة ، منهم جرس وجاناخرة . يضىء جبينه بمكرمات الأعمال التى جبل عليها ، وشمائل الملك التى تأصلت فيه وجرت فى دمائه منذ كان جنينا فى بطن أمه . وله حنكة فى قيادة الجيوش ، وخبرة فى سياسة أمورها أكسبتها إياه تجاربه الكثيرة التى حفلت بها حياته كقائد محارب ، ولاشك أن أبا تمام يعنى بذلك ما قام به الأفشين لإخماد الثورة التى اندلعت فى مصر أيام المأمون(١) . ومن أبرز عناصر هذه الحنكة لين جانبه فى غير ضعف ، وعدم صلابته فى اتخاذ القرار ، وتراضعه فى معاملة أصحابه ، وتلك صفات تنم عن عزة وعلو نفس ، وهمة وشدة بأس ، فمثله كمثل الرمح كلما لان عوده كان أقوى وأشد . ويخلص أبو تمام من ذلك إلى تلك الحكمة الراسخة فى مبادىء الأخلاق والمعاملة بين الناس ، إذ نرى الكريم يزداد عزة بتواضعه ، بينما اللئيم لا يزيده التواضع إلا هوانا .

وبعد هذا الفاصل الهادىء من التأمل بلمحاته الذهنية الخفيفة ، يعود أبو تمام إلى حديث الحرب ، وضجيجها وأحداثها المثيرة مرة أخرى ، كأنما أراد أن يريح نفوس مستمعيه قليلا لتكون أكثر تقبلا له ، وأشد تلهفا عليه ، فيقول :

---

(١) أنظر الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢١٧ هـ .

قاد المنايا والجيوشَ وأصبحت ولها بأرشقَ قسطلٌ عثنون(١)
فتركت أرشقَ وهي يُرقَى باسمها صمُّ الصفا فتفيض منه عيون
لو تستطيعُ الحجَّ يوماً بلدةٌ حجّت إليها كعبةٌ وحجون
لاقاك بابكُ وهو يزئرُ فانثنى وزئيرهُ قد عاد وهو أنين
لاقى شكائمَ منك معتصميةً أحزانَ حنبَ الكفر وهو سمين
لما رأى عاليك ولىّ هارباً ولكفره طرفٌ عليه سخين
ولىّ ولم يظلم وهل ظلم امرؤٌ حثَّ النجاءَ وخلفه التنين(٢)

ولقد عاد بالحديث إلى أول معركة لقى فيها الأفشين بابك وهي معركة « أرشق » التى داهمه فيها على غير توقع – كما سبق أن عرفنا — وأنزل بأصحابه ضربات الموت القاضية التى أوردتهم موارد الهلاك ، وأحالت زئير بابك المستأسد أنين توجع مبرح الآلام ، فولى هاربا مخذولا يبكى عليه كفره بدمع سخين ، وله العذر فيما فعل ، وكيف يلام على التماسه النجاة من خطر الأفشين الذى بدا له كالتنين فظاعة ورهبا ؟ ! إن أرشق كانت نكالا له وعبرة لمن يعتبر ، حتى إن أسمها صار رقية لو قرئت على صم الصخور لتفجرت منها المياه عيونا . وأصبحت حرم الجهاد المقدس الجدير بأن يحج إليه كما يحج المسلمون الى حرم مكة ، ولو أن البلاد والأماكن باستطاعتها الحركة والتنقل ، لارتحلت اليها كعبة مكة وحجونها لتؤدى فريضة الحج بحرمها .

---

(٢) القسطل : الغبار . العثنون : المتقدم .

(٢) التنين : حية لها سبعة أرؤس وهو كائن خرافى يذكره العامة فى أحاديثهم.

ويواصل الحديث عن وقائع تلك الحرب الطاحنة ودور الأفشين في قيادتها فيقول :

أوقعت في أبرشتويم وقائعاً ... أضحكن سن الدين وهو حزين
أوسعتهم ضرباً تهدّ به الكُلى ... ويخفّ منه المرءُ وهو ركين
ضرباً كأشداق المخاض وتحته ... طعنٌ كأن وجاءه طاعون[1]
بأسٌ تُفلُّ به الصفوفُ وتحته ... رأيٌ تُفلُّ به العقولُ رزين
أخلى جلادُك صدرَه وافتدى ... وفؤادُه من نجدةٍ مسكون
سَجَنت تجاربُه فضولَ عرامه ... إن التجاربَ للعقول سجون
وعشيةَ التل انصرفت وللهدى ... شوقٌ إليك مُداورٌ وحنين
عبّأ الكمينَ له فظلّ لحينه ... وكمينه المُخْفَى عليه كمين
يا وقعةً ما كان أعتق يومها ... إذ بعض أيام الزمان هجين
لو أن هذا الفتحَ شكٌّ لاشتفت ... منه القلوبُ وكيف وهو يقين

فهو يذكر وقائعه في « أبرشتويم » بينما لم تورد كتب التاريخ هذا الاسم مطلقا فيما أوردته من أسماء الوقائع والمواضع الكثيرة التي دارت فيها المعارك أو التي كانت تعسكر فيها الجيوش . وهذا يكشف لنا جانبا من جوانب القصور في تلك المصادر .

ولقد كان لهذه الوقائع أثر بالغ في تمكين الدين الإسلامي وإرساء مبادئه في تلك المنطقة بعد أن سيطر عليها الخرمية ونشروا فيها عقيدتهم المعادية له ، ففرح الإسلام بعد حزن وضحك بعد عبوس . ويضيف أبو تمام صورا جديدة لتنكيل

---

(١) الوجا والوجاء : السرعة .

الأفشين بأصحاب بابك . فقد أوسعهم ضربا وطعنا مزق كلام تمزيقا ، وخف قلب الشجاع لشدة وفمه رعبا وفزعا ، وتفجرت الدماء من كلومه الفائرة كأشداق المخاض ، واختطف أرواحهم كأنه وباء الطاعون . ثم يعاود أبو تمام الحديث مرة أخرى عن حكمة الأفشين ونصاعة رأيه الذى بز ذكاء العقول وفل أفكارها ، والذى يكمل فيه شخصية القائد الشجاع البطل الذى فل بأسه صفوف الأعداء ، ولكنه لا يكتفى هنا بهذا الوصف القريب السهل ، وإنما يضفى عليه من فكره العميق ليرسم له صورا عقلية بعيدة المعنى ، مغرقة فى الإيهام ، فيجسم الرأى أو العقل تجسيما يجعله به إنسانا له صدر وله فؤاد ، ليقول إن جلاد الأفشين الشديد قد أخلى صدر الرأى عنده فيكاد يظن أن هذا الرأى لا فضل له ولا تعويل عليه ، وإن كان فؤاد الرأى فى حقيقته عامرا بالنجدة لا يخلو من صواب الفكرة التى تبرز فى حينها لتنقذ الموقف وتحسم الأمر . وإن التجارب التى أكسبت هذا الرأى صوابه المحكم ، قد سجنت فضول تهوره وشدة عرامه ، ومنعتها من أن يكون لها أثر فى قيادة المعارك وتسيير أمورها حتى لا ترديه فى الخطأ والفشل . وهذا هو شأن التجارب دائما فى عقول أصحابها ، إذ تكون بمثابة قيود لها ، فلا تخرج أفكار هذه العقول إلا من خلال تلك التجارب ووفقا لما تمليه خبرتها .

ثم يذكر وقعة تل البذ حيث طوقت جيوش الأفشين قوات بابك الرابضة على هذا التل بقيادة « آذين » — كما عرفنا من التاريخ —وكان فى ذلك هلاكها وتحطيمها وهى التى كانت تمثل آخر معاقل الدفاع عن المدينة وأفواها ، وبانهيار هذا الدفاع استبيحت البذ وتم النصر ، وعلت راية الهدى والحق بين الأفشين . ولم تنفع بابك كائنه التى استخفت لتنقض فى اللحظة الحاسمة . وإنما بقيت فى مكامنها منتظرة نهاية أجلها المحتومة على يد جند الإسلام ، وانقلب كونها ليكون عامل هزيمة لبابك ، وكأنما كانت ضده لتوقع به ، فيالها من وقعة عظيمة يومها أكرم الأيام وأشرفها ، تقف دونه أيام الزمان لا تطاوله شرفا وعزة ، كما يقف الإنسان الهجين المختلط

الجنس دون السيد الشريف الكريم المحتد ، وما أشد لهفة القلوب وفرحتها بهذا الفتح العظيم الذى شفا غليلها وأطفأ نارها . ولو كان أمره مشكوكا فيه لكان لهذلك الأثر نفسه فى القلوب ، فكيف به وهو حقيقة لا تقبل الشك ويقين لا يداخله الريب ؟ ! ولنا أن نتصور مدى أثره قياسا على ذلك ، إنه مدى لا تحده حدود ، ولا يحيط به تصور .

ويساير أبو تمام تتابع الأحداث بعد سقوط البذ مسجلا هرب بابك ثم وقوعه فى يد الأفشين ، فيقول :

وأخذت بابكَ حائراًدون المُنَى	ومُنَى الضلال مياهُهُنّ أجون
طعنَ التلهُّفُ قلبَه ففؤادُه	من غير طعنةِ فارسٍ مطعون
ورجا بلادَ الروم فاستعصى به	أجلٌ أصمٌّ عن النجاء حَرون
هيهات لم يعلمْ بأنك لوثوىَ	بالصين لم تبعدْ عليك الصين
مانال ماقد نال فرعونٌ ولا	هامانُ فى الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحاك فى سَطَواته	بالعـــالمين وأنت إفريدون[1]

---

(١) قيل أن الضحاك من ولد عدنان كانت أمه من الجن ، وهذا اسم عربى ، وقيل إنه ملك كان فى مؤخر رأسه حيتان ، وإنهما كانتا لاتقران حتى تطعمادماغى إنسانين ، فصبرا على ذلك دهرا طويلا يقتل كل يوم رجلين ويستعمل دماغيهما ، وكان إفريدرون رجلا صالحا فى ذلك الزمان أو نبيا ، فأشار على من كان يلى ذلك الضحاك أن يجعل مكان دماغ الإنسانين دماغى شاتين ، ففعل ، فأغنيا غناءهما . وفى رواية أخرى أن بعض وزرائه هم الذين أشاروا بذلك الرأى ولم يجترئوا على إعلام الملك به ، فكانوا يجيئون كل يوم برجلين فيأمر بقتلهما ، فيبعثون بهما إلى بعض الأماكن القاصية ، ويقيمون العوض من الضأن ، فاجتمع فى ذلك المكان خلق كثير ، وكان من بينهم إفريدون فخرج بهم إلى الضحاك فقتله .

فـيشكرُ الإسلامُ ماأوليتهَ واللهُ عنـــــه بالوفاء ضمين

لقد كانت تلك الهزيمة الساحقة طعنة نافذة فى صميم فؤاده ، دفعته إلى الهرب ناجيا بنفسه فى لهفة شديدة للخلاص من سوء عاقبته ، واللجوء إلى بلاد الروم حيث لجأ الكثيرون من أتباعه قبل ذلك . ولكن قدره أبى أن يكون طوعا له . وأجله حرن به واستعصى عليه، فأخذه الأفشين قبل أن تتحقق له أمانيه التى صدرت عن عى وضلال ، فلا خير وراءها ولا نفع للناس ، بل هو الشر والضر لهم فيها ، شأن المياه الآجنة الآسنة فى فسادها وإضرارها .

وهيهات أن يفلت من سوء مصيره ، وأن يجد فى الأرض ملاذا يعصمه من الأفشين الذى يستطيع أن يأتى به مهما بعدت به المسافة ، ولو كان مستقره بأرض الصين . وإنه قد نال فى هذه الدنيا ما لم ينله ملك من النعيم والنفوذ والسلطة ، وبلغ فيها الغاية التى لم يبلغها فرعون وقارون وهامان ، الذين كفروا بأنعم الله ، وبغوا فى الأرض بغير الحق ، بل إنه كان فى جبروته وطغيانه أشبه بذلك الملك الأسطورى المسمى بالضحاك ، والذى تمادى فى قتله الناس إستجابة لنزعة الشر ، حتى جاء « إفريدون » الرجل الصالح فقتله وخلص الناس من شره ، كما جاء الأفشين فقضى على بابك وخلص الناس من شره .

وهنا يتخذ أبو تمام من هذه الأسطورة الفارسية مادة فنية يصنع منها نسيج شعره ، ليخرج المعنى فى صورة فريدة وجديدة على الشعر العربى . وليخلص إلى تقدير عظيم لعمل الأفشين ورفع لقيمة جهاده فى سبيل الله وفى سبيل الإسلام إلى أعلى الدرجات . فيكون لذلك جديرا بكل حمد وثناء ، مستحقا لشكر الاسلام وأهله ليجزيه الله عنه خير الجزاء وفاء بوعده لأمثاله من المجاهدين الناصرين لدينه الحق .

ويعلق الدكتور البهبيتي على استخدام أبي تمام لأسطورة الضحاك وأفريدون هذه فيقول إنه « أثر من الأساطير الخرافية الفارسية يبدو في شعر أبي تمام العربي قبل أن يصوغ فارسي الشاهنامة شعرا ، وفي هذه الاستفادة الدائمة من أساطير الماضيين ما يشبه ما جد بعد ذلك بقرون طوال في أوربا ، من محاولات استغلال الأساطير اليونانية في الشعر الاوربي ، وما يجعل للشرق حق السبق إلى هذه الصبغة الفنية للشعر »[1] .

* * *

أما قصيدته الثانية في الإشادة بانتصار الأفشين على بابك والتي يبدؤها بقوله[2] :

غدا المُلكُ معمورَ الحَرا والمنازلِ   مُنَوَّرَ وحْفِ الأرضِ عَذْبِ المناهلِ

فهي من الناحية التاريخية تعد أولى قصائده في الأفشين ، إذ نظمها بعد أول انتصار أحرزه الأفشين على بابك في موقعة « أرشق » سنة ٢٢٠ هـ . ويفسر لنا الصولي الظروف التي أدت إلى نظمها بقوله في مناسبتها « إن أبا تمام كان بنيسابور على باب عبد الله بن طاهر ، فخرج أبو العميثل حاجبه برقعة فيها بيتان من شعر قالهما عبدالله ، فقال لأبي تمام : قل في معنى هذين البيتين ووزنهما ، وهما في الأفشين ، وكان يحارب بابك في مدينة أرشق . فقال أبو تمام قصيدته هذه ، وهي أول شعر قاله في مدح الأفشين »[3] .

وقول الصولي هذا يدعونا إلى التساؤل عن السبب الذي دعا عبد الله إلى أن يطلب

---

(١) أنظر حياة أبي تمام وحياة سفره ص١٣٧ .

(٢) الديوان حـ٣ ص٨٨ .

(٣) أنظر ديوان أبي تمام الصولي (مخطوط) ورقة ١٠٣ .

من أبي تمام نظم قصيدة في الأفشين . ويوضح لنا الدكتور البهبيتي[١] سبب ذلك الطلب بأن عبد الله كان يريد به إرغام أبي تمام على مدح أعجمي قح ، إنتقاما منه، وتنكيلا بعصبيته العربية التي أبداها في مدحه لأبي عبدالله حفص بن عمر الأزدي، وكان رئيسا من رؤساء العرب في إقليم خراسان ، قصده أبو تمام قبل ذهابه إلى ابن طاهر ، وصور في مدحه ما كان بين الفرس والعرب في إقليم خراسان ،قصده أبو تمام قبل ذهابه إلى ابن طاهر ، وصور في مدحه ما كان بين الفرس والعرب من خصومة في ذلك الحين . وما قام به حفص من توحيد صفوف العرب ضد هؤلاء الموالي الحاقدين على الإسلام والعروبة ، ومطلع هذه القصيدة :[٢]

هفت أربعُ الخِلاَّت لَلأربع المُلْدِ ... لـكلِّ هضيم الـكَشْحِ مجدولةِ القد

وفيها يقول :

وأنت وقدمَجَّتْ خراسان داءها ... وقد نَغَلَت أطرافُها نَغَلَ الجلد
وأوباشُهاخُرْزٌ إلى العرب الأُلَى ... لـكيما يكون الحُرُّ من خَوَلِ العبد
ليالىَ بات العزُّ في غــير بيتــه ... وعُظِّم وغدُ القوم في الزمن الوغد
وما قصدوا إذ يسحبونَ على المُنَى ... بُرودَهم إلا إلى وارثِ الـبرد
وراموا دمَ الإسلام لا من جهالةٍ ... ولا خطأً بل حاولوه على عمـد
فمجُّوا به سمًّا وصاباً ولو نأت ... سيوفُك عنهم كان أحلى من الشهد
ضممت إلى قحطانَ عدنان كلَّها ... ولم يجدوا إذ ذاك من ذاك من بد
فأضحت بك الأحياءُ أجمعَ أُلفةً ... كما أحكمت في النَّظْم واسطةُ العِقد

---

(١) أنظر كتابه « أبو تمام . وحياته وحياة شعر » ص١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الديوان حـ٢ ص ١١٨ .

ولعل ما زاد عبد الله بن طاهر حنقا على أبى تمام أنه لمح فى قصيدته إلى ما كان من أبيه طاهر حين خلع الخليفة المأمون سنة ٢٧٠هـ بترك الدعاء له على المنبر[١] . فرأى عبدالله فى شعره شيئا من السعاية الخبيثة به ، وربما شعر أيضا بأنه وغدالقوم الذى عناه أبو تمام ، أو على الأقل هو أحد أولئك الأوغاد العبيد الذين ندد بهم وبعدائهم للعرب وللإسلام ، وإذا كان عبدالله قد كظم الغيظ فى نفسه ولم يصرح بأحاسيسه ، وتظاهر بتجاهل ذلك الأمر ، فانه لم ينس لأبى تمام تعصبه للعرب وازدراءه للفرس . وهذا هو السبب الذى دفعه إلى أن يطلب منه مدح الأفشين . إذلالا لنعرته وعنجهيته العربية .

ونعود إلى قصيدة أبى تمام فى مدح الأفشين فنجدها فى الواقع جامعة بين مدح المعتصم والأفشين معا ، إذ يبدؤها مصورا ما عم الدولة من أمن واستقرار وفرحة وابتهاج ، فساحتها ومنازل أهليها غدت عامرة بالحياة والعمل ، ورياضها حافلة بالنبت والأزاهير ، ومناهلها زاخرة بعذب المياه ، التى تحمل سر الحياة ، ويتمثل فيها رغد العيش ، وطيب الخيرات ، إنه عهد الخليفة المعتصم بالله الذى حباه الله بذلك الفضل الغامر ، وجعله معتصما وموئلا لكل من يطلب الأمن والحماية وخصه بالفضائل الجمة من البأس والحزم والتقى والجود ، فعمت عطاياه كل سائل ، وغمرت آفاق الأرض كالسحاب الهاطل ، وتجلت آيات مروءته فى نجدة كل منكوب ، وإقالة كل عاثر .

عدا المُلكُ معمورَ الحَرا والمنازلِ   مُنَوَّرَ وَحْفِ الأرض عذبَ المناهل[٢]

---

(١) أنظر الخبر فى الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٠٧ هـ

(٢) الحرا : الساحة ويروى « معمور الحمى » . الوصف : الملتف من النبات

بمعتصم بالله أصبح ملجـــأً ... ومعتصماً حرْزاً لكلّ مُوائل[1]

لقد ألبس الله الإمامَ فضائلاً ... وتابعَ فيها بالُّلهَى والفواضل[2]

فأضحت عطاياهُ نوازعَ شُرَّداً ... تُسائلُ في الآفاقِ عن كل سائل

مواهبُ جُدْنَ الأرضَ حتى كأنما ... أخذنَ بآداب السَّحاب المواطل

إذا كان فخراً للممدَّح وصفُه ... بيوم عقاب أو ندىً منه هامل

فكم لحظةٍ أهديتها لابن نكبةٍ ... فأصبح منها ذا عقابٍ ونائل

ويبدو أن أبا تمام قد تنبه إلى مقصد عبد الله بن طاهر حين طلب منه مدح الأفشين، وعرف بذكائه اللماح أنه أراد إخضاع عروبته التي يعتز بها، وإذلال لسان تعصبه لمدح الأعاجم، فلم يحقق له هدفه المنشود، ولم يجعل قصيدته وقفا على مدح ذلك القائد الأعجمي، فقدم عليه مدح الخليفة العربي، وكأنما أراد بذلك أن يقول لابن طاهر: إن السلطة العليا في يد العرب وإن الأعجمي مهما بلغ من مراتب المجد، ومهما أحرز من ظفر وانتصار، فهو عامل للسيادة العربية وخاضع لخلافتها الإسلامية. وتلك الحقيقة القائمة التي لا يستطيع ابن طاهر إنكارها. ولا يجرؤ على التفوه برفضها أو معارضتها.

وينتقل أبو تمام بعد ذلك إلى مديح الأفشين وهو مرتاح النفس، مطمئن إلى أن مديحه صادر من موقع القوة والعزة، لا من موقع الذلة والخضوع، كما أراد ابن طاهر، وهو إذ يشهد للأفشين بالبطولة الحقة في خوض غمار الحرب، يتوخى أن يقدم هذه الشهادة إلى أمير المؤمنين، إمعانا منه في تأكيد السيادة العربية، ثم

---

(١) الموائل: الملتجىء.

(٢) اللهى: العطايا.

يقرن شهادته بأنها مصدقة من الكثيرين فى المحافل المختلفة ، كأنما هى إقرار بصلاحية هذا القائد لخدمة الخلافة ودحر المناوئين لها .

شهدتُ أمير المؤمنين شهادةً　　كثيرٌ ذوو تصديقها فى المحافـــــل

ويصف بطولة الأفشين فيصوره فى قلب المعركة لابساقسطال وغاها ، ملتحفا غبار وطيسها ، مصطليا لظى نارها ، مقتحما لهيب أوارها . كأنه المحسن الذى يقلب جمرلتها ويذكى ضرامها بنصل سيفه الذى يطيح رءوس الأعداء ، فهو يباشر الحرب بنفسه ولا يوكل أمرها إلى أحد من رجاله أو قواده ، تدفعه عزائمه الجبارة بين صفوف الخيل ومشتجر الأسنة ، وتدعمه آراؤه الصائبة القاطعة كحد المناصل ، حتى إن بابك لم يجد فى خطته المحكمة منفذا إلى خطأ بتصيده ليأتيه من خلاله ، فيوقع به كما أوقع بكثير من القواد قبله ، ولم يرمن تلك الخطة سوى عواقبها الوخيمة التى حاقت به فمزقت رجاله أشلاء ، وفصلت أعناقهم فصلا ، وأوردتهم الهلاك ، وفتكت بهم فتكا ذريعا :

لقد لبس الأفشينُ قسطلةَ الوغى　　مِحَشًّا بنصل السيف غيرَ مُـوا كل[1]
وسارت به بين القبائلِ والقنـا　　عزائمُ كانت كالقنا والقنابل[2]
وجَـرَّدَ من آرائه حين أضْـرِمت　　به الحربُ حَدّاً مثلَ حدِّ المناصل

---

(١) القسطل : الغبار ويقال فيه قسطلة كما يقال فى العجاج عجاجة ، ويجوز أن يكون القسطل جمع قسطلة . المحش : ما تحرك به النار من الحديد ، ومنه قيل للرجل الشجاع : نعم محش الكتيبة .

(٢) قنابل : جمع قنبلة وهى القطعة من الخيل .

رأى بابكٌ منه التي لاشَوَى لها فَعُرِّجَ سوى نَزْعِ الشَّوَى والمفاصل(١)

ويعاود الحديث عن شجاعة الأفشين وإقدامه فيجعله أول راكب إلى الهيجاء، وأول نازل تحت صبير الموت، على الرغم من مركزه القيادى الذى يفرض عليه التأخر لمباشرة مجريات الأمور ومتابعة أحداث المعركة، لتنفيذ جوانب الخطة، فنزوله إلى المعركة بهذه الصورة يعنى ثقته الكاملة فى مقدرته على الجمع بين واجبه القيادى وتميزه البطولى، أو كأنه يرى من واجباته القيادية أن يكون مثلا يحتذى لجنوده فى الجرأة والجسارة والإقدام. وتكتمل له صفات القائد البطل بما تميز به من الصبر والمصابرة، فيصوره أبو تمام وقد لبس الصبر سربالا لا يخلع، ثم ارتدى عليه سيفه العضب البتار:

تراه إلى الهيجاء أولَ راكبٍ وتحت صَبيرِ الموت أولَ نازل(٢)
تَسَربَلَ سِرباَلاً من الصَّبرِ وارتدى عليه بعَضْبٍ فى الكريهةِ قاصِلِ

ويسوق أبو تمام شاهدا من شواهد الثقة الكاملة فى النصر، وصورة من صور الاعتداد بالقوة التى لا تقهر، مستلهما معانى الشعراء السابقين عليه، ليضفى على الأفشين وجيشه تلك الصفات المهيبة فيقول:

وقد ظُلِّلَت عقبانُ أعلامِه ضُحىً بعقبان طيرٍ فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها من الجيش إلا أنها لم تقاتل

---

(١) لاشوى لها: لا إخطاء لها، والشوى: اليدان والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل.

(٢) صبير: سحاب فيه سواد وبياض، وقيل هو التراكم.

لقد تناول الشعراء هذا المعنى[١] ، وتناقلوه بعضهم عن بعض منذ ابتكره الشاعر الجاهلي القديم الأفوه الأودى فى قوله :

فترى الطيرَ على آثارنا رأىَ عين ثقةً أن ستُمار[٢]

ثم أخذه النابغة الذبيانى فزاده إحساناً وصاغه صياغة بديعة فى قوله :

إذا ماغزا بالجيش حلّقَ فوقه عصائبُ طير تهتدى بعصائب

جوانحَ قد أيقنّ أن قبيلَه إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب

وتتابع الشعراء فى تكرار هذا المعنى . ومنهم أبو نواس فى قوله :

تتأيا الطير غدْوته ثقةً بالشبع من جَزره[٣]

ومنهم مسلم بن الوليد فى قوله :

قد عوّدَ الطير عاداتٍ وثقْنَ بها فهن يتبعْنَه فى كل مُرتَحَلِ

وإذا كان كثير من النقاد يرجعون الفضل فى هذا المعنى إلى النابغة على الرغم من أنه مسبوق إليه كما أن كثيرا من الشعراء قد تناولوه قبل أبى تمام ، فإن ذلك لم يمنعه

---

(١) أنظر أقوال الشعراء فى هذا المعنى ، وما دار حولها من نقد ، فى كتب: الموازنة ص٢٦ ودلائل الاعجاز ص ٣٨٤ وهبة الأيام ص١٨٨ والصناعتين ص ١٧٠ وأخبار أبى تمام ص١٦٤ ، ومعاهد التنصيص ح٢ ص١٤٥ ، وزهر الآداب ح٤ ص١٣٤ .

(٢) مار عاليه يمير ميرا وأمارهم وأمتارهم أى جلب لهم الطعام .

(٣) تأيى الشيء : تعمد آيته أى شخصه ، ويقال تآييته وتأييته إذ تعمدت آيته أى شخصه وقصدته (اللسان)

أن يدلى معهم بدلوه ويعيد معالجته ، ليظهر مقدرته الفنية فى إخراجه بصورة جديدة تتسم بطابعه الفنى ، إذ شبه بنود الجيش وراياته بالعقبان ، ثم قابل بين هذه الصورة الحقيقية المتمثلة فى عقبان الطير نفسها التى جعلها محلقة فوق الجيش ، وهذه المقابلة سمة من سمات مذهبه الفنى فى رصد نوافر الأضداد . كما أنه صور عقبان الطير مظللة لعقبان الأعلام أو الرايات ، وملازمة للجيش فى مسيرته كأنها جزء منه ، ثم استدرك مستثنيا إياها من المشاركة فى القتال ، وتلك إضافة جديدة زادها أبو تمام على ذلك المعنى المتوارث ، ليثبت أصالته فى فنه ، وليؤكد مقدرته على الابتكار والتجديد فى المعانى القديمة ، وتجاوز الحدود التى رسمها السابقون لهذا المعنى . فهو ليس بمجرد ناقل مقلد ، يسرق المعنى القديم ليعيد صياغته بألفاظ مغايرة كما يفعل غيره . وإنما هو شاعر ذو موهبة فذة تفتح له مجالات الخلق والإبداع .

ويواصل أبو تمام وصفه للمعركة وما انتهت إليه من هزيمة ساحقة للخرمية وقائدهم بابك ، إذ رأوا فى الأفشين ليثاً كريه اللقاء ، بعث الرعب فى قلوب أبطالهم وحماتهم ، ورأوا رماح جنده تقطر وابلا من دمائهم تفرق جمعهم خوفا وهلعا ، وصد قائدهم بابك عن القتال صدود الكاره له جبنا وجزعا لما رأى من شدة الفتك برجاله ، وليس صدود المجامله الراغب فى المسالمة وحقن الدماء . إنه انحدر بأصحابه من معاقله فى الجبال إلى هذا المكان بغية الاستيلاء على قافلة المال التى كانت برفقة بغاء كما عرفنا من تفاصيل معركة « أرشق » فى كتب التاريخ ، ولكنه لم يكن يتوقع أنه سيلتقى فى ساحة قتال بالأفشين الحذر المتيقظ لخطته الماكرة . فكان مثله كمثل البقرة الوحشية التى ألقى بها رداها فى يد قانصها قبل أن ينصب لها حبائله وشباكه .

فلما رآه الخرميون والقنا بوبل أعاليه مغيث الأسافل
رأوا منه ليثاً فاذعرت حماتهم وقد حكمت فيه حماة العوامل[1]

---

(١) اذعرت : افترقت حماة العوامل : يحتمل وجهين ، إما أن تكون جمع حام أو تكون جمع حمة وهى السم وسورته وعلى هذا النحو تكتب بالتاء المفتوحة كما رواها الخارزنجى .

عشية صدّ من البابكيّ عن القنا   صدودَ المُعالى لاصدودَ المجامل
تَحدّرَ من لِهبيِه يرجو غنيمةً   بساحةِ لا الوانى ولا المتخاذل(١)
فكان كشاةِ الرّمل قَيّضه الرّدَى   لقانصه من قهل نصْب الحبائل(٢)

وقد أحرز الأفشين هذا النصر المبين على بابك فى الأيام الأخيرة من شهر ذى الحجة لسنة ٢٢٠ هـ كما ذكرت مصادر التاريخ(٣)، وقد كادت تلك السنة أن تنصرم دون أمل يرجى أو يتوقع فى هزيمة بابك، ولم يكن أحد ينتظر فرج النصر إلا فى السنة المقبلة، لأن الأفشين لم يكن مضى على وصوله إلى تلك المنطقة إلا أيام قليلة، فكانت دهشة الناس كبيرة لإيقاعه الهزيمة ببابك فى فترة قصيرة وبسرعة خاطفة، ويسجل أبو تمام هذه الفكرة راسما لها صورة فنية دقيقة، مستمدا عناصرها من التراث العربى القديم، فيشبه تلك السنة بالناقة الكبيرة المسنة التى يئس من حملها وولادتها، بل عد ذلك من المحال، ولكن الله يسر لها ذلك بمشيئته وقدرته فحملت وولدت وليدها بعد مشقة وعسر، لانقطاعها عن الولادة عددا من السنين، وتلك آية من آيات الله فى خلقه يقف الانسان أمامها مذهولا متعجبا. وكذلك كانت تلك السنة ميئوسا منها أو من إمكان إحراز نصر فيها، ولكن مشيئة الله يسرت لها بالنصر كما يسرت للناقة بالولادة، وكانت آية من آيات الله فى نصرة المؤمنين كما كانت ولادة الناقة آية من آياته فى الخلق.

وفى سنة قد أنفذَ الدهر عُظْمَها   فلم يُرجَ منها مَفْرجٌ دونَ قابل

---

(١) اللهب: طريق ضيق فى الجبل، وقيل هو ما استقبلك من حائطه.

(٢) شاة الرمل: البقرة الوحشية.

(٣) أنظر وقعة أرشق فى الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢٢٠ هـ.

فكانت كنابِ شارفِ السِّنِّ طَرَّقت بسَقْبٍ وكانت فى مَخيلةِ حائلِ[1]

وقد عرفنا أن بابك ولى هاربا يلتمس النجاة بنفسه بعد هزيمته فى « أرشق » وبعد أن فتك جيش الأفشين برجاله فتكا ذريعا ، وهذا ما سجله أبو تمام فى تلك القصيدة ، وإن لم يلتزم بالتفاصيل التى أوردتها مصادر التاريخ ، والتى ذكرت أن بابك نجا بنفسه ومعه جماعة من رجاله حتى دخل « موقان » ثم ارتحل بعد أيام إلى « البذ » ويكتفى أبو تمام بذكر المعنى العام ، من أنه ولى عائذا بأطراف المعاقل فى الجبال ، معتصما بها من الخطر المحدق به ، ناسيا أن قدرة الله فوق كل شىء ، لا تعوقها عوائق ولا تعصمه منها معاقل ، وأنه إذا كان قد أفلت من الهلاك المحقق، فإن أصحابه لم يفلت منهم سوى قلة قليلة أخطأتها الرماح أو لم تصب منها مقتلا . وعلى أية حال فإن ذلك الحقير المجهول الأب قد كشفته تلك الهزيمة كشفا أزاح دجى الجبروت الذى كان يحجبه ، وعرت جوانب ضعفه التى كانت خافية ، حتى أمست مقاتله مضيئة يسهل طعنها ، ويسترشد من يريد قتله بضوئها ليقضى عليه دون عناء :

وعاذَ بأطرافِ المعاقل مُعْصِماً وأُنْسِيَ أن اللهَ فوق المعاقل
فولَّى وما أبقى الرَّدَى من حماته له غير أسآرِ الرماح القَواتل[2]
أما وأبيه وهْو من لا أباً له يُعَدُّ لقد أمسى مضىء المقاتل

ويختم أبو تمام قصيدته مشيدا بهذا الفتح المبين الذى تفتحت له أزاهير الروابى، وأزهرت به ورود الخمائل ، واكتست الأرض منها بأبهى حللها فرحة وابتهاجا

---

(١) الناب شارف السن : الناقة الكبيرة المسنة . طرقت : ضاق مخرج ولدها فى ولادته . سقب : ولد الناقة أو ساعة يولد .

(٢) أسآر الرماح : بقاياها أو بقايا أخطأتها الرماح فلم تمتها .

بانتصار جيش أمير المؤمنين . وما هذا النصر إلا حلقة فى سلسلة الانتصارات التى سجلها التاريخ لعصبة الحق على عصبة الباطل ، والتى سيظل امتدادها على مدى الزمن ، فلم يعد أمام الضالين المنحرفين عن الحق إلا سبيل الايمان بالله ورسوله وكتابه ، ومن لا يتبع هذا السبيل فلا منجاة له من حكم السيف وضرب الرقاب ، وفى القرآن الكريم شفاء لكل داء ، ودواء لكل عالم أضله علمه ، كما أن فى السيف دواء لداء كل جاهل أعماه جهله ، فليفق كل غافل من غفلته ، وليصح كل نائم من غفوته ، ليرى نور الهداية ويسلك سبيلها ، فيسلم وينعم ويغنم ، ومن يظل سادرا فى غيه متخبطا فى عمياء ضلالته ، فإن السيف لن يغفل عنه ، ولن يتركه طليقا يفسد فى الأرض ، وما حدث لبابك وعصابته إنما هو تأكيد لهذه الحقائق، وفيه عبرة لكل من يريد أن يعتبر .

فتوحُ أمير المؤمنين تفتَّحتْ لهنَّ أزاهيرُ الرُّبا والخمائلِ
وعاداتُ نصرٍ لم تزلْ تستعيدُها عصابةُ حقٍّ فى عصابة باطل
وماهو إلا الوحيُ أوحدُّ مُرهَفٍ تُميل ظُباهُ أخْدَعَيْ كلِّ مائل
فهذا دواءُ الداءِ من كل عالِم وهذا دواء الداءِ من كلِّ جاهل
فيا أيها النُّوَّامُ عن ريّقِ الهدى وقد جادَكمْ من ديمةٍ بعد وابل
هو الحق إن تستيقظوا فيه تغنموا وإن تغفلوا فالسيفُ ليس بغافل

ومن الواضح أن أبا تمام فى ختام القصيدة نسب هذا الفتح إلى أمير المؤمنين، مؤكدا بذلك نزعته العربية التى صدر عنها فى بداية القصيدة ، كأنما أراد أن يبين لابن طاهر فضل العروبة وتقدمها على كل ماعداها من القوميات ، وأن الأفشين ليس إلا قائدا من قواد الخليفة العربى ، وسيفا من سيوفه يشهره على أعدائه بأمره وإرادته ، وما يحرزه ذلك القائد من الغلبة والنصر ، لا يعنى أنه صاحب الفضل فيه ، وإنما مرجع الفضل إلى من أمره وأمده بالجند والمال والعتاد والسلاح ، ليحقق هدف الخلافة العربية ويعلى شأن دينها الاسلامى .

ونلاحظ أن أبا تمام لم يذكر فى القصيدة اسم موقعة « أرشق » التى دار حديثه عنها وعن أحداثها ، ولم يذكر كذلك اسما لأى موضع أو مكان فى منطقة أذربيجان على نحو ما نراه فى قصائده الأخرى وهذا من شأنه أن يحدث لبسا فى تحديد المناسبة التى قيلت فيها القصيدة وفى الربط بينها وبين وقائع التاريخ ، فمن الممكن أن تفسر أحداث هزيمة الخرمية وفرار قائدهم بابك على أنها أحداث موقعة « البذ » الأخيرة التى فر بابك بعدها ، وبالأخص إذا افتقد الباحث المعرفة الدقيقة لأحداث تلك الوقائع فى التاريخ ، ولم يطابق بين مجرياتها وبين المعانى الشعرية التى تناولها أبو تمام فى قصيدته . وهذا ما وقع فيه الدكتور عبد المحسن سلام[1] ، إذ حسب أن القصيدة قيلت سنة الفتح بعد أن قرر الأفشين خوض المعركة الأخيرة ، كما وصف حديث أبى تمام عن المعركة وعن بابك وأصحابه بأنه كلام عام ، ولم يستطع الربط بينه وبين أحداث موقعة « أرشق » .

وإذا كان الصولى قد أوضح الظروف التى قيلت فيها هذه القصيدة ، حين كان أبو تمام بنيسابور عند عبد الله بن طاهر ، فإنه بذلك قد ساعد كثيرا على إزالة اللبس فى ربطها بوقائع التاريخ . كما سهل على الباحث تحليلها وفهم العوامل النفسية التى كانت تسيطر على أبى تمام وقت نظمها . ويروى الصولى خبرا آخر له صلة بهذه القصيدة ، وهو أن خالد بن يزيد استنشدها أبا تمام ، فلما أنشدها قال له خالد : كم أخذت بهذه القصيدة ؟ قال : ما لم يرو الغلة ولم يسد الخلة . قال فإنى أثيبك عنها ، قال ولم ذاك وأنا أبلغ الأمل بمدحك؟ قال: لأنى آليت لا أسمع شعرا حسنا مدح به رجل فقصر عن الحق فيه إلا نبت عنه »[2] وهذا الخبر يسوقنا إلى التساؤل عن

---

(١) أنظر كتابه : الثورة البابكية ص ١٢٩ .

(٢) أخبار أبى تمام ص ١٦٣ :

الرجل الذى يقصده خالد بن يزيد بالتقصير ، أهو الأفشين أم المعتصم ؟ وهل أنشد أبو تمام قصيدته هذه لأى منهما بعد مغادرته خراسان ؟ وجواب أبى تمام على سؤال خالد لا يوضح شيئا من هذه التساؤلات ، وإن كان يرجح صحة الخبر الذى ذكره الصولى عن مناسبة نظمها ، إذ أنها فقدت حرارة المواجهة الأولى بين الشاعر والممدوح ، والتى يكون لها أثرها البين فى إجزال العطاء . وعلى أية حال فإن أهميتها بالنسبة لنا تتركز فى كونها إحدى حماسيات أبى تمام فى الحرب البابكية .

* * *

وينظم أبو تمام ثالث قصائده الحماسية فى الاشادة بهذا الفتح المبين لينشدها الخليفة المتصم ، ويبدو أنه نظمها متأنيا متأملا ، بعد قصيدته النونية التى عجل بها للإسهام فى احتفالات النصر ، فلم تحقق له تفوقه الذى يبغيه ، وأحس بأن هذا الحدث التاريخى العظيم أكبر من كل قصيد ، وأجدر بأن يخلده الشعر تخليدا يليق بعظمته ، وأنه شاعر عصره الذى يحمل لواء القيادة فى فنه ، والذى ينبغى أن يكون دوره القيادى فى مستوى المجد الحربى سموا وشرفا . ولهذا جاءت قصيدته ملحمة رائعة سجل فيها أحداث تلك الحرب وملابساتها تسجيلا دقيقا وألبسها ثيابا باهرة من فنه الرفيع وحسه الصادق .

ويبدأ قصيدته دون ما مقدمة تقليدية - كما فعل فى سابقتيها — فيدخل فى موضوعها الحماسى دخولا مباشرا ، معلنا ما آلت إليه أمور الشرك ، وماصارت إليه دعادى الكفر التى نادى بها الخرمية ، من سوء المصير وشر المآل ، بعد أن صالت وجالت باغية طاغية . يقول[١] :

---

(١) الديوان حـ٣ ص١٣٢ .

آلت أمورُ الشِّرْكِ شرَّ مآلِ   وأقرَّ بعد تخمُّطٍ وصيالِ

ثم يعود إلى أوائل الأحداث منذ عزم الخليفة المعتصم عزما قاطعا على ضرب هذه الحركة والقضاء عليها مهما كلفه ذلك الأمر من تضحية ترخص فيها الأرواح وتبذل فيها المهجات :

غضبَ الخليفةُ للخلافةِ غضبةً   رَخُصَتْ لها المُهجَاتُ وهْيَ غَوالى

لما انْتَضَى جهلَ السيوفِ لبابكٍ   أغمَدْنَ عنه جَهالةَ الجُهَّالِ

لقد انتضى جهل السيوف التى أغمدت جهالة الكفر وأخمدت ثورة بابك وأتباعه الجهال ، وأعادت بلاد آذربيجان إلى حياة الأمن ونعيم الاستقرار ، بعد أن كانت حلبة حرب . ونكال ومآس شوهت وجهها الجميل ، وأظهرتها فى أقبح صورة تناقض ما حباها الله به من نضرة وجمال ، فقد حررها المعتصم من ظلم بابك ، وأطلقها من قيود بغيه وإرهابه :

فلأَذْربيجان اختيالٌ بعدَما   كانت مُعَرَّسَ عَبْرةٍ ونَكالِ

سَمُجَتْ ونَبَّهنا على استسماجها   ما حولها من نَضْرةٍ وجمالِ

وكذاك لم تُفْرِطْ كآبةُ عاطلٍ   حتى يجاورَها الزمانُ بحالى

أطلقْتَها من كيـــــدِهِ وكأنما   كانت به معقولةً بعِقالِ

وإلى هنا مايزال أبو تمام يدور فى إطار الحديث العام الذى تختلط فيه المقدمات بالنتائج والذى يعطى صورة مجملة لما حدث ، ولعله يقصد به تقديما لموضوعه من صلب مادته ، وبديلا من المقدمة التقليدية التى عادة ما تكون بعيدة عن طبيعة الموضوع ، منفصلة عنه انفصالا بينا . ثم بعد هذا التقديم الممهد يتناول حركة بابك — لا من بدايتها الأولى — ولكن منذ بلغت أوج قوتها وعنفوانها ، مصورا ما كان له من رهبة فى النفوس وما أثاره من رعب فى القلوب ، وما أحدثه من جرائم منكرة ، فيقول :

خَرِقٌ من الأيامِ مدَّ بضبعه صُعُداً وأعطاهُ بغير سؤال
خافَ العزيزُ به الذليلَ وغُودِرَتْ نَهِماتُ نجد سُجَّداً للضال
قد أُرعِتْ منه الجوانحُ رهبةً بطَلَتْ لديها سَوْرَةُ الأبطال
لو لم يزاحفهم لزاحفهم له ما فى صدورهمُ من الأوجال
بحرٌ من المكروه عبَّ عُبابُه ولقد بدا وشَلاً من الأوشال[1]
جفَّتْ به النِّعَمُ النواعمُ وانثنتْ سُرُجُ الهُدَى فيه بغير ذُبال
وأباحَ نصلَ السيفِ كلَّ مرشَّحٍ لم يحمَرِرْ دمُهُ من الأطفال[2]
ما حلَّ فى الدنيا فُوَاقَ بكيئةٍ حتى دعاه السيفُ بالترحال
رُعْباً أراه أنه لم يقتل الآسادَ من أبقى على الأشبـــال
لو عاينَ الدجَّالُ بعض فعاله لانهلَّ دمعُ الأعور الدجَّال

فهو يشير إلى ما ذكرته المصادر عن دناءة أصل بابك وخبث منبته، والظروف التى هيأت له الوصول إلى زعامة الخرمية وقيادة حركتهم الهدامة ، مستنكرا غير الزمن وتقلبات الأيام التى صعدته إلى هذه المكانة دون أن يكون أهلا لها ، ودون أن يطلبها . ثم يصور ما أحدثه من اضطرابات قلبت موازين الأمور ، وصيرت أعزة الناس فى خوف وهلع من بطش السفلة أتباعه . ممثلا لذلك بانكسار أشجار النبع القوية الصلبة سجدا أمام أشجار الضال من السدر الضعيفة الهشة ولعله يضمن

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره .

(٢) كل مرشح ، أى قد ابتدأ شبابه ولم يحمرر دمه بعد لطفولته ، ورواية المرزوقى (كل ممهد) : أى صبى فى المهد لم يتغير دمه من الصفرة إلى الحمرة ، حسب الفكرة الشائعة لديهم فى عصرهم .

هذا المعنى ما كان من هزائم متلاحقة لقواد الدولة أمامه وقتله لبعضهم كما سبق أن عرفنا ، إذ يكتفى بالتلميح دون التصريح الذى لا يليق فى مثل هذا الجو المشبع بفخار الظفر . ويصور رعب الناس منه وقد بلغ مبلغا عظيما ، حتى أترعت جوانحهم رهبة من بطشه وجبروته ، بل إن الأبطال منهم أصبحوا بلا حول ولا قوة ، وبطلت سورتهم وسطوتهم تحت وطأة الهلع الذى حل فى قلوبهم ببحر خضم متلاطم الأمواج عبابه المكاره والأهوال وإن كانت حقيقته أشبه بوشل قليل من الماء . وإذا تصورنا الرعب بحرا من المكروه فهل نتوقع أن يكون لهرى ونفع للحياة ؟ لا بطبيعة الحال، بل لابد وأن تكون له آثاره الضارة ، وهى الجفاف والجدب، جفاف النعم وجدب الخيرات ، ثم انطفاء أنوار الهدى وسرج الحق لتتم ظلمات الضلالة وغياهب الكفر. ومن جرائم بابك الوحشية التى تتنافى مع أبسط معانى الإنسانية والرحمة أنه أباح قتل الأطفال الصغار الذين لم تتلون دماؤهم بعد بالحمرة المعهودة فى دماء الشباب والرجال ، بل انه لم يتورع أن يسفك دم الصبى فى المهد ، الذى لم يكد يحل فى الدنيا سوى ساعات قليلة ، قدر ما بين حلبة وأخرى لناقة قليلة اللبن ، وكأنما يدعوه سيفه الى التعجل بالرحيل عنها . ويفسر أبو تمام ارتكاب هذا العمل الوحشى بأن خوف بابك من عواقب قتله لرجال المسلمين وأبطالهم وتوقعه أن يشب أطفالهم فيأخذوا بثأر آبائهم ، جعله يعتقد أن قتل الرجال لا جدوى منه ولا مأمن من عواقبه إذا لم يتبعه بقتل الأطفال . ومهما يكن تفسير هذا الجرم الفظيع فإنه لا شك أقصى درجات الوحشية والقسوة والجبروت ، التى تصغر أمامها فعال الأعور الدجال وهو المسيح الدجال الذى يقال أنه سيأتى فى آخر الزمان فيملأ الأرض جورا وفسادا، كما تذكر الاسرائيليات أو كما تردد الأقاصيص الشعبية ، بل إن هذا الدجال لو رأى بعض فعال بابك وعاين شناعتها لانهمرت دموعه شفقة ورحمة ، وواضح أن أبا تمام قد استفاد من هذه الأسطورة فى تأكيد المعنى الذى يقصده وتصوير وحشية بابك تصويرا يثير الاستنكار الشديد ويعمق مشاعر الكراهية له .

ويتابع أبو تمام تطور الأحداث بما كان من عزم المعتصم على قتاله وعقده لواء حربه لقائده المظفر الأفشين فيقول :

أعطى أميرُ المؤمنينَ سيوفَه   فيه الرضـا وحكومةُ المُقْتال(١)

مستيقناً أن سوفَ يمحو قتلهُ   ما كان من سَهْوٍ ومن إغْفال

مثلْ الصلاة إذا أقيمت أصلحَت   ما قبلهَا من سائِرِ الأعمال

فرماهُ بالأفشين بالنَّجم الذى   صَدَعَ الدُّجَى صَدْعَ الرِّداء البالى

لاقاهُ بالكاوى المنيفِ بدائه   لمَّا رآهُ لم يُفقْ بالطِّالى

إن أبا تمام يريد أن يبرر استفحال أمر بابك واستشراء نفوذه وبطشه إلى هذه الدرجة التى صورها ، بأنه كان نتيجة سهو الدولة وإغفالها لشأنه ، ولعله يقصد بذلك أنها لم تعد له الإعداد الكافى ، ولم تجابهه بالقوة الكفيلة بالقضاء عليه ، حتى جاء المعتصم وصمم على إخماد ثورته وقتله ليمحو ذنب هذا السهو والإغفال ، كما تمحو الصلاة ما قبلها من أخطاء مؤديها ، والمعروف أن الصلاة تمحو صغار الذنوب دون كبائرها ، وهذا يعنى أن أبا تمام يريد تهوين ما كان ذلك الخطأ فى السهو عن بابك ، وتلك لباقة منه يستدعيها الموقف ، كما أن الصلاة تطهير وقربى من الله ، فكذلك قتل المفسدين أمثال بابك . فالمعتصم أراد بقتله رضا الله وتطهير الأرض من رجسه ، ومن ثم ألزم قواده وجنده ، وأقتال عليهم أن ينفذوا أوامره بالقضاء عليه ، وكان اختياره الأفشين لحربه دليلا قويا على إصراره وصدق عزيمته فى إنهاء ذلك الأمر ولقد رماه به كما ترمى شياطين الجن بالشهب لتحرقها حرقا . وكان ذلك هو العلاج

---

(١) المقتال : المحتكم يقال اقتال عليهم إذا قال : أريد أن تفعلوا ، كأنه يحتكم عليهم فى القول .

الحاسم لدائه العضال كما يقول المثل السائر «آخر الدواء الكى» فإن الأفشين هو آخر دواء له وهو الكاوى العنيف الذى سيبرأ به الداء، بعد أن فشلت مداواته بالطــــلاء.

وكانت الضربة الأولى التى تلقاها بابك فى يوم أرشق، والتى أنزلها به الأفشين وأبو سعيد كما عرفنا من سياق أحداث التاريخ، وفيها يقول أبو تمام:

يا يومَ أرشقَ كنتَ رَشْقَ مَنيةٍ ... للخُرَّميةِ صائبَ الآجالِ[1]
أسْرَى بنو الإسلام فيه وأدْلجوا ... بقلوب أسْدٍ فى صدور رجالِ
قد شمَّروا عن سُوقهمْ فى ساعةٍ ... أمرتْ إزارَ الحربِ بالإسْبالِ
وكذلك ما تَنْجَحِرُ أذيالُ الوغى ... إلا غــــداةَ تشمُّرِ الأذيالِ
لما رآهُمْ بابكٌ دون المُنى ... هَجرَ الغَوايَةَ بعد طُولِ وصالِ
تَخِذَ الفرارَ أخاً وأيقنَ أنه ... صِـــدِّيقُ عزمٍ من أبى سَمَّالِ
قد كان حَزْنُ الخَطْبِ فى أحزانه ... فدعاهُ داعِى الحَيْنِ للإسهالِ
لبستْ له خُدَعُ الحروبِ زخارفاً ... فَرَّقْنَ بين الهَضْبِ والأوْعالِ

لقد ذكر أبو تمام وقعة «أرشق» من قبل فى قصيدته الأولى التى مدح بها الأفشين، فهل نتوقع منه أن يأتى بجديد حين يعيد ذكرها هنا؟ إنه لا شك ملتزم

---

(١) يعلق الدكتور زكى المحاسنى على يوم أرشق بقوله «كانت أرشق مكانا جرت فيه الوقعة الأخيرة بين الأفشين وبابك» أنظر كتابه شعر الحرب فى أدب العرب ص١٤٨ ط دار الفكر العربى. وهذا التعليق يدل على أنه لم يتحر الدقة فى الحديث عن هذه الوقعة، التى كانت الأولى فى ترتيب الدفاع بين الأفشين وبابك، ولم تكن الأخيرة كما ذكر، ولهذا الخطأ أثره الواضح فى فهمه للأحداث التى تتضمنها أبيات أبى تمام.

بأحداثها التى وقعت ، من هزيمة ساحقة لبابك ، ومن فراره موليا بعدها ، وهذان هما العنصران المشتركان اللذان يبنى عليهما حديثه هنا وهناك . ولكن حديثه يختلف بين القصيدتين اختلافا كبيرا من حيث التناول والتصوير ، وابتكار المعانى والأفكار ، وهذا هو الجديد الذى يستطيع أبو تمام أن يأتى به دائما ، والذى يمتاحه من معين لا ينضب ، ويملك المقدرة الفنية الفائقة على صوغه وتشكيله ، فنراه يبـــدأ بكلمة « أرشق » ليستخرج من مادتها اللغوية معنى جديدا . والرشق فى اللغة بمعنى الرمى بالنبل وغيره[1] . فيقول إن يوم أرشق منية للخرمية يصيب مقاتلهم وينهى آجالهم. ثم يعود إلى أحداث المعركة منذ دبر الأفشين وأبو سعيد الخطة لمفاجأة بابك والإيقاع به ، وكانت الخطة تقتضى التحرك السريع الخفى[2] ، وليس أدل على هذا التخفى المقصود من الاسراء والادلاج فى الليل تسترا بظلامه وحتى لا يعلم بأمرهم بابك ، وهذا ما عناه أبو تمام فى قوله ، كما أن وصفه لهم بالشجاعة وأنهم يحملون فى صدورهم قلوب أسد ، هو وصف واقعى يتفق مع تحركهم فى الليل لضرب عدوهم، دون خشية من كائنه وعصاباته ، ثم يصف بسالتهم ساعة احتدام المعركة مستخدما طريقته فى الأضداد المتنافرة . فهم قد اشتدوا وجدوا فى التنكيل بعدوهم مشمرين عن سوقهم ، بينما أسبلت الحرب إزارها وجرجرت أذيالها ، إذ حمى وطيسها وغمر وغاها كل المقاتلين ، وهكذا تترتب الصورة الثانية على الصورة الأولى حسب الواقع فى منطق الأحداث . فلما رأى بابك استبسالهم وأيقن ألا أمل فى النصر الذى كان يتمناه ، هجر غوايته بعد أن طال وصاله معها ، وتغيرت حاله إلى الحال المضادة لها ، ولم يجد بدا من الفرار بل يصوره أبو تمام وقد اتخذ الفرار أخاله

---

(١) القاموس المحيط مادة رشق .

(٢) أنظر هذه الأحداث بالتفصيل فى الطبرى حوادث سنة ٢٢٠ هـ . وقد ذكرناها مختصرة من قبل .

وعونا للخلاص من تلك الشدة ، ثم يصف عزمه على الفرار ، فيدخل فى معناه حكاية شعبية عن أبى سمال الأسدى مؤادها « أنه ضلت ناقته فقال : أيمنك ان لم تردها على لاعبدتك ، فوجدها وقد نشب حبلها فى شجرة ، فقال : علم ربى أنها منى إصرى ويقال أصرى وصرى وصرى »[1] ومراد أبى تمام أن يصف فرار بابك بأنه كان عزيمة قاطعة لا رجعة فيها كعزيمة أبى سمال فى الحكاية المذكورة .

ويستفيد أبو تمام من معرفته بطبيعة المنطقة التى كان بها بابك ، إذ كان يتحصن بالجبال فيصعب النيل منه . ثم يستخدم أبو تمام طريقته فى العارية ليقول أن حزن الخطب كان بين حزونه أو أحزانه ، والحزن هنا بمعنى المكان المرتفع كما هو معروف ، فهو قد جعل للخطب حزنا على سبيل الاستعارة ليضمه إلى حزونه التى يتحصن بها ، وليكون من مميزات تفوقه على عدوه . وينتقل أبو تمام من هذا المعنى إلى ضده ليقول : إن داعى الحين أو الموت دعاه إلى النزول من معقله فى الحزن إلى السهل ، فانتقل بذلك من الأمان إلى الهلاك . ثم يربط أبو تمام بين نزوله من الجبل وبين الخدعة الحربية التى أوقعه فيها الأفشين ، فان تلك الخدعة هى التى زخرفت له وزينت ذلك الأمر . ليلقى تلك الهزيمة المنكرة فى يوم أرشق . وهكذا يأتى حديث أبى تمام عن ذلك اليوم أو تلك الوقعة وتصويره لأحداثها مختلفا تماما عن حديثه وتصويره فى القصيدة النونية السابقة .

ويتابع الأحداث بعد هربه من أرشق إلى موقان ثم خروجه منها وما سار إليه من سوء الحال بعد هزيمته فيقول :

---

(١) أنظر شرح التبريزى لديوان أبى تمام ج٢ ص١٣٦ والرواية فى اللسان « علم ربى أنها منى صرى » .

وَوَرَدْنَ مُوقَانًا عليه شَوَازِبًا ... شُعْثًا بشُعْثٍ كالقَطَا الأرْسالِ (١)

يَحْمِلْنَ كلَّ مُدَجَّجٍ سُمْرُ القَنَا ... بإها به أَوْلَى من السِّرْبالِ

خَلَطَ الشجاعةَ بالحياءِ فأصبحَا ... كالحُسْنِ شِيبَ لمُغْرَمٍ بدَلالِ

فنجا ولوْ يَثْقَفْنَهُ لتَرَكْنَهُ ... بالقاعِ غيرَ مُوَصَّلِ الأوصالِ

وانصاعَ عن موقانَ وهى لجُنْدِه ... وله أبٌ بَرٌّ وأمٌّ عِيالُ

كم أرضعتْه الرِّسْلُ لو أنَّ القنا ... تركَ الرَّضاعَ له بغير فِصالِ

هيهاتَ رُوِّعَ رَوْعَهُ بفوارسٍ ... فى الحرب لا كُشُفٍ ولا أمْيالِ

جعلوا القنا الدَّرَجاتِ للكَذَجاتِ ذا ... تِ الغِيلِ والحَرَجاتِ والأدْحالِ (١)

فأولاكهم قد أصبحوا وشُرُوبُهُم ... يَتَنَادَمُون كئوسَ سوءِ الحالِ

ماطالَ بَغْىٌ قطُّ إلاّ غادرَتْ ... غُلَوَاؤُه الأعمارَ غيرَ طِوالِ

فهو يصف خيل المسلمين الضوامر وقد وردت « موقان » على بابك كأنها أسراب القطا وعليها فرسانهم الأبطال الشعث المدججون بالسلاح ، حتى صارت

---

(١) شوازب : جمع شازب أى ضامر وهى هنا صفة للفرس . والأرسال: جمع رسل وهو القطيع من كل شيء .

(٢) الكذجات : جمع الكذج بمعنى . المأوى . معرب (كده) . (القاموس المحيط) وذكر التبريزى فى شرحه أن هذه الكلمة ليست بعربية . وإنما ذكرها الطائى لأن بابك اتفق له أن يكون نازلا فى هذا الموضع . وهذا خطأ منه . والغيل: الشجر الملتف والحرجات : جمع حرجة وهى شجر ملتف يكون مقدارميل أونحوه . والأدحال جمع دحل وهو الشق أو الموضع الضيق .

رماحهم أولى بهم من ثيابهم لكثرة حملها ، وهم على شجاعتهم يتسمون بالحياء النابع من إيمانهم ، ولو أنهم أدركوه أو ظفروا به لقطعوه إربا ، ولكنه نجا منهم فلم ينالوه .

ونلاحظ أن أبا تمام حين ذكر فرار بابك بعد هزيمته فى أرشق لم يحدد وجهة فراره التى عرفناها من مصادر التاريخ ، وهى بلدة «موقان» ولعله يعتمد على معرفة معاصريه بتفاصيل أحداث تلك المعارك . ومن لا يتابع هذه التفاصيل فى التاريخ يظن أن « موقان » بهذه الصورة التى ذكرها فى شعره هى موقعة أخرى هزم فيها بابك . وفر بعدها وهذا ظن خاطىء ، إذ لم تكن هناك معركة فى موقان ، يقول الطبرى « وأفلت (بابك) فى نفر يسير ودخل موقان ، وقد تقطع عنه أصحابه ، وأقام الأفشين فى ذلك الموضع (أرشق) وبات ليلته ثم رجع إلى معسكره ببرزند ، فأقام بابك بموقان أياما ، ثم إنه بعث إلى البذ فجاءه فى الليل عسكر فيه رجالة ، فرحل بهم عن موقان حتى دخل البذ»[1] .

ويعيننا هذا النص التاريخى على استجلاء مقصد أبى تمام فى حديثه عن موقان على أنه وصف لجماعات الخيل والفرسان التى طاردت بابك بعد فراره ، وتبعته حتى دخل موقان واحتمى بها ، وإن كانت مصادر التاريخ لم تذكر شيئا عن هذه المطاردة .

ونحن بذلك أمام احتمالين : أولهما : أن يكون حديث أبى تمام مستندا إلى وقوع المطاردة بالفعل وعلمه بها ، وبهذا يكون قد أضاف إلى التاريخ خبرا لم يذكره المؤرخون .

---

(١) الطبرى حوادث سنة ٢٢٠ جـ ٩ ص ١٦ .

وثانيهما : أن يكون هذا الحديث تزيد من نسج خياله ولا سند له من الواقع .
ويبدو لى أن الاحتمال الأول هو الأرجح ، لأنه يتفق مع منطق الأحداث وواقعها،
فمن الطبيعى أن يطارد الفرسان بابك المنهزم الفار ، لأن ظفرهم به نصر كبير ، بل
هو الغاية الأولى لهذه الحرب ، لو أنها تحققت لأراحتهم من عناء كبير .

ويساير أبو تمام بعد ذلك مجريات الأحداث كما يرويها التاريخ ، إذ يذكر
خروج بابك من موقان التى حمته ورت به وبجنده بر الوالدين ، والتى أرضعته لبان
خيرها بحفظها لحياته ولولا أن القنا حرمته من رضاعها لما فصلته عنه . وهيهات أن
يهنأ له عيش بها وقد روعه فرسان المسلمين الصناديد الذين لا تكشفهم الحرب
ولا يملون عنها اتقاءلها أو جزعا منها ، والذين جعلوا رماحهم درجات يصعدون
إلى معاقل الخرمية التى يحتمون بها سواء كانت فوق جبال أو وسط أغيال وحرجات
وأرحال . فها هو بابك وأتباعه وقد صاروا فى أسوأ حال يتجرعون غصص الهزيمة
ويتنادمون فيما بينهم كئوس الفجيعة ، وتلك عاقبة البغى الذى كلما طال وتمادى
فى غلوائه ، قصر أعمار ذويه وقرب آجالهم .

ويواصل أبو تمام حديثه عن تلك الوقائع المتوالية فيقول :

وبهضبتى أبرشتويم ودروذ	لقحت لقاح النصر بعد حيال
يوم أضاء به الزمان وفتحت	فيه الأسنة زهرة الآمال
لولا الظلام وقلة علقوا بها	باتت رقابهم بغير قلال
فليشكروا جنح الظلام ودروذا	فهم لدروذ والظلام موالى
وسروا بقارعة البيات فزحزحوا	بقراع لا صلف ولا مختال
قهر البيات الصبر فى متعطف	الصبر وال فيه فوق الوالى
ما كان ذاك الهول أجمع عنده	مع عزمه إلا طروق خيال

فهو يذكر ما وقع من لقاءات حربية بمضيق « أبرشتويم » و « ودروذ » ، كانت نتيجتها انتصارات لجيوش الدولة على الخرمية ، وقد سبق ذكره لوقائع « أبرشتويم » فى قصيدته النونية التى مدح بها الأفشين ، وكانت لنا ملاحظة على ذلك ، وهى أن مصادر التاريخ لم تورد هذا الاسم مطلقا . أما «دروذ» فقد ورد ذكرها ، وهى الوقعة التى لقى فيها بابك نفسه هزيمته الثانية على يد الأفشين . وبها تفتحت آمال النصر الحاسم بعد عام من المناوشات التى لم تسفر عن نتائج ذات أهمية . ونلاحظ أن أبا تمام قد أضاف هنا بعض التفصيلات التى لم يذكرها المؤرخون عن هذه المعركة ، وفيها يحدد عوامل نجاتهم من الهلاك المحقق والإبادة الكاملة ، إذ لولا حلول الظلام وتعلقهم بقمة الجبل ، لأطيح برءوسهم جميعا ، ولما نجا منهم أحد . ولذا يوجب عليهم أن يشكروا جنح الظلام ومرتفعات دروذ . ثم يذكر ما كان من إسراء بابك وجنده فى الليل ليبيتوا عسكر الأفشين ويفاجئوهم فى دهمة الظلام ولكنهم فشلوا فى هجومهم ، إذ قارعهم الأفشين وجنوده وثبتوا لهم حتى ردوهم على أعقابهم ، ولم تكن هذه المباغتة بالبيات لترهب الأفشين أو تفقده صموده وصبره ـ وهو الذى اشتهر بطول الصبر والمصابرة فى مجابهة العدو ، والعزيمة الجبارة التى تصغر أمامها تلك الأهوال ، فتبدو فى اعتبارها طروق خيال .

وهنا ينبغى أن نشير إلى شىء من التناقض بين مارواه المؤرخون عن حادث البيات هذا الذى وقع بعد هزيمة بابك فى دروذ بأيام قليلة وبين ماذكره أبو تمام ، إذ يقول الطبرى « فبيت بابك الأفشين ، ونقض عسكره ، وانصرف الأفشين عنه إلى معسكره »[1] وهذا الخبر على إيجازه الشديد يفهم منه أن بابك أصاب عسكر الأفشين وأحدث فيه القتل والاضطراب حين باغته ليلا ، ولكنه لا يعنى أن الضرر

---

(١) الطبرى حوادث سنة ٢٢١ هـ ج ٩ ص ٢٥ .

كان بالغا ، أو أنه وصل إلى درجة الهزيمة ، ومن هنا يمكننا أن نقارب بين طرفى التناقض ، فعندما ذكر أبو تمام مكملا لما ذكر الطبرى أو توضيحا له ، فأبو تمام مع إقراره بحدوث البيات ، لم يشأ أن يذكر الأضرار التى نتجت عنه ، وإنما تجاوزها إلى ذكر الموقف البطولى فى التصدى لهذا الهجوم ورده دون أن يحقق هدفه المنشود ، وهو ذلك لا يتزيد ولا يخالف الحقيقة والواقع ، بل يسجل عملا بطوليا لجيش المسلمين أهمل ذكره المؤرخون .

ويصل أبو تمام إلى المعركة الأخيرة فيفيض فى الحديث عنها ، وتصوير مظاهر الخراب والدمار التى خلفتها ، فيقول :

وعشيةَ التلِّ الذى نَعَشَ الهُدَى ... أُصُلٌ لها فَخْمٌ من الآصالِ[1]

نزلتْ ملائكةُ السماء عليهمُ ... لما تداعَى المسلمون نَزَالِ

لم يُكْسَ شخصٌ فَيئَهُ حتى رَمَى ... وقتُ الزَّوالِ نعيمَهم بزوالِ

برزَتْ بهم هَفَواتُ عِلْجِهِم وقد ... يُردِى الجبالَ تَعَسُّفُ الجُهَّالِ

فكأنَّما احتالت عليه نفسُه ... إذ لم تَغُلْهُ حِيلةُ المحتالِ

فالبَذُّ أغبرُ دارسُ الأطلالِ ... لِيَدِ الرَّدَى أُكُلٌ من الآكالِ

أَلْوَتْ به يومَ الخميسِ كتائبٌ ... أرسلْنَهُ مَثَلاً من الأمثالِ

مَحْوٌ من البيضِ الرِّقاقِ أصابَه ... فعفاه لا مَحْوٌ من الأحوالِ

ريحان من صبرٍ ونصرٍ أبليا ... رَبْعَيهِ لا ريحا صبًا وشَمالِ

لفحَتْ سمومُ الشَّرِ فيه وسطَه ... وهَجاً رُكُنٌ سوابغَ الأظلالِ

كم صارمٍ عَضْبٍ أنافَ على فتًى ... منهم لأعباءِ الوغَى حَمَّالِ

(١) نعش : رفع

سبقَ المشَيبَ إليه حتى ابتَزَّه ... وطنُ النُّهى من مَفْرقٍ وقَذالِ[1]

كُرِأَمةٍ وسْطَ المنيَّةِ وحْدَها ... لُوَّامةِ الأعمامِ والأخوالِ

قاسى حياةَ الكابِ إلاَّ أنّه ... قدماتَ صبراً ميتةَ الرئبالِ

أبقنا بكلِّ خريدةٍ قدَ أنجزَت ... فيها عداتُ الدّهرِ بعد مطالِ

خاضت محاسنَها مخاوفَ غادرت ... ماءَ الصِّبا والحسنِ غيرَ زلالِ

أعجلنَ عن شدِّ الإزارِ وربّما ... عوّدنَ أن يمشينَ غيرَ عجالِ

مستردفاتٍ فوقَ جُردٍ أوقرَت ... أكفالها من رُجَّحِ الأكفالِ

بدّلنَ طولَ إزالةٍ بصيانةٍ ... وكسورَ خيمٍ من كسورِ حجالِ

وهذه المعركة — كما عرفنا — بدأت بحصار تل البذ الذى كان يعسكر عليه جيش الخرمية بقيادة « آذين » ، فلما أحيط بهم صاروا لقمة سائغة لجيش المسلمين فقتلوهم تقتيلا ، وهذا ما يعنيه أبو تمام بعشية التل ، التى رفعت راية الحق والهدى وأعلت كلمة الله على معقل الكفر ، وأرست دعائم الإسلام قوية صلبة ، وأنزل الله ملائكته يعضدون المسلمين فى جهادهم ، ولم يكن يحل وقت صلاة العصر التى يصير فيها ظل كل شخص مثله حتى اذن نعميهم بالزوال ، كأنما رماهم به وقت زوال الشمس ، فكان زوالها مسمى على زوال سلطانهم . ويعلل أبو تمام تلك الهزيمة المنكرة بما كان من أخطاء علجهم بابك ، التى أبرزت كائنهم المتخفية فى وقت لم يكن مناسبا لإبرازها كما عرفنا من رواية التاريخ للأحداث — ويشبهه بالجهال الذى يتعسف بجهاله فيرديهم حمقه وسوء تدبيره ، فكأنما احتالت عليه نفسه وغدرت به لتوقعه فى شر أعماله ، بينما كان أمره مستعصيا لم تتمكن منه حيلة ولم ينل منه محتال .

وأعقب تلك المعركة الطاحنة مباشرة دخول كتائب المسلمين مدينة البذ وتدميرها عن آخرها حتى غدت غبراء الوجه دارسة الأطلال ، تعبث فيها يد الردى بالخراب

---

(١) وطن فى الديوان مرفوعة وصحتها النصب ليستقيم المعنى .

لتجعل منها مثلا له يضرب به . ولم يكن هذا الدمار الذى حل بها وعفا معالمها نتيجة لغير الأيام والأحوال . أو بفعل رياح عاتية وغير عاتية عصفت بها ، وعفت على آثارها ، كما هو المعهود فى زوال المدن على مدى التاريخ ، وإنما كان نتيجة لضربات السيوف البيض بأيدى أبطال المسلمين ، الذين دفعتهم رياح صبرهم وجلادهم ، وهبت عليهم ملوحة بآيات النصر . وكأنما لفحتها سيوفهم الشرفية بسموم من نار ، فأحرق وهجها خضرة النعيم التى كانت وارفة سابغة الظلال عليها.

ويصف أبو تمام مقاتل الأعداء من البابكيين ، فلا يغمطهم حقهم ، ولا يزرى بشجاعتهم وبطولتهم فى الحرب ، وإن كان يفضح مثالبهم ، ويندد بدناءتهم وخستهم ، فكم أطاح السيف الصارم برأس فتى منهم كان جلدا حمالا لأعباء الوغى ، كريما فى لقاء المنية وإن كان لئيم العم والخال ، وإذا كان قد عاش حياته ذليلا مهينا كالكلب ، فإنه قد مات شجاعا صابرا كالأسد الرئبال .

أما السبايا من النساء والفتيات ، فقد تركت الحرب عليهن آثارها من الرعب والفزع ، وانطبعت على محاسنهن عدات الدهر بسوءات الشقاء ، فعكرت ماء الصبا فى وجوههن ، وبدلت نضرة جمالهن إلى صفرة الرهبة والخوف . وأخذن أخذا معجلا فلم يتح لهن شدا الأزر ، وهن اللاتى عودن أن يمشين متأنيات متبخترات رافلات فى حلل النعمة والرفه ، وحملن حملا على ظهور الخيل الجرد الأصيلة فاسترخت أردافهن السمينة على أكفالها ، ثم ألقين فى جوانب الخيام ، وقد بدل حالهن ، فصرن جوارى مسبيات مبتذلات ، بعد أن كن حرائر مصونات ، وربات حجال مكرمات .

ويتابع أبو تمام الأحداث التى تلت سقوط « البذ » وما كان من هروب بابك والقبض عليه وإعدامه بسر من رأى خاتما بذلك الفصل الأخير من ملحمته الشعرية ، فيقول :

ونجا ابن خائنة البعولة لو نجا ... بمهفهف الكشحين والآطال[١]

خلّ الأحبة سالماً لا ناسياً ... عذر النسي خلاف عذر السالي[٢]

هتكت عجاجته القنا عن وامق ... أهدى الطعان له خليفة قال

إن الرماح إذا غرسن بمشهد ... فجنى العوالي في ذراه معال

لما قضى رمضان منه قضاءه ... شالت به الأيام في شوّال

ما زال مغلول العزيمة سادراً ... حتى غدا في القيد والأغلال

مستسبلاً للبأس طوقاً من دم ... لما استبان فظاظة الخلخال

ما نيل حتى طار من خوف الردى ... كل المطار وجال كل مجال

والنحر أصلح الشرور وما شفى ... منه كنحر بعد طول كلال

لاقى الحمام بسر من راء التي ... شهدت لمصرعه بصدق الفال

قطعت به أسبابه لما رمى ... بالطرف بين الفيل والفيّال

أهوى لمتن الجذع متنيه كذا ... من عاف متن الأسمر العسّال

لا كعب أسفل موضعاً من كعبه ... مع أنه عن كل كعب عال

سام كأن العز يجذب ضبعه ... وسموه من ذلة وسفال

متفرغ أبداً وليس بفارغ ... من لا سبيل له إلى الأشغال

لقد نجا بابك من الهلاك الذى فتك بأصحابه والدمار الذى حل بمدينته ، ولكن

---

(١) الكشح والأطل بمعنى الخصر . يريد أنه نجا على فرس ضامر أصيل .

(٢) يبدو أن لفظ « سالما » فى البيت مصحفة عن لفظ « ساليا » الذى يتفق مع التقسيم المعنوى الذى قصده أبو تمام فى البيت .

نجاته كانت وقتية رإلى حين مقدر ، ولم تكن نجاة خالصة تكفل له الأمن والسلامة ، وهذا ما عناه أبو تمام بقوله : « لو نجا » . وإمعانا فى احتقاره والإزراء بقدره يلقبه بابن خائنة البعولة ، راميا أمه بتهمة الزنا وخيانة الزوج . وأبو تمام فى ذلك لا يختلق التهمة ، وإنما يردد ما ذكرته الروايات عن أصل بابك(١) ومولده من سفاح ، والمناسبة تسمح لكل ما يمكن أن يقال من سباب يهدد كرامة بابك ومثالب تحط من شأنه وتهوى بذكره إلى أسفل سافلين . ثم إن نجاته هذه ليست إلا دليلا على جبنه وخيانته لصحبه ، فقد تركهم للموت يحصدهم حصدا ، وأفلت ملتمسا لنفسه السلامة ناقضا عهود المحبة التى ارتبطوا بها ، ساليا غير ناس ، وإذا كان ثمة عذر له فيما فعل ، فأقبح به من عذر ! وأين ما كان يدعيه أو يظهره من حب لهم وحرص على أمرهم حين شقت الرماح غباره وكشفته فى المعركة كشفا ؟ ! إن وقع الطعان قد أفزعه وطبع على قلبه خليقة الجبن ، فتحول من محب وامق لأصحابه إلى مبغض قال لهم ، ودفعه حرصه على حياته إلى النجاة بنفسه مخليا إياهم فى معمعة الردى ، وليس ذلك من خلق الشجاع المخلص .

ويخلص أبو تمام إلى حكمة يستمد عناصرها من صميم المعركة وهى أن الرماح إذا غرست فى مشهد القتال كان جناها معالى المجد فى ذراه ، وكأنما يريد أن يتوج حديث البطولة بتلك الحكمة الحماسية فى صورة من فنه المبدع . ولعل موضع الحكمة هنا يبدو قلقا أو غير منطقى إذ لا يتلاءم مع حديثه عن بابك ووصفه بالجبن . ولكن المبرر الذى يمكن أن نلتمسه لأبى تمام هو أنه رأى جبن بابك وانهياره النفسى دليلا على تمكن الهزيمة منه ومن جيشه ، ومن ناحية أخرى هو علامة النصر

---

(١) أنظر ما ذكر ابن النديم فى الفهرست ص ٤٨٠ وما ذكره الطبرى فى حوادث سنة ٢٢٣ حـ ٩ ص ٥٤ .

لجيش الدولة ، وثمرة العلا لغرس رماحهم . ومن ثم كانت حكمته فى موضعها كما أراد .

ويعود إلى متابعة الحديث عن مصير بابك فيحدد الشهر الذى حل فيه القضاء بهزيمته ، وكان شهر رمضان المبارك — كما ذكرت مصادر التاريخ — ثم كان فراره فذهبت به الأيام كل مذهب مستخفة بأمره فشالت به فى شهر شوال ،حيث قبض عليه وهو سادر فى غيه مغلول العزيمة لا يجد منقذا يخرجه من الحصار الذى ضرب حوله حتى أوقع به ، وغدا يرسف فى قيوده وأغلاله التى استبانت له فظاظتها ، وأحس ثقلها وقسوتها . وأيقن من المصير الذى تجرجره إليه ،فاستسلم ذليلا محسورا ، وبدا كأنه مطوق بطوق من الدم إيذانا بما ينتظره من سوء العاقبة وبأس العقاب . وقد كان خوفه من الموت أمرا رهيبا جعله يطير منه كل مطار ويجول كل مجال ، حتى نيل وأمسك به . وكما أن البعير الشرود يكون نحره أصلح من اقتنائه ،فكذلك يكون بابك الهارب الذى سيشفى قتله نفوس المسلمين جميعا ، خاصة وأنه أسر بعد طول التردد فى الهرب وبعد أن أخذ الكلال والاعياء منه وهد كل قواه المناوئة فسقط مخذولا مدحورا . ليلقى جزاءه بتلك القتلة الشنيعة فى حاضرة الدولة « سر من رأى » ، وليشهد مصرعه جموع المسلمين ، ويسروا بمرآه ،فياله من فأل حسن باسم تلك المدينة ، تأكد صدقه بذلك الحدث الذى ملأ القلوب غبطة وسرورا .

وكانت رهبة الموت تشع من عين بابك حين رمى بطرف ناظريه بين الفيـــل الذى حمله مارآ به وسط الجموع المحتشدة ،وبين الفيال الذى يقوده به إلى المصير المحتوم (١) ، إذ أيقن أنه فى مسيرة الموت ، وتقطعت فى نفسه كل أسباب الأمل فى الحياة . وقضى الأمر الذى لم يكن منه بد ، وصلب بدنه على متن جذع عال إشهارا لمقتله

---

(١) أنظر وصف الطبرى والمسعودى لمقتل بابك (أحداث سنة ٢٢٣ هـ)

وليراه كل من يريد ، فيالها من ميتة مهينة يلقاها كل جبان يعاف الموت طعنا بالرماح في ساحة الوغى ، ويكره أن يصلب على متن الرمح الأسمر شجاعا مكرما ، فيكون مصيره أن يصلب متنه على متن الجذع ذليلا محقرا . وإنها لمفارقة تدعو إلى التأمل والاعتبار ، إذ يرى كعبه عاليا في موضع صلبه مع أنه أسفل كعب وضع على الأرض، وإذ يرى بدنه معلقا ساميا كأنما جذب العز ضبعه إلى المرتبة التي تليق به من مراتب السمو ، إنه سمو الذلة والسفال لا سمو العزة والكرامة ، سمو شكلي في مكان صلبه المرتفع يحمل في طياته تناقضا كاملا لمعنى السمو الحقيقي .

لقد انتهت حياته إلى الأبد ، وتفرغ لهذه الحال من الجمود السرمدي ، ولكنه لن يفرغ من عذاب مقيم يخلد فيه مهانا .

ويوجه أبو تمام كلماته الأخيرة إلى المعتصم مشيدا بعمله الجليل لإعلاء شأن الإسلام وإتمام نوره ، وإكمال ما انتقصه عدوان الكفر منه ، فيقول :

فاسلم أميرَ المؤمنين لأمّةٍ أبدَلْتَها الإمراعَ بالإمحال

أمسى بك الإسلام بدراً بعدما محِقَت بشاشته محاقَ هلال

أكملتَ منه بعدَ نقصٍ كلَّ ما نَقَصَتْه أيدي الكفرِ بعد كمال

ألبستَه أيامَكَ الغُرَّ التي أيام غيرك عندهنَّ ليالي

وعزائماً في الرَّوعِ معتصميَّةً ميمونةَ الإدبار والإقبال

فقُمِعَ الوزراء يطفو فوقها طفوَ القذى وتَعَقُّب العذّال

والسيف ما لم يُلْفَ فيه صيقَلٌ من طبعه لم ينتفع بصقال

ولا شك أن تدبير المعتصم لهذه الحرب ، واهتمامه الشديد بأمرها ، وموالاته إمداد الأفشين بالرجال والمال ، كان له أثره الفعال في إحراز النصر الحاسم ، فهو خليفة عظيم يستحق كل إكبار وإجلال ، ويتمنى له أبو تمام كما يتمنى كل مسلم أن

يسلم لأمته من كل مكروه ، فهو الذى أبدلها نعيم الأمن والسلام مرعاناضرا وارف الظلال ، من جحيم الفتنة البابكية التى عرضتها لـكوارث ممحلة وشرور مضللة. وبه أمسى الإسلام مكتمل النور كالبدر فى تمامه ، بعد أن غشيته ظلمات الضلال ، فمحقت بشاشة هداه كما يمحق الظلام ضياء الهلال ، وهو الذى أعاده إلى مرتبة الـكمال التى بلغها من قبل ، وأصلح ما أصابه من ضرر ، وما ناله من انتقاص بأيدى الخرمية الـكفرة ، وألبسه ثيابا باهرة من أيام عهده الغراء الوضاءة ، التى تعد أيام غيره من الخلفاء إذا قيست بها ليالى مظلمة ، كما سربله بعزائمه المعتصمية الجبارة فى روع الحروب ، والتى تعززها آيات اليمن والظفر فى إقبالها وإدبارها، ومهما أحكم الوزراء التدبير ، وتعمقوا النظر والتقدير ، فإن آراءهم وعزائمهم تأتى سطحية خفيفة بالنسبة إلى آرائه وعزائمه ، بل إنها تطفو فوقها كما يطفو القذى والغثاء على سطح الماء ، كما أن تعقب عاذليه لها بالنقد والتجريح لا ينال من رسوخها وقوتها، وإنما ينحسر عنها هراء باطلا ، وفهما قاصرا ، ولولا أن عزائمه وحكمة تدبيره كانت حازمة قاطعة من صنو طبعه وخلقه ، لما قرعت تلك الخطوب وتغلبت عليها ، فمثلها كالسيف إن لم يكن معدنه من جيد الحديد فإنه لا يحتمل الصقال ولا ينتفع به . وبهذه الحكمة الحماسية المستخلصة من طبيعة الموضوع يختم أبو تمام تلك الملحمة الرائعة ، والتى خلدت جهاد الاسلام ودولته ضد حركة الخرمية البابكية الـكافرة ، وسجلت صفحة ناصعة مشرقة فى كتاب الفن الشعرى تفوق ما سجله التاريخ روعة وفخارا .

* * *

وتبقى قصيدة نسبت إلى أبى تمام فى مدح المعتصم ، وفيها ذكر لإيقاعه بالخرمية والزط والروم ، ولـكن الحديث عن وقائع الخرمية يحظى بالاهتمام الأكثر ، بينما لا يرد ذكر حروب الزط والروم إلا فى بيت واحد منها .

وهى التى يقول فى مطلعها :

وهذه القصيدة مشكوك فى نسبتها لأبى تمام ، وقد جمعها محقق الديوان الأستاذ محمد عبده عزام مع القصائد المنحولة والمشكوك فى صحتها ، والتى ألحقها بالديوان فى الجزء الرابع . وعلق عليها فى الهامش بما يؤكد شكه فى صحة نسبتها إلى أبى تمام فقال « لم ترد هذه القصيدة فى غير نسختى س ، ق من شرح التبريزى ، والمفروض أنها قيلت فى مدح المعتصم بعد وقعته بالخرمية والزط أى بعد استواء شعر أبى تمام أيام قال قصيدته المعروفة : السيف أصدق أنباء من الكتب : ولا يمكن أن تكون هذه لقائل تلك ، فليس فيها صورة شعرية واحدة يصح أن تكون لأبى تمام »[1].

وقد أثار رأى الدكتور عزام هذا جدلا حول القصيدة ، وما إذا كانت منتحلة أو صحيحة ، إذ عارضه الدكتور عبدالمحسن سلام ، رافضا قوله بانتحالها ، ومثبتا صحة صدورها عن أبى تمام فقال : « وحجة الناشر فى رفضه للقصيدة حجة واهية ، فقد كتب أبو تمام قصيدته « السيف أصدق أنباء من الكتب » بعد أن انتهت حروب الخرمية بزمن وتفرغ المعتصم لملاقاة الروم وعقابهم على الهجوم على حدود الدولة إبان انشغاله بحرب الخرمية واتصالهم بهم ومساعدتهم لهم ، وكتبها فى جو من الحماس والرؤى والتنبؤ والشهامة والحماس[2] ، وجمع الشاعر قوته جميعا لكتابتها ، وقصيدته هذه فريدة فى نوعها ، ينبغى ألا تقارن بغيرها من القصائد . أما هذه القصيدة فقد كتبت فى هدوء ، وهى مدح يجمع أحداثا كثيرة ، وحكمه على القصيدة حكم عام لا دليل عليه من الناحية اللغوية أو من ناحية الصور التعبيرية التى استخدمها الشاعر . ولا يكفى فى رفض قصيدة منسوبة لشاعر أن تلقى حكما عاما والقصيدة فى رأينا لأبى تمام ، فيها براعته اللغوية ، وبدايتها فيها طابع أبى تمام عندما يبـــدأ فيتغزل أو يبكى

---

(١) أنظر الديوان حـ٣ ص٦٦٥

(٢) هكذا نص الدكتور سلام بتكرار كلمة (الحماس)

السمن »(١) .

وقبل الحكم على القصيدة ينبغي أن نعرضها أولا ، أو نعرض أجزاء منها ليكون حكمنا على أساس سليم . فهو يقول فى المقدمة الغزلية أو الطللية بعد المطالع الذى ذكرناه :

تحمَّل منه أهلهُ فهو موحشٌ ... به العِينُ في أرجائه عُصَبًا تسرى
وليس به أثرٌ يَبِينُ لناظر ... سوى موقدٍ عافٍ تقادَمَ كالسَّطر
وقفتُ به فاستنطَقَ الدمعَ كامِنٌ ... من الوجدِ حتى فاضَ دمعى على نحرى
وحتى بدا ما كنتُ دهراً كتمتُه ... وأظهرَ طرفى ما يُجمْجِمُه صدرى
فسَقْياً ورعْيا للذين تحمَّلوا ... وبَقُّوا لنا شوقاً لدَى الطَّلل القَفْر

وهذه المقدمة ليس فيها طابع أبى تمام كما يقول الدكتور سلام ، فمن الواضح أنها تتضمن معانى تقليدية مستهلكة أو مطروقة لا تتفق أبدا مع طابع أبى تمام الذى يتميز بجدة الابتكار وتعمق الفكرة ، والتفنن فى رسم الصورة ، كما أن أسلوبها أقرب إلى السهولة والركاكة بما يجعل البون شاسعا بينه وبين أسلوب أبى تمام فى جزالة ألفاظه وقوة تراكيبه .

ونعرض لأبيات أخرى منها فى مدح المعتصم والإشادة بانتصاراته على أعدائه من الخرمية وغيرهم لنرى إلى أى مدى يمكن أن تتفق مع شعر أبى تمام أو مذهبه الفنى يقول :

---

(١) أنظر الثورة البابكية وأثرها فى الأدب العربى ص ١١٤

بمعتصمٍ بالله طابَ زمانُنــا وصال به الإسلامُ صولة ذى كبرِ
وذُلَّ به الكفارُ وامتنعتْ بــه بنو الدين والإيمان من حدثِ الدهر
هَنَاكِ أميرَ المؤمنين الذى به ظفرتَ غداةَ الخُرَّمِىِّ من النصر
شَهرتَ أمينَ الله ترجُو ثوابهَ سيوفاً على الكفارِ تنهلُّ كالقطر
فأوردتَ جمعَ الخُرَّمِيَّة عَنْوةً حياضَ المنايا بالمثقفة السُّمر
توافَوا لميقاتٍ فسُقُّوا حتوفَهم بكل رُدَيْنِىٍّ وأبيضَ ذى أثْر
غداة تولى بابكٌ وهو واحــد وأدبرَ مخذولاً بقاصمة الظهر
وآمنك الجبّارُ منه بغَــدره فأعنق قسراً بالمذلّة والصُّغر
فقد ضحك الإسلامُ واستبشرتْ له معالمُ دين الله فى البَرِّ والبحر
ومن قبله أوقعتَ بالزطِّ وقعةً وبالروم أخرى منك ثاقبةَ الذكر
ويومُك إذ أمطرتَ يومُ سحابةٍ من الموت مَحَّاً لا تُكشَّفُ عن مَصْر[1]
أغرُّ حميدٌ حين أفنيتَ جمعَهم إمامَ الهدى والعدل بالقتل والأسر
أقمت قناةَ الدينِ من بعد مَيْلها وسُسْتَ عبادَ الله بالحلم والبر
تخيركَ الله الذى أنت عبــده إماماً وكان بالناس ذا خُبر
فأصبحت مختاراً لأمة أحمد يقومُ بحق الله فى السر والجهر
فيا ناصرَ الإسلام والزائد الذى به أمنتْ أفقُ البلاد من الذعر
سيوفك فاحفظها سلمت فإنها مؤيّدةٌ بالعزِّ والنصر والصبر
دمغْتَ بها الكفارَ فى كل موطن فأضحت بحمد الله قاصمةَ الظهر

---

(١) يقال مصر الشاة والناقة يمصرها مصرا وتمصرها حلبها بأطراف الأصابع وقيل هو الحلب بالإبهام والسبابة . (اللسان) .

لعمرى ! إنها أبيات لا تعدو أن تكون من نظم شاعر مبتدىء . ولسنا بحاجة إلى تمحيص معانيها وألفاظها لنتبين مواضع الضعف والركاكة منها ، ولست أدرى أين هى براعة أبى تمام اللغوية التى يزعم الدكتور سلام أنها ظاهرة فيها ؟ !

والغريب أنه يقول أيضا « وفيها المعانى التى رددها مادحا للمعتصم » فأين هى تلك المعانى ؟ أهى معانى الانتصار على الأعـــداء وإعلاء شأن الدين وما يدور حول ذلك ! ؟

وهل تقاس هذه المعانى بما نراه فى قصائد أبى تمام الصحيحة أو حتى يمكن أن تقاربها فنا وتصويرا وعمقا ؟ إنها لا شك بعيدة كل البعد عن فن أبى تمام وبراعته وعبقريته الفذة ، وهذا أمر لا يخفى على أى دارس أو باحث أو متذوق للشعر ، ومن الظلم لأبى تمام أن نقحم عليه مثل هذا الشعر الغث الركيك .

وقد كان الأستاذ عزام محقا كل الحق فى حكمه على هذه القصيدة بالانتحال ، وليته أنفذ حكمه فحذفها حذفا من ملحق الديوان ، ولم يكتف بهذا التعليق الهامشى ، وإذا كان الدكتور سلام يأخذ عليه مقارنته بينها وبين قصيدة فتح عمورية زاعما أن تلك الأخيرة فريدة فى نوعها لا ينبغى أن تقارن بغيرها من القصائد ، فإننى أرد عليه بأن الأستاذ عزام إنما قصد بالمقارنة إظهار المفارقة بين اللونين من الشعر فى أوضح صورها ، وأن أبا تمام صاحب قصيدة عمورية لا يمكن أن يهبط فنه إلى هذا الدرك الردىء الماثل فى هذه القصيدة .

ثم إن هذه المفارقة يمكن أن تظهر بوضوح وجلاء إذا قورنت هذه القصيدة بأية قصيدة أخرى لأبى تمام ، وديوانه ملىء بالقصائد التى لا تقل مستوى عن قصيدة عمورية ، فليست هى الفريدة فى نوعها كما يقول .

وإذا كان يأخذ عليه أيضا أن حكمه على القصيدة حكم عام لا دليل عليه من الناحية اللغوية أو من ناحية الصور التعبيرية ، فهل كان ينتظر منه أن يعقد دراسة مقارنة بين هذه القصيدة وبين شعر أبي تمام في تحقيقه للديوان ؟ ! أو ليس كافيا أن يعطينا حكمه هذا الذي توصل إليه بعد فحص وتمحيص ، والذي لم يصدره جزافا كيفما اتفق ، ولقد كان الأولى بالدكتور سلام أن يتمهل في معارضة الرأي ، وأن يعيد النظر في القصيدة وفي شعر أبي تمام مرات ومرات ، حتى يمكنه أن يتبين حقيقة الأمر ، ويتحقق من أن هذه القصيدة منحولة على أبي تمام دون أدنى شك .

الفصل السادس

مع محمد بن يوسف الثغرى أثناء الحرب البابكية

عرفنا من أحداث الحرب البابكية الأخيرة أن أبا سعيد بن يوسف الطائى الملقب بالثغرى[1] ، كان من أبرز القواد الذين شاركوا فيها ، فقد وجهه المعتصم إلى هذه المنطقة لرم حصونها ، وتجهيز مواقعها ، قبل أن يوجه الأفشين إليها .

ورأيناه فى هذه الفترة يحرز أول نصر على أحد قواد بابك المسمى معاوية ، فكان ذلك النصر بشرى طيبة سبقت مقدم جيش الأفشين ، وفألا حسنا يشجع على مواصلة الحرب بروح عالية وثقة قوية فى النصر النهائى . وبقى أبو سعيد بجانب الأفشين طيلة مدة الصراع مع بابك يؤازره فى كل معركة ، ويواجه معه كل خطر فى صبر لا ينفد ، وجلد لا يقل ، حتى تم القضاء على الثورة البابكية واستؤصلت شأفة الخرمية ، فكان أبو سعيد هو الذراع اليمنى للأفشين فى هذه الحروب ، أو الرجل الثانى الذى يليه مكانة ورتبة فى المركز القيادى .

وقد عرف أبو تمام أبا سعيد . واتصل به منذ فترة سابقة على هذه الحروب ترجع إلى سنة ٢١٤ هـ ؛ تلك السنة التى استشهد فيها محمد بن حميد الطوسى ، إذ كان أبو سعيد من قواده فى المعركة — كما سبق أن عرفنا — ولاشك أن رثاء أبى تمام لابن حميد ، وما لقيه من ذيوع واشتهار ، كان من أهم العوامل التى قربت أبا تمام

---

(١) لقب أبو سعيد بالثغرى نسبة إلى أنه قضى كل حياته عاملا بالثغور وحاميا لها .

إلى نفس كل طائى ، وفتحت له أبواب سادة طيء وقلوبهم ، وعلى الأخص من كان منهم على صلة وثيقة بالقائد الشهيد كأبى سعيد ، الذى رافقه فى جهاده ، وشاهد بعينيه مأساة استشهاده ، والذى تربطه به قرابة الدم والنسب الطائى .

لقد وجد أبو سعيد فى أبى تمام لسان طيء البليغ الجلجل ، الذى يعلى شأنها ويجلى مفاخرها وأمجادها ، فى وقت كانت كل قبيلة عربية تعمل جاهدة على إثبات وجودها فى الميدان لدعم دولة الإسلام ، وتبذل أقصى طاقاتها للحفاظ على مكانتها فى مواجهة النفوذ الفارسى الذى تعاظم شأنه ، وكاد يستحوذ على مراكز السلطة فى كيان الدولة .

كما وجد أبو تمام فى أبى سعيد القائد الشجاع والمحارب المغوار ، الذى يناط به الأمل فى الحفاظ على المجد الطائى العريق، الذى علا شأوه فى دولة بنى العباس، منذ قاد جيوشها قحطبة بن شبيب الطائى فى مواجهة جيوش الأمويين ، ثم خلفه أبناؤه وأحفاده من بعده فى قيادة جيوشها والذود عن حماها ، إلى أن كان مقتل ابن حميد الذى كاد يفقد الطائيين مكانتهم ، وينذر بانطواء صفحات تاريخهم المشرف، ولكن وجود أبى سعيد أحيا آمالهم المنهارة ، وجدد فيهم نعرة العزة والفخار ، فتمثله أبو تمام منقذ قومه من الضياع ، ورافع لوائهم الذى سقط بسقوط ابن حميد ، وأحس أن واجبه القبلى يلزمه بالوقوف إلى جانبه والإشادة بفعاله المجيدة ، وبطولته الفذة .

وقد حاول الدكتور البهبيتى تحديد الفترة التى اتصل فيها أبو تمام بأبى سعيد أول اتصال ، مستنتجا ذلك من شعره ، إذ يرى فى قصيدة له ما يدل على أنه كان صغير السن يوم قالها ، وأن أبا سعيد لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار ، وهذا يعنى أن معرفته بأبى سعيد كانت قبل سنة ٢١٤[1] ، وهذه القصيدة هى التى يقول

---

(١) أنظر كتابه أبو تمام الطائى ص١٠٥ — ١٠٦

فيها[1] :

فلئن شطّت الديارُ وغال الدّ ... هرُ فى آلفٍ وفى مألوف
وتبدلتُ بالبشاشـــةِ حُزناً ... بعد لهوٍ فى مَربعٍ ومصيف
فعزائى بأن عرضى مَصونٌ ... سائغَ الوِرْدِ والسماحَ حليفى
ثم علمى على حداثةِ سنى ... بصروفِ الدهورِ والتصريف

ومنها :

ليت شعرى ماذا يريبك منى ... ولقــد فقتَ فطنةَ الفيلسوف
أنتهزْ فرصـــةَ تسرُّك منى ... باصطناع الخــيرات والمعروف
أنا ذو منطق شريفٍ لإعطـــا ... ء وذو منطق لمنع عفيف[2]
ما أبالى إذا عنَتْكَ أمورى ... كيف أُحتتْ علىَّ أيدى الصروف

ويعلق الدكتور البهبيتى على هذه الأبيات بأن أبا تمام فيها جديد لديه ، يقدم إليه بضاعته ، وأبو سعيد مشغول عنه ، وهو ما يبعد أن تكون عليه حال أبى تمام صاحب الرثاء فى محمد بن حميد[3] .

---

(١) أنظر القصيدة فى الديوان حـ٤ — ٤٧٧

(٢) ذكر الدكتور البهبيتى العبارة الأخيرة من هذا البيت «ومنطق لمنع عنيف» بحذف « ذو » مما يؤدى إلى اختلال الوزن ، وبالتصحيف فى كلمة « عفيف » مما يؤدى إلى تغير المعنى .

(٣) أنظر كتابه أبو تمام الطائى ص١٠٦

ولعلنا لا نحتاج إلى مناقشة الدكتور البهبيتى فيما استنتجه من هذه الأبيات مناقشة تفصيلية ، إذا عرفنا أنه لم يتحر الدقة فى تحديد الشخصية التى وجه إليها أبو تمام هذه القصيدة ، فهو لم يقلها لأبى سعيد ، وإنما قالها لابنه يوسف يعاتبه كما ذكر فى مناسبة القصيدة بالديوان . واحتمال أن يكون هناك خطأ فى تقديم جامع الديوان للقصيدة ، وأن اسم الابن وضع مكان اسم الأب هو احتمال ضعيف ، لأن الديوان محقق على أساس نسخه المخطوطة العديدة ، وبروايات رواته المختلفين ، وليس هناك أدنى شك فى صحة الاسم الذى ذكر فى تقديم القصيدة . ويؤكد ذلك أيضا قول أبى تمام فى أحد أبياتها :

ذو اعتـداء على ثراء فتىً الجو   د الشريف الفعال وابنِ الشريف

إذ يصف نفسه بأنه معتد على ثراء فتى الجود بما يناله من عطاياه ، وينسب هذا الفتى إلى أبيه فى شرف الفعال ، وهو أعرف الناس بأبيه وبفعاله الشريفة التى عهدها منه طيلة فترة اتصاله به . فاستدلال الدكتور البهبيتى بهذه القصيدة على بداية اتصال أبى سعيد لا يقوم على أساس سليم ولا يؤخذ به .

وما من مجال للقول بأن أبا تمام اتصل بابن أبى سعيد قبل الاتصال بأبى سعيد نفسه ، إذ أنه لو أخذ بهذا الاحتمال لكان دليلا غير مباشر على ما يريد أن يصل إليه الدكتور البهبيتى ، والذى يمنعنا من الأخذ به أن الابن لم يكن فى السن أو فى المكانة التى تجعل أبا تمام يسعى إليه . يؤكد ذلك أن أبا تمام لم يوجه إليه سوى هذه القصيدة فى العتاب ، ولا نجد له ذكرا فى شعره إلا فى قصيدة أخرى يمدح بها أباه ، ويحثه فيها على البر بابنه يوسف هذا ، وكان قد أعرض عنه واطرحه لشىء أنكره عليه ، ومنها قوله(١) :

---

(١) أنظر القصيدة فى الديوان حـ٣ ص١٤٦ .

ولكننا من يوسفِ بن محمدٍ على أملٍ كالفجر لاح مطلُه
هلالٌ لنا قد كاد يخمد ضوؤه وكنا نراه البدرَ إذ نستهلّه
هو السيفُ عضباً قد أرَنَّتْ جفونه وصُيِّمَ حتى كل شيء يفلّه
فصنْه فإنا نرتجى فى غِرارِه شفاءً من الأعداء يوم تسلّه

وفى هذه الأبيات نرى يوسف شابا فى مقتبل العمر ، لم يخط بعد فى طريق الحياة مستقلا عن أبيه . والمرجح أن أبا تمام قال هذه القصيدة بعد سنوات من اتصاله بأبى سعيد ، كانت فيها الصلة بينهما قد توثقت ، بحيث يسمح أبو تمام لنفسه بالتوسط بين أبى سعيد وابنه يوسف .

ويستدل الدكتور البهبيتى بقصيدة أخرى لأبى تمام فى أبى سعيد على ان اتصاله به سنة ٢١٤ إنما كان تكملة لحياة سبقت له معه ، لما فيها من روح قلق، وضعف هو ضعف الناشىء[١] ، ومطلعها[٢] :

حل الأمير محلَّ رفدِ الرافدِ ومُبيحُ طارفَ مالِه والتالد

ومنها :

اليأسُ أزمنى محلَّ القاعد إذ ليس جَدِّى فى الجدود بصاعد
مالى حُرِمْتُ لديك حظوةَ خالدٍ أوَلستُ أقدمَ حرمةً من خالد
عوزُ الرجال أمامَ منّة خالدٍ والصيف نَفَّقَ سوقَ بردِ البارد
شخصانِ أمّا كان قبلهما الخنا حلاًّ لديك محلَّ عمرو الزاهدِ

---

(١) انظر كتابه ابو تمام الطائى ص١٠٦ .

(٢) القصيدة بالديوان ج٢ ص١٥١ .

ونرى أن هذه القصيدة فيها حس باليأس والحرمان وقعود الجد ، وأنها أشبه بشعره أول أمره ، ويخرج من ذلك بظنة أن أبا تمام اتصل بأبى سعيد فى خراسان قبل مقدمة مصر للمرة الثانية أى قبل سنة ٢١١ ، وربما يكون عرف عن طريقه آل حميد، ثم يعود فلا يستطيع أن يقطع بهذا الظن أو الاحتمال ، ويضع إلى جانبه احتمالا آخر هو أن اتصال أبى تمام به أول اتصال قد يكون سنة ٢١٤ لما مات محمد بن حميد وأن شعره هذا من أول محاولاته فى تلك الفترة[١] .

غير أن احتمال اتصال أبى تمام بأبى سعيد قبل سنة ٢١١ فى خراسان قبل مقدمه مصر المرة الثانية هو احتمال بعيد ؛ لأنه كان فى هذه الفترة متنقلا بين مصر والشام والعراق محاولا يثبت وجوده كشاعر له موهبته المتفوقة وفنه المتميز ، ولم يكن هناك مايدفعه إلى المغامرة بالرحيل إلى المشرق وهو فى طور النشأة يفتقر إلى الشهرة ويحتاج إلى زاد وافر من الثقة فى النفس . ولا يكفى كمبرر لهذه المغامرة أن أباسعيد كان من مرو — كما يقول الصولى[٢] — إذ لم تكن لأبى تمام معرفة به ،ولم يكن أبو سعيد فى ذلك الحين شخصية بارزة فى كيان الدولة ، ولو افترضنا أن أبا تمام كان يتوخى الاتصال بالمبرزين من طيء فى تلك الفترة ، لكان سعيه إلى ابن حميد أسبق من سعيه إلى أبى سعيد ، إذا كان ابن حميد أكبر رأس فى طيء ، ولكننا لا نجد دليلا على أنه اتصل به فى حياته ، وليست فى ديوانه قصيدة واحدة فى مديحه .

لم يبق لدينا إذن سوى أن نرجح القول بأن بداية اتصال ابى تمام بأبى سعيد كانت سنة ٢١٤ بعد ذيوع قصيدته فى رثاء ابن حميد ، إذ أن الدلائل المرجحة لهذا القول هى الأقوى ثبوتا ، والأكثر اتفاقا مع منطق الأحداث ووقائع التاريخ .

---

(١) أبو تمام الطائى ص١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) انظر أخبار أبى تمام ص٢٢٧ .

ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الصولى عن أولية مدح أبى تمام لأبى سعيد إذيقول « ومن أول شعر مدح به أبو تمام أبا سعيد قوله » :

من سجايا الطُلول ألاَّ تجيبــــا فصوابٌ من مقلتِى أن تصُوبا[1]

ونلاحظ أن مديح أبى تمام فى هذه القصيدة يدور حول جهاد ابى سعيد وغزواته فى بلاد الروم ، كما يتبين من قوله فيه :

وصليبُ القناةِ والرأى والإسـ ـلام سائلْ بذاك عنه الصليبا

وقوله :

لقد انصعتَ والشتاءُ له وجـــــه يراه الكماةُ جَهماً قَطوبا
طاعناً منحرَ الشمال مُنيحـــاً لبلاد العدوِّ موتاً جنوبا

وفى القصيدة ذكر لبعض المواضع فى بلاد الروم مثل حصن أكشوثاء . الذى يهمنا الآن هو تحديد زمن هذا الغزو الذى تضمنته القصيدة . والمرجح أنه كان سنة ٢١٥ هـ ، إذ يذكر اليعقوبى أن أبا سعيد وغيره من أصحاب ابن حميد قد صاروا إلى باب المأمون بعد مقتله[2] ، فضمهم إلى جيشه الذى غزا به بلاد الروم فى سنة ٢١٥ هـ وفى السنتين التاليتين لها[3] . ولا شك أن مشاركة أبى سعيد فى هذه

---

(١) أنظر المصدر السابق ، والقصيدة فى الديوان حـ١ ص١٥٥ .

(٢) أنظر تاريخ اليعقوبى حـ٢ ص٥٦٩ .

(٣) أنظر هذه الغزوات فى الطبرى وابن الأثير حوادث سنة ٢١٥ وما بعدها وفى اليعقوبى حـ٢ ص٥٦٩ وما بعدها .

الغزوات قد ساعد كثيرا على تهيئة الجو المناسب لمديح أبى تمام إياه ، وإشادته ببطولاته فى معاركها وبذلك توثقت صلته به فى هذه السنوات قبل أن ينظم مدائحه فيه خلال الحرب البابكية الأخيرة .

* * *

وقصائد أبى تمام التى أشاد فيها بجهاد أبى سعيد وبطولاته فى الحروب البابكية تمثل جانبا كبيرا من شعره فى هذه الحروب ، وتعد أكثر القصائد التى نظمت فى قائد من قوادها ، فهى حوالى تسع قصائد ، يمكن تقسيمها من الناحية التاريخية إلى قسمين: قسم نظمه فى الفترة المنحصرة بين وقعة أرشق وسقوط البذ ، والقسم الآخر فى الفترة التى أعقبت سقوط البذ وقتل بابك والقضاء على الخرمية قضاء نهائيا .

والقسم الأول يمكن حصر قصائده على أساس أنها تخلو من الحديث عن نهاية بابك أو الإشارة إلى أحداثها من قريب أو من بعيد ، وهى بذلك لا تعدو أربع قصائد . وإذا حاولنا تحديد أى منها نظم أولا لاقينا فى ذلك بعض العسر والصعوبة، لعدم توافر الدلائل التى تساعد على هذا التحديد ، ولتشابه الحديث والأحداث فيما بينها ، وإن كنا نلاحظ أن قصيدته الجيمية يدور حديثه فيها عن وقعة أرشق وحدها ، بينما تتضمن القصيدتان الأخريان أحداث وقائع أخرى غير أرشق ، منها ماكان قبلها ومنها ما كان بعدها .وقد عرفنا أن أبا تمام توجه إلى أبى سعيد فى آذربيجان بعد وقعة أرشق ، فلعله رأى أن يخص هذه الواقعة بقصيدة منفردة لما لها من أهمية تاريخية ، ولما كان لها من آثار حماسية غمرت نفوس المسلمين فى أرجاء الدولة ، ولعله رأى فيها فاتحة حماسية طيبة لمديح أبى سعيد ، يستطيع فيها أن يصول ويجول ويشفى ما ترسب فى أعماق نفسه من غل دفين منذ مقتل ابن حميد .

ونلمس من بداية هذه القصيدة[١] انفعال أبي تمام الشديد بأحداث ذلك الانتصار الساحق في موقعة «أرشق» على بابك وخرميته، وقد استحوذ على نفسه، وملك أزمة مشاعرها، فلم يتح له تصنع مقدمة تقليدية طويلة تبعده عن جوها الحماسي المتفجر، إذ نراه يوجز مقدمتها في بيتين اثنين يعبر فيهما عن إباء قلبه أن ينجذب لمحاسن المرأة، أو يفتتن بعذوبة ريقها وفلج أسنانها واحورار عينيها. وينهر عاذلته لتكف عن ملامته على هذا الإباء، الذى شحذته عزيمته في نفسه وفرجت به عن قلبه ذاك الولوع بجمال المحبوب وتلك اللهفة في الشوق إليه:

أبىَ فلا شَنَباً يهوَى ولا فَلَجاً ... ولا احْوِراراً يراعيهِ ولا دَعَجا[٢]

كُفِّي فقد فرَّجَتْ عنه عزيمتُه ... ذاكَ الوُلوعَ وذاكَ الشوقَ فانفرَجا

إن الإباء الذى يذكره أبو تمام معتزا فخورا ليس إلا نتيجة الفرحة التي غمرت قلبه ابتهاجا بذلك النصر المبين، فلم تترك فيه مكانا للمرأة، ولم تدع لمحاسنها أن تفتنه أو تلهب وجدانه ولعا بها وشوقا إليها، وهذه الفرحة ولدت في نفسه عزيمة قوية على المشاركة في معارك الحرب البابكية، مشاركة تتفق مع طبيعته كشاعر تملك قوة الكلمة وعدة اللسان.

ويعجل أبو تمام بعد هذين البيتين باقتحام موضوعه الحماسي، الذى شد أوتار شاعريته شدا قويا. فحوادث موقان قد قصمت ظهور الخرمية وأطاحت برءوسهم، وأهلكت منهم من طالما بغى وتجبر، وفتحت أبواب منعتهم التي ظلت موصدة في وجوه جيوش الدولة زمنا لم تستطع فيه أن تفتح منها بابا:

---

(١) أنظر القصيدة في ديوان أبي تمام شرح التبريزي جـ١ ص٣٣٢ وما بعدها.

(٢) الشنب: ريق الفم. الدعج: سواد العين.

كانت حوادث فى موقانَ ماتركَتْ للخُرَّمِيةِ لا رأساً ولا ثَبجَا[١]
تَهَضَّمتْ كلَّ قَوْمٍ كانَ مُهتَضِماً وفتَّحتْ كلَّ بابٍ كانَ مُرْتَتِجا

وأبو تمام إذ يذكر وقائع هذه الحرب بأنها « حوادث فى موقان » إنما يعنى أحداث تلك المعركة التى دارت رحاها عند حصن « أرشق » بالقرب من بلدة « موقان » ، وهى أكبر بلاد هذه المنطقة التى عرفت باسمها ، وقد سبق أن عرفنا من أحداث التاريخ أن بابك بعد فراره من هذه المعركه دخل « موقان » فأقام بها أياما حتى جاءه مدد من رجاله خرج به إلى « البذ » . فلم تكن هناك إذن معركة فى بلدة « موقان » نفسها .

ولا يلبث أبو تمام أن يعلن عن اغتباطه الشديد ببطولة القائد الطائى أبى سعيد محمد بن يوسف ، مفصحا عن نزعته القومية أو القبلية فى فخر واعتزاز ، فمحمد قد ربض للأعداء بحصنه فى أرض « خش » ، وأناخ بكلا كله فى قلب ديارهم ، متصديا لكيدهم ، ملقيا بنفسه فى مواجهة خطرهم غير هياب ولا وجل . وإن قومه الطائيين على حبهم له وعزه فيهم لم يكن يسرهم أن يبقى لهم حيا مخلدا ، وأن قائدا سواه ينزل الخرمية من صياصيهم فى الجبال ليوقع بهم تلك الهزيمة القاصمة . فسرورهم بانتصاره عليهم وقيامه بهذا العمل الجليل هو عندهم أبلغ فى نفوسهم أثرا وأحرى بأن يبعث فيها الفرحة والابتهاج :

أبلِغْ محمداً المُلقِى كلاَ كلَهُ بأرضِ خُشَّ أمامَ القومِ قد لَهِجا
ما سرَّ قومَكَ أن تبقَى لهم أبداً وأنَّ غيرَكَ كانَ استنزَلَ الكَذَجا[٢]

---

(١) الثبج : الظهر ، وثبج كل شىء معظمه .

(٢) ذكر التبريزى فى شرحه أن الكذج موضع بعينه ، ولكنه شرحها فى =

ويشرح التبريزي قوله « قد لبجا » من الناحية اللغوية على أنه من قولهم : لبج بالرجل إذا ألقى نفسه إلى الأرض من تعب أو مرض ، ولما كان هذا الشرح لا يفي بالمعنى الحقيقي أو المناسب الذي أراده أبو تمام ، فإن التبريزي يزيده توضيحا بذكر واقعة أو عملية بداثية قام بها محمد بن يوسف في هذه الحرب : هي كما يزعم أصحاب الأخبار أن العدو أوقد في طريقه نارا ، وكان طريقا ضيقا يريدون أن يصـــدوه بذلك ، وأنه رمى بنفسه على النار ولبس ثياب النفاطين على الحديد .

وهذه الواقعة لم يرد ذكرها في أي مصدر من مصادر التاريخ ، وهذا لا يمنع من احتمال وقوعها لأن المصادر لا تورد كل التفاصيل . ثم إن أساليب الخرمية التي عرفناها في حروبهم ، والتي تقوم خططها على نصب الكمائن والتربص بجيوش المسلمين. تقوى احتمال وقوع هذه الحادثة إلى حد كبير .

ويواصل أبو تمام حديثه عن وقائع تلك الحرب مغتبطا فخورا ، فما أحلى الحديث عن نصر كان بعيد المنال ، وما أحب إليه من أن يردد الناس الحديث عنها ما شاء لهم أن يرددوا ، ولا حرج عليهم في أن يقصوا من أخبارها ماشاء لهم أن يقصوا. فقد محا سيف أبي سعيد ظلام الفساد الذي غشى أنحاء تلك البلاد نتيجة سيطرة الخرمية عليها ، وأعاد إليها نور الحق والعدل إذ اجتث أصول هؤلاء الظلمة الفجرة ، بعد أن كانت موازين القيم قد اختلت بها ، وقلبت أوضاع مجتمعها رأسا على عقب ، فأذل أعزاؤها وحماتها من رجال السلام ، وأخضعوا تحت سيطرة طغمة من سفلة الناس ورعاعهم ، حكمتهم فيهم تلك الفتنة الهمجية التي أثارها الخرمية وقوضوا بها دعائم المجتمع ومبادئه الإسلامية :

= قصيدة أخرى ح٢ ص ٢٨ على أنها كلمة فارسية بمعنى البيت المسكون وأن هذا الموضع سمي بذلك . والواقع أنها ليست اسماء لموضع وأن أبا تمام يعني بها معقل الخرمية في الجبل.

لما قرَا الناس ذاكَ الفتحَ قلتُ لهمْ وقائعٌ حدَّثوا عنها ولا حرَجا
أضاءَ سيفُك لما اجتُثَّ أصلُهمُ ما كان من جانبَيْ تلك البلادِ دَجا
من بعدِ ما غُودِرتْ أُسْدُ العرينِ به
يتْبعْنَ قسْراً رَعاعَ الفتنةِ الهَمَجا[1]

إن هذا العمل العظيم الذى قام به أبو سعيد هو فخر لقومه بنى نبهان ، الذين عهدوا منه أمثال تلك الفعال الماجدة التى تبدو كأنها السرج المنيرة فى سماء العـــلا والمجد ، وإذا كان للذكر الطيب أريج يفوج من براعته وجماله ،فإن ذكر أبى سعيد قد فاح أريجه فى الآفاق ، وغمر عبيره أجواء الحياة .

لا تعدَمَنْ بنو نَبْهانَ قاطِبةً مشاهداً لك أمسَتْ فى العُلا سُرُجا
إن كان يأرَجُ ذِكْرٌ من براعته فإن ذِكرَك فى الآفاقِ قد أرِجا

وبعد هذا الحديث العام عن بطولة أبى سعيد وأعماله العظيمة ينتقل أبو تمام إلى ذكر وقعة « أرشق » وبلاء أبى سعيد فيها ، مستخدما كل عتاده الفنى فى الوصف والتصوير ، فيشتق من المادة اللغوية لكلمة أرشق صيغة يبنى عليها صورة فنية مبتكرة ، إذ يجعل الآمال فى ذلك اليوم مرشقة إلى أبى سعيد لا تتحول عنه ، ولا تبتغى منعرجا إلى سواه . فهى ترشق النظر إليه وتدعه باعتباره بطلها الذى بيده تحقيقها ، والذى أنيطت به دون غيره لكى يجعل منها واقعا ثابت الحدوث . ثم صور تنكيله بالأعداء .

---

(١) يشرح التبريزى هذا البيت بمعنى أنه « ترك قواد الكفار وكبراءهم أسرى أوباش المسلمين يتبعونهم » ، وهو خطأ واضح يخالف مقصد أبى تمام . وصحة المعنى كما ذكرنا فى تحليل البيت .

تصويرا مبتكرا بطريقته الفنية المعروفة فى العارية ، إذ استعار «الخلف» للمكروه» وشفع ذلك باستعارة الفطام ليرسم صورة يجعل فيها أبا سعيد وقد ارضع الأعداء خلف مكروه ، فطمهم به عن الحرب وعن اللهج بها أو إبداء الولوع بشنها ، أو بمعنى أنه أرضعهم لبن بأسائها وضرائها حتى أضجرهم فصدوا عنها بفضالها وجزعا من ضيرها ، بعد أن كانت عملا محببا إلى نفوسهم يغريهم ويجذبهم ، قبل أن يوقع بهم أبو سعيد تلك الوقعة المنكرة :

ويومَ أرْشقَ والآمالُ مُرشِقة إليك لا تبتغى منك مُنعرَجا
أرضعتَهُمْ خِلفَ مكروهٍ فَطمْتَ به من كان بالحرب منهمْ قبله لِهجا

إن هذه الأيام الظافرة لأبى سعيد هى جهاد مشرف فى سبيل الله ، بها أحكم أمر دينه ، وأرسيت مبادئه وتعاليمه ، بعدما تعرض له من المرج والإضطراب ، وبها اشتد حبل الهدى قوة ومتانة ، فصار مغار محكم الفتل ، يستمسك به المؤمنون فى ثقة وإطمئنان .وإن ما ناله المسلمون من الظفر بالخرمية يجعل هذه الأيام تمر بهم قصيرة سريعة كأنها الساعات ، لما يغمر نفوسهم من الفرحة والابتهاج ، بينما تمر على بابك وخرميته طويلة وثقيلة كأنها السنين لما غشيهم من الكرب والغم ، وذلك أمر يتوافق مع طبيعة النفس الإنسانية التى تفقدها الفرحة إحساسها بالزمن ،ويعمق الحزن إحساسها تجاهه .

لله أيامُك اللاتى أغرْتَ بها ضَفْرَ الهُدَى وقديمًا كان قد مَرَجا[1]
كانت على الدين كالساعاتِ من قِصَرٍ وعدَّها بابكٌ من طولها حِجَجا

---

(١) يقال أغرت الحبل إذا أحكمت فتله . والضفر : فتل ليس يبلغ فى القوة
مرج : اضطرب .

ومن النتائج البارزة لانتصار أبى سعيد أنه ازداد قوة ومنعة ، واتسمت تحركاته فى ربوع تلك المنطقة بالجرأة والثبات ، والتحفز للوثوب على العدو أينما كان ،فلم تعد هناك خشية من عصاباته ، وكائنه التى كانت تملأ الفجاج ،وتقطع الطرق وتنقض على جند المسلمين وقوافلهم . وأصبحت الأرض أمام أبى سعيد فضاء فسيحة يدلف فى دروبها برجاله فى أمان وثقة واعتداد . بينما انكمش بابك وخرميته فى شعبيه محصورا لا يستطيع الحركة إلا فى أضيق نطاق ، وقد استبد به الهلع ، فلم يعد يجرؤ على الخروج والتربص لجيوش المسلمين كما كان يفعل من قبل .

وإن كتائبه التى كانت تعج بها الوديان والجبال فترى كأنها لجج البحر اهول تدفقها ، قد عادت ضحاضح هينة ضعيفة القوة والحول بعد أن صدمها أبو سعيد وشتت شملها تشتيتا :

أصبحتَ تَدْلف بالأرض الفضاء له نَصْباً وأصبح فى شعبَيْه قد كَحِجا (١)
عادتْ كتائبه لما قَصَدْت لها ضحاضحاً ولقد كانت تُرى لُجَجا

إن الخرمية قد لجوا فى كفرهم وعصيانهم ، وأبوا أن يستجيبوا لنداء الحق أو يقتنعوا بحجج القرآن الواضحة المبينة ، فلم يكن أمام أبى سعيد من بد إلا أن يعمل سيوفه فى هاماتهم ليجعل منها حججا تقنعهم بأنهم فى ضلالة من أمرهم وبأن هذا المصير هو مصير الباطل الذى انغمسوا فيه لعلهم يرجعون إلى طريق الحق والهداية :

لما أبَوْا حُجَجَ القرآنِ واضحةً كانت سيوفُك فى هاماتهمْ حُجَجا

---

(١) تدلف : من الدليف وهو المشى الرويد . نصبا : من قولهم نصب للشيء إذا قصد قصده . وقال ابن المستوفى : يجوز أن يكون من قولهم نصبت لفلان نصبا إذا عاديته . لحج فى المكان الضيق إذا نشب فيه .

ويصف أبو تمام كتيبة أبى سعيد التى استقل بها بابك بأنها فخمة وضخمة ، جأواء يعلوها صدأ الحديد الذى يدرع به فرسانها ، وغبرة المعارك التى طالما خاضوها ، وبأنها منتظمة مستوية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فلا يشذ فارس من عن نظامها ، ولا يتزحزح عن مكانه الذى وضع فيه ، وكأنما أراد أبو تمام بهذا الوصف أن يثبت الصورة المثالية للكتيبة الإسلامية كما وردت فى الآية الكريمة « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . فإذا علا رهج القتال ، وغمر أجواء المعركة غبار النزال ، جاءت سيوفها البيض الصوارم وأسنتها الزرق الذوابل ذلك الرهج وقشعت غيم الغبار . وإذا ما رأى أبو سعيد غمرة للموت قد ارتفع لججها خاضها بكتيبته تلك ، واجتازوا عبابها الزاخر بالأرواح والمهج ، وغمروها بالدماء التى تسيلها ثغرات طعانهم وبترات سيوفهم . فما تلقاهم نفس من نفوس الأعداء إلا أوردها مورد الهلاك وأنزلوا بها الموت المحتوم :

أقبلتَه فخمةً جأواءَ لستَ ترى ... فى نظمِ فُرسانها أمْتاً ولا عوجا
إذا علا رهجٌ حلَّت صوارمُها ... والذُّبَّلُ الزُّرْقُ منها ذلكَ الرَّهَجا
بيضٌ وسمرٌ إذا ما غمْرةٌ زخرتْ ... للموت خُضْنَ بها الأرواحَ والمُهَجا
نزّالةً نفسَ من لاقتْ ولا سيما ... إن صادفتْ ثُغْرةً أو صادفتْ ودَجا

والقائد الناجح لا يحقق الظفر بالشجاعة وشدة البأس فحسب ، بل يلزمه إلى جانب ذلك قدر كبير من الحنكة وحسن التدبير وصواب الرأى ، وأبو تمام فى مديحه لأبى سعيد يتوخى وضعه فى الصورة المثالية للقائد الذى اجتمعت فيه عناصر النجح مكتملة ، وقد أفاض فى الحديث عن شجاعته وبسالته وإقدامه أيما إفاضة ، ويبقى أن يستكمل بقية الصفات التى تتصل بالرأى والتدبير . فنراه لا يصفه وصفا مباشرا بالتميز فى ذلك ، وإنما يربطه بقائدين عظيمين من أسلافه الطائيين هما حميد بن قحطبة

الذى شارك فى إقامة دولة بنى العباس وتثبيت أركانها فى عهد السفاح والمنصور ، وحميد الطوسى أبو محمد شهيد حرب بابك ، والذى أشتهر أمره فى عهد المأمون ، حين قضى على الفتنة فى بغداد ، ووطد الأمور فيها قبل قدومه إليها من خراسان سنة ٢٠٢ هـ . فرأى أبى سعيد من رأى هذين الحميدين فى صوابه وإحكامه، وهو على درجة كبيرة من المرونة بحيث يتلاءم مع الحرب ومتغيراتها ومفاجآتها، كى يحرز النصر المأمول . ويصور أبو تمام هذا المعنى فى صورة من ابتكاره الذكى ، إذ يجعل أبا سعيد ملقحا أمور الحرب برأيه لتنتج له نتاجها من الغلبة والنصر ، ثم يدعم سداد رأيه وحكمة تصرفه على لسان الحميدين ، فلو أنهما عايناه وشاهدا فعله ونتاج رأيه لقالا فى ابتهاج وجذل ، إنك أبرحت وأتيت بالعجب ، وأثبت تفوقا يدل على أصالة العرق الطائى ، وامتداد صفاته الوراثية فيـــك . وإن من الأمور الطبيعية فى الإنسان أن تتصل فيه وشائج القربى حاملة وجوه التشابه بينه وبين أسلافه:

رأىُ الحُمَيْـدينِ ألقحْـتَ الأمورَ به   من ألقحَ الرَّأىَ فى يوم الوَغَى نَتَجا
لو عايناكَ لقالاَ بَهْـجَـةً جذَلاً   أبـرَحْـتَ أيْسَـرُ ما فى العِـرْقِ أن يَشِـجا

ومن سمات سداده فى الرأى وحنكته فى تدبير الأمور ما يتصف به من حزم وسعة صدر وعلو همة وبعد نظر ، فإذا ادلهمت الأمور واشتد عرام الفتنة لم يقف أمامها فى حيرة وارتباك ، ولم يضق صدره جزعا من هولها ، وإنما يجابهها بحزمه الحاسم وهمته القعساء ، ويكشف حقيقها وأبعادها بحكمته الصائبة ونظرته الفاحصة، فيتمكن من قهرها واحتوائها . وقد أنس فيه ساكنو ثغر آذربيجان تلك المقدرة الفذة فى مجابهة الشدائد فاطمأنوا إلى قيادته ، ووضعوا فيه ثقتهم الكاملة فلم تعد تعنتهم صروف الدهر وتقلباته مادام فيهم ، وسموا حسامه كرب العداة فى الهيجاء ، كما سموا رأيه الفرج فى الشدائد :

أحطْتَ بالحزم حَيزوماً أخا همم ... كشّاف طخياء لاضيقاً ولا حرجا[1]

فالثغرُ والسّاكنوه لا يؤودهمُ ... ما عشْتَ فيهم أطارَ الدهرُ أمْ درجا

سمَوْا حُساماً لك والهيجاء مُضْرمةٌ ... كرْتَ العُداة وسمّوا رأيك الفرجا

ويشير أبو تمام إلى نجاة بابك وفراره ، بعد الهزيمة التى حاقت به فى هذه المعركة، فيفضح جبنه ونذالته ، ويقول : إنه إذا كان نجا منك فهذا قدره الذى لا مرد له ، ولكن سله كيف نجا ؟ والجواب على ذلك معروف تؤكده أحداث المعركة ، فما نجاته إلا فرار من الموت الذى أحدق به ، وأفنى جل رجاله ، وقذف فى قلبه الرعب، وأظهر حقيقة جبنه وتخاذله ، وفقدانه لأسباب الكرامة والإباء . وشتان بين موقفه هذا وبين موقف محمد بن حميد الذى آثر الموت على الفرار . إنه الفرق بين أخلاق الدعى الجبان وأخلاق الفارس البطل . فليست نجاته إذن عملا مشرفا فى أعراف الفروسية وإنما هى عار يلحق به مدى الزمن ، ويطفىء هالة الجبروت التى صنعتها فعاله الدنيئة وسفكه لدماء الأبرياء . وإنه بعد نجاته قد احتمى بين الصخور الصماء فى أعلى الجبال ، حتى يصعب إدراكه والوصول إليه ؛ وذلك لشدة انخلاع قلبه هلعا ورعبا . ولا شك أن إفلاته من الموت قد أغاظ أبا تمام كما أغاظ كل مسلم ، لذا نراه يستحث أبا سعيد على ملاحقته وتتبعه ، وأن ينحت برأيه السديد درجا فى أوعار الصخور ليصعد إليه فى قلعته المنيعة العالية ، وأن يغاديه بسيوف رجاله التى طالما شهرت فى وجوه هؤلاء الخرمية وأطاحت برءوسهم ، ولكنها أخلفت هذا المترف لما كان يرجوه من حياة المتعة واللذة التى تدعو إليها عقيدته المفسدة :

---

(١) الحيزوم : الصدر . الطخياء : الليلة المظلمة ، وأراد بها هنا الفتنة .

إن يَنَجُ منك أبو نصر فمن قَدَرٍ   تنجو الرجالُ ولكن سَلْه كيف نجا
قد حلَّ فى صخرة صمَّاء مُمَنَّعَة   فَنَحتْ برأيك فى أوعار هادَرَجا
وعاده بسيوفٍ طالما شُهِرَتْ   فأخلفت مُقْتَرَفًا ما كان قبل رَجَا

ونلاحظ أن البيت الأخير من هذه الأبيات فيه قصور واضح وضعف فى التركيب، خاصة فى شطره الثانى ، الذى لا تبين ألفاظه عن معنى واضح ، أو لا تفى بمقصد الشاعر ، مما يضطرنا إلى الاجتهاد فى تأويله ومحاولة استشفاف المعنى الذى يقارب عباراته بقدر الإمكان ، وأغلب الظن أن هذا البيت تعرض لتحريف فى روايته أو تصحيف فى ألفاظه فوصل إلينا على تلك الصورة ؛ وإن لم يشر محققه إلى ذلك؛ وكل ما ذكر عن الخلاف فى روايته لا يتعدى الكلمة الأولى منه التى رواها الصولى « وعاذة » بدلا من « وعاده »[1] .

ويواصل أبو تمام تحريض أبى سعيد على الإنتقام من بابك ، وإعداد العدة له من رباط الخيل الجرد الضوامر المدربة على الحرب ؛ وعلى خوض قتامها الذى ينسجه وغاها ، ومن الفرسان المغاوير والبواسل ، الذين ينتهجون نهجه فى الشجاعة والإقدام ؛ والجديرين بأن يلقبوا باليوسفيين نسبة إليه ، والذين تحسبهم لجسارتهم وجرأتهم على إقتحام الأخطار هوجاً حمقى ، وإن كانوا فى حقيقتهم متزنى العقول سليمى الطبائع ، فكل بطل منهم يرى الإقدام مبدأ من مبادىء الفروسية التى تربى وتأدب بآدابها . وقد تمكنت من نفوسهم دوافع الثأر والإنتقام لمقتل محمد ابن حميد قائدهم الطائى السابق الذى ثوى شهيدا بتلك الأرض ، فما زالوا يذكرونه فتخنقهم العبرات ، ويعلو نشيجهم حسرة على فقده ، وتشاركهم رماحهم أحزانهم كأنما تشعر بما يشعرون ، فتنعاه معولة صارخة بالثأر من هؤلاء القتلة الباغين :

---

(١) أنظر شرح البيت والتعليق عليه فى الديوان حـ١ ص٢٣٩ .

وشُزَّبٍ مُضمَرات طالما خرقتْ   من القَتام الذى كان الوغى نَسَجا
ويوسفيين يومَ الرَّوْعِ تحسبهُم   هُوجاً وما عرفوا أفْناً ولا هوَجا
من كل قَرْمٍ يرى الإقدامَ مأدُبةً   إذا تَخَدَّ امُعْمِلاً بالسيف أو وَسَجا[1]
تَنعى محمداً الثاوِى رماحُهُمُ   ويسفحُون عليه عَبرةً نشَجا

وأبو تمام حين يستعيد ذكرى الشهيد محمد بن حميد مطالبا بثأره ، يدرك تماما أن حديثه هذا له وزنه وتأثيره ؛ فهو يوجهه إلى قائد طائى تربطه بابن حميد وشائج القربى والدم ، والثأر عند العربى واجب مقدس يبذل فى سبيله أغلى ما يملك . وما من شىء يثير ثائرته ، ويدفعه إلى التضحية وركوب الأخطار قدر ما يفعل الثأر . وأبو تمام فى موقف التحريض والإثارة يضرب على هذا الوتر الحساس ليبلغ مأربه . وقد أحيا فى نفسه انتصار أبى سعيد ذلك الأمل الذى كاد يذوى ويموت ، وأيقظ فيها النعرة القبلية الداعية إلى الأخذ بالثأر مهما طال الزمن . وذلك هو الظرف الأنسب لإثارة هذا الأمر .

ويزيد أبو تمام من إثارته لحمية أبى سعيد ، إذ يذكر ابن حميد فى ملاقاته للموت مقداما شجاعا ، لا يتقى وقعه . ولا يطلب نجاة منه أو احتماء من شره . ليقول إنه كان يعلم، وهو فى هذا الموقف، أن أبا سعيد سوف يعود إلى قاتليه بجيش من الفوارس الأبطال . سارين فى الليل مدلجين . يحملون الردى لهؤلاء الأعداء . لينتقموا شر انتقام . ولو لم يكن واثقا من هذه الحقيقة لما لاقى منيته فرحا مستبشرا .

---

(١) المأدبة هنا بمعنى التأديب . والوخد والوسج : ضربان من السير أكثر ما يستعملان فى الإبل والنعام ، وقد يستعاران لغيرهما .

قد كان يعلمُ إذْ لاقَى الحِمامَ ضُحىً ... لا طالباً وَزَراً منهُ ولا وَحَجا[1]

أن سوفَ تَهدِى إلى آثاره بُهُماً ... يَمْشى الرَّدَى مُشْمِراً فيها ومُدَّلجا[2]

لو لم يكنْ هكذا هذا لَدَيْهِ إذاً ... ما مات مُقْتَبِشراً بالموت مبتَهِجا

وهكذا أفرغ أبو تمام شحنة النقمة التى كانت تنوء بها نفسه منذ مقتل ابن حميد، وألقاها فى قلب أبى سعيد، كأنما هى أمانة قومه حملها عنهم كى يسلمها إلى ذلك القائد الطائى الذى ساقه قدره ليؤدى واجبه نحوهم ويأخذ لهم بثأرهم، ويشفى غليل نفوسهم.

ويختم أبو تمام قصيدته ببيت أخير يستجمع فيه الإشادة بما حققه أبو سعيد من عمل عظيم وفعل جميل، لا يضاهى البدر صورته فى الحسن والبهاء، بل يبدو بالنسبة إليها قبيحا سمجا:

لو أنَّ فعلَك أمسَى صورةً لثَوَى ... بدرُ الدُّجى أبداً من حُسنها سَمِجا

* * *

والقصيدة الثانية التى نظمها أبو تمام فى هذه الفترة مشيدا ببطولة أبى سعيد هى التى يقول فى مطلعها[3]:

يا بُعدَ غايةِ دمعِ العينِ إن بَعُدوا ... هى الصبابةُ طولَ الدهرِ والسُّهُدُ

---

(١) الوزر: الجبل المنيع أو المعقل. الوحج: الملجأ

(٢) البهم: جمع بهيمة وهو الفارس الذى لا يدرى كيف يؤتى له، كأنه قد أبهم أمره.

(٣) أنظر القصيدة فى ديوان أبى تمام شرح التبريزى ج٢ ص١٠ وما بعدها

ومقدمة هذه القصيدة لا تتجاوز خمسة أبيات يتحدث فيها عن رحيل الأحبة وفراقهم وما يعانيه من لوعة الصبابة وحرقة الشوق معاناة تجعله يشبه البين بالموت أو ينسبه إليه ، يقول بعد المطلع :

قالوا الرَّحيلُ غداً لاشكَّ قلتُ لهم … اليومَ أيقنتُ أن اسمَ الحِمام غدِ
كم من دمٍ يعجزُ الجيشُ اللُّهامَ إذا … بانوا استحكمَ فيه العِرمسُ الأُجُدُ [1]
ما لامرىءٍ خاض في بحرِ الهوى عُمُرُ … إلا وللبينِ منه السَّهلُ والجَلَدُ
كأنما البينُ من إلحاحه أبداً … على النفوسِ أخُ الموتِ أو ولدُ

وينتقل من هذه المقدمة التقليدية إلى موضوع قصيدته إنتقالة بارعة ، إذ يجد شفاء نفسه من ضنا الفراق والأشواق فى تلك المعارك الظافرة التى تخوضها خيل ابن يوسف ، فسروره بها يملأ جوانب نفسه بشاشة وغبطة ، ويمحو ما يخالط مهجته من كمد وكرب :

تداوَ من شوقكَ الأقصى بما فعلت … خيلُ ابن يوسفَ والأبطالُ تطَّرِدُ
ذاك السرورُ الذى آلتْ بشاشتهُ … ألا يجاورَها فى مُهجةٍ كَمَدُ

ثم يصف لقاء أبى سعيد بأعدائه الخرمية فى حومة الوغى ، حيث يشتد البأس ويفرض الموت الزعاف وجوده على الساحة ، بينما تفتقد الأرواح وتزهق ، السيوف البيض قد أصلتت لترتع فى مرتع خصيب تحصد الرقاب حصدا ، والرماح السمر قد أشرعت لتنهل من منهل ثر لا تنضب فيه الدماء النازفة . والمنايا طوع أبى سعيد تأتمر بأمره ، فلا ترده ولا تدفعه ، فهو القائد المخلص لمبادئه ، المؤمن بغاياته : الصادق فى نواياه ،

---

(١) اللهام : الذى يلتهم كل شىء ، العرمس الأجد : الناقة الشديدة الموثقة الخلق.

الذى يتسع رحب صدره للملمات الجسام اتساعا لو أن الأرض بلغت مبلغه لما ضاقت فيها بلد بأهلها ، وهذه القوى المعنوية التى يقتحم بها الخطوب طالما ضمنت له النتائج الظافرة فأوفت بما ضمنت ، وحققت المأمول منها :

لقيتَهم والمنايا غيرُ دافعةٍ ... لما أمرتَ به والملتقى كَبَدُ
فى موقفٍ وقفَ الموتُ الزؤاف به ... فالموت يوجد والأرواح تفتقد
فى حيث لا مرتعُ البيضِ الرقاقِ إذا ... أصلتْنَ جدبٌ ولا ورْدُ القنا ثَمَدَ
مستصحباً نيةً قد طالَ ما ضمنتْ ... لك الخطوبَ فأوفتْ بالذى تعد
ورحبَ صدرٍ لوانّ الأرضَ كوُسْعِهِ لم يضقْ عن أهلها بلَدَ

وقد صد أبو سعيد سيل هجوم الأعداء وصدعه تصديعا ، وهو فى قلة من أصحابه البواسل أهل الحفاظ والنجدة ، فلا تجد فيهم ضعيفا ولا جبانا ، إنهم قد خلصوا وصفوا صفاء الماء الصراح ، لا يعلوه زبد خواء ، وكل فارس منهم إذا تجرد للقاء لم يتهاون ولم يتقاعس ، بل أثار الرعب فى قلوب الأعداء ، حتى إن المنون نفسها لترتاع من فعله ، وتراه من شدة حنقه حين ينازل قرنا منهم ينقض على نفسه انقضاضا لينتزعها من جسده ، دون اعتبار لسنانه المشرع .

وهؤلاء العصبة وإن كانوا قلة فى عددهم ، فإن صدقهم فى الجهاد ، وصبرهم فى الجلاد ، جعلهم يبدون كثرة ، كأنما أمدهم الصبر بجيش من جنده لا يحصى له عدد. وإذا لاح لهم عارض المنايا لم يتقوه بدروع الحديد والزرد ، وإنما لبسوا له دروعا من اليقين الحق والإيمان المخلص بمبادئهم السامية وغاياتهم الخيرة ، فلا يستغيثون طلبا لنجدة ، ولا يصرخون احتياجا لمدد ، لأن ذلك فعل دنىء من فعال الجبناء ،

وإنما نجدتهم فى ثباتهم واستبسالهم ، ومددهم فى سيوفهم التى تتهاوى ضرباتها على رءوس أعدائهم متلاحقة قاطعة :

صدَّعتْ جريتَهم فى عصبةٍ قلُل	قد صرّح الماء عنها وأنجلى الزَّبَد
من كلّ أروعَ ترتاع المنون له	إذا تجرّدَ لا نِكس ولا جحد[1]
يكاد حين يلاقى القِرنَ من حَنقٍ	قبلَ السِّنانِ على حوبائه يرد[2]
قلّوا ولكنّهم طابوا فأنجدَهم	جيشٌ من الصّبر لا يُحصَى له عَدَد
إذا رأوا المنايا عارضاً لبسوا	من اليقين دروعاً مالها زَرَد
نأوا عن المصرخِ الأدنى فليس لهم	إلا السيوفَ على أعدائهم مَدَد

ويذكر أبو تمام واقعة نجاة معاوية ، وهو أحد قواد بابك ، هذه الواقعة التى حدثت بعد انهزامه أمام أبى سعيد فى أول معركة دارت رحاها فى تلك الفترة ، التى كلف فيها أبو سعيد برم الحصون وتأمين الطرق ، كما عرفنا من عرض أحداث التاريخ . وقد نجا معاوية فرارا من الموت الذى طوقه به أبو سعيد ورجاله ، وبعد أن حكموا القنا فى عصابة الخرمية التى كانت تحت قيادته ، ولكن قدره أبى أن تكون نهايته فى تلك الآونة ، فما زال له من العمر أمد مكتوب . ويعقد أبو تمام مقارنة أو مشابهة بين أسباب نجاته وأسباب نجاة سميه معاوية بن أبى سفيان فى معركة « صفين » المشهورة ، وكأنما يريد أن يقول : إن القدر ليس هو العامل الوحيد فى نجاتهما ، وإنما يضاف إليه عامل الجبن الذى دفعهما إلى الفرار من الروع ، ثم يعود أبو تمام إلى حديثه عن معاوية الخرمى هذا ، الذى انفلت يركض طليقاً رغم أنف

---

(١) النكس : الضعيف الذى لا خير فيه . الجحد : القليل الخير

(٢) حوبائه : نفسه

الموت ، إلا أنه أصبح مشئوما شؤم « لبد » نسر « لقمان » فقد ارتبطت وفاة لقمان برؤيته لذلك النسر ، ومن ثم ضرب به المثل فى الشؤم . ويغاير أبو تمام أسلوب حديثه عن معاوية ، إذ يشهد له بالشجاعة ورباطة الجأش لمجرد أنه رأى أبا سعيد فلم يبطش به الفزع لرؤيته ، وأنه مادام قد عاش يوما بعد ذلك ، فهو فارس نجد شجاع . وأبو تمام فى أسلوبه هذا لا يعنى حقيقة ما وصف به معاوية وإلا وقع فى تناقض بين ، وإنما يعنى ما وراء ذلك من تصوير رهبة أبى سعيد التى تبعث الروع فى نفوس أعدائه ، وتكاد تقضى عليهم من شدة هولها :

ولىَّ معاويةٌ عنهم وقد حكَمَت	فيه القنا وأبى المقدار والأمَد
نجَّاك فى الروع ما نجَّى سميَّك فى	صِفِّينَ والخيل بالفرسان تَنجَرِد
إن تنفلت وأنوف الموت راغمةٌ	فاذهب فأنت طليق الركض يا لُبَد[1]
لا خلقَ أربط جأشاً منك يوم ترى	أبا سعيد ولم يبطش بك الزَّوَد
أما وقد عشتَ يوماً بعد رؤيته	فافخر فإنك أنت الفارس النَّجِد

ويركز أبو تمام على هذا المعنى الأخير ، مصورا أبا سعيد فى صورة الأسد ، الذى لو عاين مرآه أسد حقيقى تملكه الرعب ، واظنه أسدا مثله ، وما من لوم عليه فى ذلك لأنه لم يكن يتوقع أن يكون من البشر شخص على شاكلته ، ويعقد أبو تمام مقارنة طريفة بين هذين الأسدين ، فهما — رغم هذا التشابه — متباينان ، والفرق بينهما يتجلى فى أن أبا سعيد يحمل على كتديه مثقلات الأمور ، بينما يحمل الأسد على كتديه اللبد من الشعر :

---

(١) لبد : اسم النسر الذى مات عند رؤيته لقمان وكان هو النسر الرابع : كلما رأى نسرا منها عاش بعده ألف سنة ، إلا هذا اللبد الذى مات عند رؤيته ، فصار اسمه يتشاءم به .

لو عايَنَ الأسدُ الضِّرغامُ رُؤيتَهُ ... ما لِيمَ أن ظنَّ رعباً أنه الأسد

شتّانَ بينَهما فى كلِّ نازلةٍ ... نهجُ القضاءِ مبينٌ فيهما جَدَد

هذا على كَتَديه كلُّ نازلةٍ ... تُخشى وذاك على أكتادِهِ اللِّبَد

ويعود لمواصلة حديث الحرب وبلاء أبى سعيد فيها ، فيذكر وقعته فى الخرمية بقيادة معاوية الذى سبق ذكر فراره ، ونراه هنا يحدد مكان الوقعة فى « سندبايا » بينما لم تحدد مصادر التاريخ مكانها ولم تذكر لها اسما ، وبذلك يضيف أبو تمام إلى معلوماتنا التاريخية شيئا أغفله المؤرخون .

ويصور أبا سعيد فى هذا اليوم مثلا للقائد المحنك الذى لاتعييه مشكلة ولا يهزه احتشاد الروع واحتدام القتال ، ويتساءل أبو تمام عن العامل الفعال الذى نكل بهؤلاء الأعداء ، أو الذى كان وحده أنكأ وأشد تمزيقا لكتائبهم ، هل كان أبو سعيد بحنكته وحزمه فى قيادة المعركة ؟ أم كان سيفه البتار فى إطاحته بالرءوس وتمزيقه للصفوف ؟ أم كان يوم الأحد فى ساعة نحسه كما يقول المنجمون ؟ وهذا التساؤل لا يعنى انفراد أحد هذه العوامل الثلاثة بحسم المعركة ، وإنما يعنى اجتماعها فى جلب الوبال على الأعداء .

ونلاحظ أن ذكره ليوم الأحد على أنه اليوم الذى وقعت فيه المعركة ، يضيف معلومة تاريخية أخرى لم تذكرها مصادر التاريخ . وهذا اليوم يراه أبو تمام أبهى الأيام جمالا ، وأكثرها منظرا حسنا ، إذ يتجلى جماله وحسنه فى المشهد الرائع ، الذى تطيح فيه السيوف المشرفية بهامات الخرمية ، وقد أعمل أبو سعيد أرماح رجاله فى نهب أرواح هذا العدو ، فلا تستطيع قوة أن تردها عنه ، إنها ريب الدهر الذى أنزل به فماله من دافع . وكأن هذه الأرماح وهى والغة فى الأوداج والكلى تلمس جذور الغيظ الذى ترى آثار انفعالاته بادية على الوجوه . وكل رمح منها يعرف طريقه إلى

مقاتل الأعداء ، فيشقه إليها دون التواء ، كأنما يراها وينظرها بغير النظر الذى نعرفه . وكأن الرمح منها كان تربا للحب وقرينا له منذ زمن بعيد ، فهو يعرف مكمن القلب والكبد حيث يستقر تربه الحب كما عهدناه ، ومن ثم لا يعجزه أن يصل إلى هذا المكمن ليستقر فيه ويغرس سنانه :

أعيا علىَّ وما أعيا بمشكلةٍ   بسندبايا ويومَ الرَّوع محتشد

من كان أنكأ حدًّا فى كتائبهم   أأنتَ أم سيفك الماضى أم الأحد ؟

لا يومَ أكثَر منه منظراً حسناً   والمشرَفيَّة فى هاماتهم تخد

أنهبتَ أرواحَه الأرماحَ إذ شُرِعت   فما تُرَدُّ لريبِ الدَّهر عنه يد

كأنها وهْىَ فى الأوداج والغةٌ   وفى الكلى تجد الغيظَ الذى نجد

من كل أزرقَ نظَّارٍ بلا نظَرٍ   إلى المقاتلِ ما فى متنه أوَد

كأنه كان تِربَ الحبِّ مذ زمنٍ   فليس يعجِزه قلب ولا كبد

ويواصل أبو تمام وصفه لتنكيل أبى سعيد بالخرمية ، إذ عمر بقتلاهم سبل جهنم ، تتلقى منهم كل يوم عصبة يوفدها إليها ، فهذا هو مصيرهم وأمثالهم من الكفرة المفسدين . أما بابك زعيمهم ، فقد غدا بعد فقدهم ذليلا مقهورا ، قابعا فى معقله بالبذ ، كأنه نؤى أو وتد أخلفة الحى لعدم قيمته .

وقد تناثرت أشلاء القتلى من فوارسهم عند كل منعطف ، وبدت عظام صدورهم فلقا مشجوجة من أثر طعنات القنا التى مزقتها ، فكل قتيل من هؤلاء كان يغدو ويتيه بطرا وأشرا بنعمة الله ، وقد أظلم الكفر قلبه وباطنه ، فلقى جزاءه من أبى سعيد طعنة نافذة أسكنها جانحتى صدره فأضاءه سنانها المتقد كالكوكب الدرى . أما من ولى منهم هاربا ، فإنما فعل ذلك لانهيار نفسه من روع الوغى ، ولما أصابه

من الاضطراب والحيرة ، وكأنما جعل من نفسه رقيبا على نفسه ، يترصدها ليوردها مورد الهلاك فلا يجدى هربه نفعا ، ولا ينقذ حياته من الموت ، لأن الرعب الشديد الذى داخله يدفعه إليه دفعا . ويسوقه إلى حتفه كما تساق الأغنام لذبحها :

تركت منهم سبيلَ النار سابلةً ... فى كل يومٍ إليها عُصْبة تفِدُ
كأن بابكَ بالبذّينِ بعدَهمُ ... نُؤْى أقام خلافَ الحىّ أو وَتِدَ
بكلِّ مُنْعَرِجٍ من فارسٍ بطلٍ ... جناجنٌ فلقٌ فيها قناً قصَدُ(١)
لما غدا مُظلِمَ الأحشاء من أشرٍ ... أسكنتَ جانحتيه كوكباً يقِدُ
وهاربٍ ودخيلُ الرَّوْعِ يجلبُه ... إلى المنونِ كما يستجلَبُ النقَدُ(٢)
كأنما نفسُه من طولِ حيرتها ... منها على نفسِه يومَ الوغى رَصَدُ

هذه الوقعة الظافرة لأبى سعيد ، قد أعادت راية الإسلام خفاقة على ربوع تلك المنطقة ، وأكدت فيها نفوذ دولة بنى العباس ، وسجلت لبنى طيىء بين أدد مجدا مشرفا ، فأثرها محمود لدى هؤلاء جميعا ، ويعد يومها من أيام الإسلام المجيدة ، به أخذ زينته ، وغمرت فرحته قلوب المسلمين ، واكتسى الزمن ثوب الفخار الخالد ، فإذا قام يوم الحساب ، يجىء هذا اليوم فى موكب أيام الجهاد الحق فى سبيل الله ، فيحمده يوم بدر ، ويعتز به يوم أحد ، لأنه انتصار على الكفر ، وإتمام لنور الله ، الذى أراد الخرمية أن يطفئوه :

تالله ندرى : أ الإسلامُ يشكرُها ... من وقعةٍ أم بنو العباسِ أم أددُ(٣)
يومٌ به أخذَ الإسلامُ زينتَه ... بأسْرِها واكتسى فخراً به الأبد
يومٌ يجىء إذا قام الحسابُ ولم ... يذممْه بدرٌ ولم يُفْضَحْ به أُحُد

(١) الجناجن : عظام الصدور . قنا قصد : رماح مكسرة .
(٢) النقد : جنس من الغنم صغير الأرجل قبيح المنظر .
(٣) أدد : قوم الممدوح والشاعر ، فطيىء هم جلهمة بن أدد .

وهكذا يوفى أبو تمام هذه الواقعة حقها من الحديث المفصل والتصوير المبدع مشيدا أيما إشادة بعظمة قائدها أبى سعيد . ثم يتبع ذلك بذكر وقائع أخرى، ولكنه لا يقف عند تفاصيلها ، مكتفيا بما قدمه عن الواقعة الأولى ، منها الواقعة المشهورة، التى عرفنا أحداثها فى منطقة موقان ، والتى تسمى بوقعة « أرشق » . وقد فصل القول عنها فى القصيدة السابقة ، ونراه هنا لا يذكر إسمها ، وإنما يكتفى بذكر ما حدث لأهل موقان ، ويشتق من المادة اللغوية لهذا الاسم صيغة الفعل « ماق » .

وكثيرا ما عهدنا ذلك منه — فيصف أهل موقان بأنهم ماقوا ، وسلكوا سلوك الحمقى الأغبياء ، فلم ينجهم من بطش أبى سعيد معقل ولا جبل منيع . وأن أثر ضربته القاصمة لهم قد تجاوز الرجال إلى النساء ، فأيقنت كل مشركة منهن أنها إذا لم تتب من إشراكها ، وتعود إلى عقيدة التوحيد ، فإن كل وليد تلده سيشب على عقيدتها الثنوية الخرمية وسيكون مصيره إلى حكم السيف وضرب الرقاب ، وهذا نذير لها كى ترتدع وتستقيم على طريق الإسلام الحق . ثم يذكر واقعة أخرى لعلها وقعت عند جبل يسمى « الببر » ، ولم تورد مصادر التاريخ واقعة فى تلك الحرب بهذا الاسم ، كما لا نجد اسم هذا الجبل فى سردها لأية أحداث أخرى . يصف أبو تمام ما ابتلى به الخرمية فى تلك الواقعة من وابل حرب أخمدتهم إخمادا، وكادت تهدد دماءهم جميعا لو لم ينزلوا على حكم أبى سعيد ، إذ أعمل رأيه الحاسم ، الذى يخاله السيف سيفا مثله فى حسمه وقطعه .

وهكذا تتوالى فتوح أبى سعيد مع الأيام ، وتحمل البرد أخبارها إلى الخليفة فى عاصمة الدولة ، فكاد هذه البرد تعى وتفهم ما تحويه كتبها لحسن أنبائها وطيب مضمونها فما أعذب الحديث عن تلك الواقائع ، وما أحلى ذكرها الذى يفوق الشهد لذة وحلاوة ، ويمتع النفوس متعة لا مزيد عليها :

وأهلُ موقانَ ماقَوا فلا وَزَرٌ   أنجاهُمُ منك في الهيجا ولا سَنَدُ

لم تبقَ مُشرِكةٌ إلا وقد علمتْ   إن لم تَتُبْ أنه للسيفِ ما تَلِدُ

والبَبرُ حين أطْلخَمَّ الأمرُ صبَّحَهُم   قَطْرٌ من الحرب لما جاءهم خَمَدُوا[1]

كادت تُحَلُّ طُلاهُم من جماجِمِهم   لو لم يَحُلُّوا ببَذْلِ الحكمِ ما عَقَدوا[2]

لكن ندبْتَ لهم رأى ابن مُحصِنةٍ   يخالُه السيفُ سيفاً حين يجتهد

في كل يومٍ فتوحٌ منك واردةٌ   تكاد تفهمُها من حسنها البُرُدُ[3]

وقائعٌ عَذُبتْ أنباؤها وحلَتْ.   حتى لقد صار مهجوراً لها الشُّهُدُ

ويختم أبو تمام قصيدته مشيدا بما حققه أبو سعيد من عمل عظيم نجى به ثغر آذربيجان من سنة كان معرضا فيها للخراب والدمار والفساد تحت وطأة الخرمية البغاة . فله أن يجنى ثمار غرسه أعواما من حياة النعمة والرغد . ويمدح جوده وسخاءه فى العطاء والإنفاق ، وما تخلفه عطاياه من نعم على الناس تتجدد آثارها كل يوم ، وله أن يفخر بأعماله الحسنى التى ترفع بها عمد سماء الندى والكرم ، ويلتمس العذر لمن يحسده على اختص به من مفاخر العلا والمجد ، فذلك أمر طبيعى فى النفس البشرية :

---

(١) البير : اسم جبل ويروى « البذ » ولكن هذه الرواية لاتستقيم من الناحية التاريخية لعدم تناسب الأحداث التى ذكرها هنا مع أحداث فتح البذ التى عرضنا تفاصيلها .

(٢) تحل طلاهم : أى تصبح دماؤهم مهدورة يحل سفكها .

(٣) البرد : جمع بريد ، فيمكن أن يعنى به الدابة ، ولا يمتنع أن يعنى المسافة أو العلاقة التى توضع ليعلم بها مقدار البريد .

إن ابن يوسف نجى الثغر من سنة أعوام يوسف عيش عندها رغد
آثار أموالك الأدثار قد خلقت وخلفت نقماً آثارها جدد
فافخر فما من سماء للندى رفعت إلا وأفعالك الحسنى لها عمد
واعذر حسودك فيما قد خصصت به إن العلا حسن فى مثلها الحسد

* * *

وفى هذه الفترة — ما بين وقعة أرشق وفتح البذ — نظم أبو تمام قصيدته الثالثة فى أبى سعيد وهى التى يبدؤها بقوله[1] :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد
وعاد قتاداً عندها كل مرقد[2]

ونراه فى مقدمة هذه القصيدة يتحدث كذلك عن الفراق، وأثره فى نفس المحبوبة، التى بكت مذرفة دموعها الغزار مشوبة بالدم ، لما تتوقعه من القسوة الحرمان فى بعد الحبيب . وصار مرقدها كأنما فرش بالشوك ، إذ أضناها طول السهاد وتشتت الفكر ، ولم ينجها من غمرة الموت إلا بصيص من الأمل فى بقاء أواصر الحب، فليس بعده صدورا معتمدا ، وليس فراقه قطيعة ماحقة لكل أمل .

ويشفع أبو تمام وصفة لمعاناتها بنسيب رقيق يجلو فية آيات حسنها البادى فى تورد خديها وبياض وجهها الذى يشبة البدر ، وبشاشته الجذابة التى تأسر كل من يلقاها . ويقول بعد المطلع السابق :

---

(١) أنظر القصيدة فى ديوان أبى تمام شرح التبريزى ح٢ ص٢٢ ومابعدها .

(٢) فى رواية أخرى (غدت تستجير) وابن المستوفى يفضلها عن الرواية المذكورة . . القتاد : الشوك واحده قتادة .

وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمعاً موردا من الدم يجرى فوق خد مورد
هى البدر يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد[1]

ويعطف أبو تمام بالحديث عن نفسه ، وما يعتريها من مشاعر التوتر والقلق ، والرجاء والأمل نتيجة تنقله فى البلاد ، ومفارقته للأهل والولد ، فوفر المال لم يجتمع له إلا بتبدد الشمل ، وطمأنينة السكون لم يهنأ بها إلا باضطراب التشرد ، وهو بتلك الحال راض مقتنع،غيربرم بما يلاقيه من مشقةالترحال وعدم الاستقرار، بل إنه يجد فى ذلك راحة نفسه وتجدد نشاطه ، فالمرء إذا طال مقامه فى موطنه ، فقدت حياته أسباب التفتح والرؤية الصائبة لحركة الحياة ، وسارت على منوال رتيب يبعث على الملل البغيض والسأم الذى يسلمها إلى الموات .

ويدلل على تلك الحقيقة بأن محبة الناس للشمس تزيد لأنها تطلع عليهم وتغيب عنهم ، فحركتها المتغيرة تجعلهم يتعلقون بها ويرغبونها ، ولو أنها بقيت ساطعة عليهم دواما لملوها وكرهوها . وبهذا يكشف لنا أبو تمام عن فلسفته فى الاغتراب وحب الترحال :

ولكننى لم أحو وفراً مجمعاً ففزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطنى الأيام نوماً مسكناً ألذ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

---

(١) ذكر الآمدى فى الموازنة أن هذا البيت من بدائع أبى تمام المستحسنة فى نظر أصحاب البحترى : أنظر ص ٢٥٠ .

فإنى رأيت الشمسَ زيدَتْ محبـةً   إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد(١)

ويرى الدكتور البهبيتى أن مقدمة هذه القصيدة تبين عن تجدد عزيمته وامتلائه أملا ، بعد أن منى بالفشل فى رحلته إلى ابن طاهر ، ولذا يعد قصيدته هذه أول قصائده فى أبى سعيد بعد مغادرته خراسان قاصدا إياه فى تلك الفترة . وهذا الاحتمال يبدو ضعيفا ، لأن تجدد العزيمة والامتلاء بالأمل أمر لم يستقر فى نفسه إلا بعد إقامته لدى أبى سعيد فترة لقى فيها من التكريم والترحاب ، ورأى شواهد النصر ونتائجه عيانا ، هذا فى نظرى — هو الاحتمال الأقوى .

وينتقل أبو تمام من هذه المقدمة إلى موضوع قصيدته دون محاولة للربط بينهما كما عودنا أن يفعل فى أغلب قصائده . وأول قضية يطرقها هى قضية الثأر لابن حميد فيقسم برب السيوف البيض التى تكسوها الدماء ، ورب القنا التى تلتوى وتتكسر من صدام القتال أن سيف محمد بن يوسف قد كف تباريح ثأر محمد بن حميد ، وشفى غليل النفوس من أعدائه . وكلاهما صامتى تلتقى قرابتهما فى جدهما « الصامت » ، فدم ابن حميد إذن لم يذهب هباء ، ولم يثأر له غريب عن القوم ، بل ثأر له بطل من عشيرته ، وهذا مدعاة للاعتزاز والفخر ، واسترداد لكرامة قومه التى كانت مهيضة ، فقد رمى الله بابك وقواده بضربات أبى سعيد التى قصمت ظهورهم فى كل معترك . إنه ذلك الرجل العظيم الذى جمع فى شمائله سماحة كريم تفوق سخاء الغمام ، ونجدة شجاع يفوق بطشها صرف الزمان ، والذى يدعوه قومه بالأجلح الأيمن ، لأنه ميمون النقيبة ، مبارك الخطا ، تجلب فعاله السعد إليهم . بينما يدعوه

---

(١) ذكر الآمدى فى الموازنة ص٦٥ أنه أخذ معنى هذا البيت من أحد شعراء بنى أسد حيث يقول :

تغيبت كى لا تحتوينى دياركم   ولو لم تغب شمس النهار لمُلّت

عدوه بالأصلع الأنكد ، لأن وجوده شؤم عليهم ، وفعاله تجلب لهم البلاء والتهلكة ، وفكرة التفاؤل بالأجلح والتشاؤم بالأصلع ، هى من خرافات العرب التى شاعت فى مجتمعهم الجاهلى ، ولكن ذلك لم يمنع أبا تمام من إستخدامها فى توليد هذا المعنى . ولعل أبا تمام استشعر أن فكرته هذه لا تطابق الواقع تماما ، لأن ابن يوسف كان رفيق ابن حميد فى المعركة التى استشهد فيها وهزم جيشه ، لذا يبادر بنفى التقصير عن ابن يوسف فى ذلك اليوم ، بأنه لم يخف ولم يضعف ، ولم يول الأدبار فرارا من الموت ، بل بقى يناضل بجانب صاحبه حتى النهاية ، رغم شدة الكرب وسوء البلية ، ورغم بذ الخرمية وغلبتهم لجند المسلمين فى ذلك اليوم .

حَلَفْتُ بربِّ البيضِ تَدْمَى متونُها ورَبِّ القنـا المُنْآدِ والمُتَقَصِّدِ
لقد كفَّ سيفُ الصامتيِّ محمـدٍ تباريحَ ثأرِ الصامتيِّ محمـدِ
رمى اللهُ منـه بابَكاً وولاتَه بقاصمةِ الأصلابِ فى كلِّ مَشهدِ
بأسمحَ من غُرِّ الغمامِ سماحـةً وأشجعَ من صرفِ الزمانِ وأنجدِ
إذا ما دعوناهُ بأجلحَ أيمنٍ دعاهُ ولم يَظْلِمْ بأصلعَ أنكَدِ[1]
فتىً يومَ بَذِّ الخُرّميّةِ لم يكن بهيّابةٍ نِكْسٍ ولا بمُعَرِّدِ[2]

ومن الواضح أن عبارة « يوم بذ الخرمية فى البيت الأخير تؤدى إلى كثير من اللبس فى فهم معنى البيت ، خاصة لأن كلمة « بذ » توافق اسم مدينة بابك ومعلقة ويوم سقوطها هو أبرز الأيام فى تلك الحرب ، فأول ما يتبادر إلى الذهن أن أبا تمام يعنى ذلك اليوم ، وهذا هو الخطأ الذى وقع فيه الشراح ، ولكننا إذا أنعمنا النظر

---

(١) الأجلح : الذى انحسر شعره عن مقدم رأسه .

(٢) هيابة : فعالة من هاب يهاب ودخلت الهاء للمبالغة ، والمعرد : الفار الذى يبعد فى الحرب .

فى المعنى وفى السياق عرفنا أن أبا تمام لم يقصد به يوم سقوط البذ ، لأنه لم يذكر شيئاً من أحـــداث ذلك اليوم فى القصيدة كلها ، وكل ما ذكره هو نفى الخوف والتقصير عن أبى سعيد ، وتلك معان لا تتناسب بأى حال مع ذكر يوم النصر الأكبر للمسلمين على الخرمية ، أو مع مواقف البطولة الفذة لأبى سعيد ولغيره فى ذلك اليوم ، وليس من المعقول أن يكون وصف أبى تمام لتلك المواقف بهذه الصورة السلبية الضعيفة ، والمرجح أن أبا تمام إنما قصد بكلمة « بذ » معناها اللغوى وهو الغلبة ، وأراد بعبارته يوم غلبة الخرمية وانتصارهم على جيش ابن حميد . وهذا المعنى الذى يتناسب مع الصفات التى وصف بها أبا سعيد والذى ينسجم سياقه مع معنى البيت السابق عليه ، كما أوضحنا فى تحليل الأبيات .

ويبدأ أبو تمام ذكر الأيام الظافرة لأبى سعيد فى هذه الحرب ، وأولها يوم « سندبايا » الذى تحدث عنه تفصيلا فى القصيدة السابقة ، وهو هنا يستعيد ذكر أحداثه فى أربعة أبيـــات ، يصف فيها هجوم أبى سعيد على سرية معاوية فى « سندبايا » منقضا عليهم من الخلف ، ورماح رجاله مشرعة مصوبة إلى أرواح الأعداء لتلقيها حتوفها ، فلا تخفى عليها روح منها ، وهذا وصف يتفق إلى حـــد كبير مع ما أوردته مصادر التاريخ ، من تربص أبى سعيد لسرية معاوية وانقضاضه عليها . ثم يذكر ما كان من نجاة معاوية فيجعل الليل حاجزا بينه وبين الردى . مع أن ريب الدهر يعلم أنه إنسان ردى يستحق الهلاك ، وقد كاد أبو سعيد أن يقضى عليه ، لولا أن القضاء نجاه ، وإذا كان ثمة لوم للقدر على إتاحته فرصة النجاة له ، فإنه يحمد على ما أوقع فيه أشياعه ورجاله من الهلكة والبلاء :

قفَا سَنْدَبايا والرماحُ مُشيحةٌ تَهْدَّى إلى الروح الخفىِّ فتهتدى
عدا الليلُ فيها عن معاويةَ الرَّدَى وما شكَّ ريبُ الدهرِ فى أنه رَدِى

لعمري لقد حَرَّرْتَ يوم لقيتَـــــهُ لو أنَّ القضاء وحدَه لم يُبَرِّدِ[1]
فإن يكن المقدارُ فيـــه مُفنِّداً فما هو في أشياعه بمُفَنَّــــدِ

ويثنى أبو تمام فى إشادته بأيام أبى سعيد الظافرة بالحديث عن يوم « أرشق »، مصورا هيجاءه كالجحيم المتقد الذى ترتمى الخيل فيه بأبطالها ، فيتلظون بنارها ، ويركز بشكل خاص على موقف بابك الزرى المتخاذل ، وإذلال أبى سعيد له ، إذ تصدى له بثبات راسخ فعط عزمه وشقه شقا كما يشق البرد أو الثوب المخطط، وإذا كان بابك قد أفلت موليا دون أن يصاب عضو من جسده ، فإنه قد ذهب بعزم منهار مقدد لا مسكة له ، بعد أن كاد يلقى حتفه ، وبعد أن كانت الرماح قد أبصرت موضع قلبه لتسدد طعانها إليه ، أسدل القضاء ستره دونها ، وحال بينها وبينه ، وكأنما أصابها القضاء برمد فى عيونها فغشى أبصارها وأضلها طريقها ، ثم كان لجوء بابك إلى موقان بعد فراره ، ومطاردة خيل أبى سعيد له جادة فى طلبه حتى أبوابها، وإذا كانت الخيل لم تدركه ، فقد تركه أبو سعيد قابعا بها ذليلا حسيرا ، حطيط العز مسفل الكرامة ، بعد ان كان عالى المكانة ، يطاول انجم السماء رفعة وعزة :

وفى أرشقِ الهيجاءِ والخيلُ ترتمى بأبطالها فى جاحمٍ متوَقِّـــدِ
عطَطْتَ على رغم العدا عزمَ بابكٍ بعضبك عطَّ الأتحميِّ المعضَّدِ[2]

---

(١) حررت : من الحرارة التى هى خلاف البرودة . وفيها كناية عن مقاربة قتل بابك ، كما أن « يبرد » فيها كناية عن إنقاذ القضاء له . وبين اللفظين مطابقة هى فى رأى ابن المعتز لم تخرج خروجا حسنا .

(أنظر الديوان ج٢ ص٢٥ بالهامش) .

(٢) عط : شق . الأتحمى : ضرب من البرد ، والمعضد : الذى فيه خطوط تخالف لونه .

فإلاَّ يكن ولىَّ بشلْوٍ مُقَدَّدٍ ... هناك فقد ولىَّ بعزمٍ مُقَدَّدِ
وقد كانت الأرماحُ أبصرنَ قلبَه ... فأرمدَها سترُ القضاء المُمَدَّدِ
وموقانَ كانت دارَ هجرته فقد ... توردْتَها بالخيلِ أىَّ تَوَرُّدِ
حططْتَ بها يوم العَروبةِ عزَّه ... وكان مقيماً بين نَسْرٍ وفَرْقدِ

وتتوافق الأحداث التى تضمنتها هذه الأبيات مع الأحداث التى وردت فى كتب التاريخ توافقا تاما ، إلا ان ابا تمام يزيد عليها بتحديد اليوم الذى وقعت تلك الأحداث وهو يوم العروبة اى يوم الجمعة ، وهو ما لم تذكره المصادر التاريخيـــة .

ويحلو الحديث عن يوم ارشق ، إذ تغمر فرحة الظفر نفس ابى تمام ، فتلهب حماسته ، وتثير شاعريته ليقول ويعيد ، ويقلب صور الوصف وزبد الفكر فى براعة واقتدار ؛ فأبو سعيد سديد الراى فى تصريف امور الحرب ، كما انه سديد الرمح فى وغاها ، يقتحمه مؤتزرا بالإقدام مرتديا لبس المغامرة ، وشدة الكرب لا يجليها الراى المسدد وحده ، بل لابد ان يصاحبه الرمح المسدد لتكتمل عوامل الغلبة والنصر . وما ان راى بابك ابا سعيد على هذه الصورة المكتملة من الحنكة وشدة البأس ، حتى اتخلع قلبه خوفا وهلعا . واحجم عن الحرب مرتدعا مقهورا ، وانصاع مطيعا لأمر العوالى ، منهزما امام بطشها ، على غير عادته ، إذ كان معروفا بشدة مراسه وقوة جلده ، ولكن ابا سعيد سلب حسن تجلده بحسن جلاده ، وغادر ماء فؤاده سهلا وروده على القنا ، قريبا رشاؤها إليه ، وبعد ان كان ذلك الفؤاد بعيد القعر ، يصعب الوصول إلى مائه ، جعله ابو سعيد قريب المأخذ سهل التناول تطوله الايدى فتنهل منه ما تشاء للسقيا والشرب :

رآكَ سديدَ الرأىِ والرمحِ فى الوغى ... تأزَّرُ بالإقدامِ فيـــه وترتدى

وايس بجلّى الكربَ رأى مُسدَّدٌ | إذا هو لم يُؤنس برمح مسدَّد
فمرَّ مطيعاً للعوالي مُعَوَّداً | من الخوفِ والإحجام مالم يُعوَّد
وكان هو الجلدَ القُوىَ فسلبته | بحسن الجلادِ المحض حُسن التجلُّد
لعمري لقد غادرتَ حِسْىَ فؤاده | قريبَ رشاء للقنا سهلَ مورد[1]
وكان بعيدَ القعر من كل مانحٍ | فغادرتَه يسقي ويُشربُ باليد

وقد عرفنا ان الطبيعة الجبلية لمنطقة آذربيجان ، كانت من العوامل الرئيسية التى كفلت للثورة البابكية البقاء والاستمرار زمنا لم تتمكن فيه جيوش الدولة العباسية من حسمها والقضاء عليها ، وان معاقل الخرمية فى الجبال كانت لها مناعتها الطبيعية والتى جعلتها بعيدة عن متناول تلك الجيوش ، ولكن ابا سعيد — كما يصفه ابو تمام — سمت به همته الطاعمة حتى اوصلته إلى هذه المعاقل لتهديدها وضربها كلما حانت الفرصة ، فلم تقف وعورة الجبال حائلا دون مضيه لتحقيق غايته . وكم شهدت هذه المناطق الجبلية من ثورات الخارجين على الدولة قبل بابك، ومن حملات الجيوش العباسية بقيادة قادتها المشاهير امثال خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد فلاقوا كثيرا من المشقات ، وأعيتهم وعورة فجاجها ومسالكها ، وامتنعت عليهم معاقل الثوار وصياصيهم فيها فردوا على اعقابهم مقهورين :

ولكنَّ ج العلياَ سمَتْ بك همَّةٌ | طموحٌ بروحِ النصر فيها ويغتدى
وقد خزمتْ بالذلَّ أنفَ ابن خازم | وأعيَتْ صياصيها يزيدَ بن مزيد

---

(١) الحسى : ماء قليل فى رمل تحته صلبه وجمعه أحساء . ولم تجر العادة بأن يشتق من الحسى برشاء ، لأنه لا يكون بعيد القعر ، ولذا يخطىء بعضهم أبا تمام فى هذا المعنى : ولكن التبريزى يرى أن الشعر يحتمل ذلك .

وقد يفهم من ذكر ابى تمام لابن خازم ويزيد مزيد ، ان هذين القائدين ممن ارسلتهم الدولة لمحاربة بابك وكان نصيبهم الهزيمة والفشل ، ولكننا إذا راجعنا احداث التاريخ منذ خروج بابك حتى القضاء عليه ، لم نجد لأى منهما ذكر فيها او مشاركة فى وقائعها ،ومن ثم ينبغى ان ننبه إلى هذا اللبس الذى وقع فيه شراح الديوان، والذىلا يسلم منه أى قارىء لشعر أبى تمام. والتبرير الذى يمكن ان نلتمسه لأبى تمام فى ذكر هذين الأسمين أنه قصد بهما مثلا او مثلين لكبار القادة الذين فشلوا فى حروب الجبال بصورة عامة ، ليبرز بالمقارنة إليهما نجاح أبى سعيد فى تلك الحروب .

ويصور ابو تمام بطش ابى سعيد بالخرمية فى معاقلهم الجبلية تصويرا يحمل طابعه الفنى المعروف فى رصد توافر الأضداد ، فهو بإقدامه قيد بأسهم المطلق ، وحصره فى نطاق محدود لا يتجاوز معاقلهم ، بينما اطلق فيهم حتوف الموت المقيدة لتتخطف ارواحهم وتفتك بجموعهم :

فقيدّتَ بالإقدامِ مطلقَ بأسِهمْ　　　وأطلقتَ فيهم كلَّ حَتْفٍ مُقَيَّدِ

وقد عرفنا أن الصراع بين بابك وجيوش المسلمين ظل محتدما ما يقرب من سنتين بعد وقعة « أرشق » . وفى هذه الفترة تعددت الوقائع بينهما ، وكانت ميادين اللقاء بطبيعة الحال فى هضاب هذه المنطقة وجبالها ، وشهدت هضبة «أبرشتويم» صولات وجولات من هذا الصراع ، وإن كانت كتب التاريخ لم تورد إسمها فى سردها للأحداث ، ولكن أبا تمام يذكرها مع ذكره لوقعة «درودة» مما يوحى بأن درودة موقع من مواقع هذه الهضبة . وهو الذى أوقع فيه أبو سعيد مع الأفشين هزيمة أخرى ببابك .فعلا بذلك ذكر أبى سعيد على أطراف القنا ، وسجلت له السيوف المرهفات مآثر خالدة على الدهر ، بل يمتد خلودها إلى ما بعده فى الآخرة حيث الخلود الأبدى :

وبالهضْبِ من أبرشتويمَ ودَرْوَذ

علتْ بك أطرافُ القنا فاعْلُ وازدَدِ

أفادتك فيها المرْهَفاتُ مآثراً تُعمَّرُ عُمْرَ الدهرِ إن لم تُخلَّدِ

ومن المواقف البطولية التي يعددها أبو تمام لأبي سعيد ، موقفه في ليلة البيات ، إذ أبلى فيها أحسن البلاء ، وثبت أمام الخطر ثبات الشجعان ، صابرا في مجالدة العدو صبر المؤمنين المحتسبين ، على الرغم من اشتداد البأس وعظم الكرب . فلتحفظ له هذه الجولة وقار القائد الهمام في مواجهة الأحداث الجسام ، وليشهد السيف وظلمة الليل على جسارة قلبه ورباطة جأشه ، ولو أن أبا تمام مكان الليل لقدر له فعله الجليل حق قدره ، ولجزاه عليه أحسن الجزاء ، ولأكسبه طمأنينة الهدوء وراحة البال ؛ فلم يغشه بعد ذلك بسهاد مؤرق أو سهر قلق متوتر :

وليلةَ أبليتَ البَيَاتَ بلاءَهُ من الصَّبرِ في وقتٍ من الصبرِ مُجْحِدِ

فيا جولةً لا تجحديه وقارَهُ ويا سيفُ لا تَكفُرْ ويا ظلمةُ اشهدي

ويا ليلُ لو أني مكانَكَ بعدها لما باتَ في الدنيا بنومٍ مُسَهَّدِ

وينبغي أن نستعيد ذكر أحداث ليلة البيات هذه من واقع التاريخ . كي لا نقع في فهم خاطىء لشعر أبي تمام . فهذه الليلة هي التي بيت فيها بابك جيش الأفشين وأبي سعيد بهجوم مباغت تحت جنح الظلام ، فنقض عسكره على حد قول الطبري — وقد يظن من لا يعرف هذه الحقيقة أن أبا تمام يذكر هذه الليلة على أنها من الوقائع الظافرة لجيش المسلمين . وخاصة لأنه لم يسر في كلامه إلى هزيمته أو نقضه من قريب أو من بعيد . ولكننا إذا أمعنا النظر في كلماته تبين لنا انه لم يخالف واقع الأحداث. وإن كان اكتفى من هذا الواقع بذكر الموقف البطولي لأبي سعيد في صبره ومصابرته وحسن بلائه امام الهجمة البابكية المباغتة في حلكة الظلام . ولعل موقفه هذا كان له

اثره الفعال فى الحد من وقع المفاجأة على الجند . وفى تثبيت اقدامهم ودفع الروع عن أنفسهم . فلم يتمكن البابكية من سحقهم والقضاء عليهم . كافعلوا من قبل بجيوش سابقة . مع ان الفرصة كانت مواتية لهم ليضربوا ضربتهم القاضية . فلا تقوم لهذا الجيش قائمة بعدها . وهم وإن كانوا اوقعوا به اضرارا وكبدوه خسائر . فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق النصر الحاسم الذى كانوا يبتغونه . وهنا يتأرجح تقييم الموقف بين الفريقين ، فيراه ابو تمام بنظرته الحماسية الإسلامية موقف البطولة الفذة لجيش المسلمين وعلى راسهم ابو سعيد . ومن ثم يذكره بفخر واعتزاز .

إن هذه الوقائع التى عددها ابو تمام لأبى سعيد تمثل النصر فى احسن صوره وكل ما يأتى من وقائع بعدها لن يكون إلا على مثالها فى الروعة والحسن . وإذا كان معبد المغنى قد احرز قصبات السبق فى الغناء وتفوق على اقرانه من المغنين على ما لهم من محاسن الأصوات ، فكذلك ابو سعيد فى تفوقه على اقرانه من القواد وفى تحقيق الانتصارات التى تتميز على انتصاراتهم وتبزها روعة وفخارا . فقد اجلى بها ظلام الضلال والفساد عن آذربيجان بعد ان تردت فى دجاه ، وغشيتها غماماته المربدة . وكان الصبح فيها قد فقد بياضه الوضاح تحت وطأة شرور الخرمية . فهاهى الآن تمسى وقد فقد الليل فيها سواده تحت اضواء الحق ونور الهدى الإسلامى ، الذى أبى الله إلا ان يتمه على يد ابى سعيد :

وقائع أصلُ النصر فيها وفرعه	إذا عـدَّدَ الإحسان أو لم يعـدِّدِ
فمهما تـكنْ من وقعةٍ بعدلا تـكنْ	سوى حسنٍ مما فعلتَ مرَدَّدِ
محاسن أصنـاف المغنـين جمَّةٌ	وما قصبات السَّبق إلا لمَعبدِ
جلوتَ الدُّجى عن أذربيجان بعدما	تردَّت بلونٍ كالغمامة أربـــــدِ
وكانت وليس الصبح فيها بأبيضٍ	فأمستْ وليس الليل فيها بأسود

وتظهر فى البيتين الأخيرين الصور المتطابقة من نوافر الأضداد . التى شغف بها ابو تمام . وصارت سمة بارزة من سمات مذهبه الفنى كما سنرى فى الأبيات التالية عددا من هذه الصور المتنافرة التى يرصدها ابو تمام بمهارة ودقة . حين يستعيد الحديث عن بطش ابى سعيد ببابك . إذ حلا له تكرار هذا الحديث الحماسى المبهج لنفسه. ومن هذه النوافر أن بابك رأى من أبى سعيد طلعة النحس عليه، بينما هى فى الوقت نفسه طلعة السعد على دين الإسلام الحنيف . وابو سعيد قد هز له سيفا من الكيد . وهو سيف تناقض صفاته صفات السيف الحقيقى . لأنه لا تجذ به الأعناق . ولا يبلغ به صاحبه مرام النصر إلا وهو مغمد . فإذا جرد من غمده . وأشهره حامله . افتضح امره فبطل مفعول كيده . ومعروف ان الكيد المدبر ينبغى ان يبقى سرا خفيا على العدو كى تنفذ خططه بنجاح . ويتحقق به إلحاق الأضرار البالغة بالعدو . اما إذا كشف امره وظهر مستوره ، تحرز العدو منه ، وتوقى خطر تدبيره ، وبذلك يكون مآ له الفشل . وكم يتمنى ابو تمام ان يقلد ابو سعيد عنق بابك بقلادة من سيف مهند مصقول . وهى قلادة ينعقد نظامها بالموت لا بحبات اللؤلؤة والخرز . ولا تكون الحظوة بحليها لمتقلدها بابك . لأنها طوق مقتله . بل تكون الحظوة لمن قلده إياها . أى لأبى سعيد . لأنه سيسعد بمقتله :

رأى بابكُ منك التى طلعتْ له ... بنحس وللدين الحنيف بأسعـــد
هززت له سيفاً من الكيد إنما ... تجَذُّ بهِ الأعناق ما لم يجَرَّدِ
يَسرُّ الذى يسطو به وهْو مغْمَدٌ ... ويَفضَح من يسطو به غيرَ مغمد
وإنى لأرجو أن تقلّدَ جيـــدَه ... قلادة مصْقول الذُّباب مهَنّدٌ
منظَّمَةً بالموت يحظَى بحَلْيها ... مقلدها فى الناس دون المقلَّد

وبهذا الرجاء يختم ابو تمام موضوعه الحماسى فى هذه القصيدة . مؤملا أن يحقق ابو سعيد له ما يرجوه . فلن تشتفى نفسه . ولن ينمحى الحقد الدفين فى قلبه إلا بمقتل

بابك . وان يكون قتله بيد طائى من قومه . ثأرا لدم ابن عمه الشهيد الطائى ابن حميد.
وهو فى هذا الرجاء يستحثه ويحرضه . وينفث فيه روح الحمية القبلية . كى يبذل
قصارى جهده لتحقيق تلك الأمنية التى طالما تمنى ان تحقق .

وفى الأبيات الأخيرة من القصيدة يصور ابو تمام مشقة رحلته إلى ممدوحه
ابى سعيد فى تلك المنطقة الوعرة المحفوفة بالأخطار . وتحت جنح الليل البهيم الذى
يضاعف من مخاوفها . يدفعه الأمل فى سماحته وكرمه . وينشد جوده الذى غمر
المجتدين إنعاما . وهو إذ يسعى إليه إنما يسعى إلى رجل اهله وعشيرته . تربطه به
رابطة الدم الطائى التى يعتز بها ايما اعتزاز :

إليك هتكنا جُنحَ ليلٍ كأنه ... قد اكتحلت منه البلاد بإثمد

تقلقل بى أدْم المهاد وشومها ... على كل نَشْز متلئب وفَدْفَد

تقلّب فى الآفاق صِلاً كأنما ... يقلبَ فى فكّيْهِ شَفْرَةَ مِبْرَد

تلاف حَداكَ المجتدين فأصبحوا ... ولم يبق مَذْخورٌ ولم يبق مجتد

إذا مارخىً دارْ أدرتَ سماحةً ... رَحىَ كلِّ إنجازٍ على كل موعد

أتيتك لم أفزَعْ إلى غير مَفْزَع ... ولم أنشد الحاجاتِ فى غير مَنْشَدَ

ومن يرج معروفَ البعيد فإنما ... يدى مولتْ فى النائبات على يدى

* * *

أما القصيدة الرابعة والأخيرة التى نظمها أبو تمام فى هذه الفترة فهى قصيدة عينية
يبدؤها بقوله[١] :

---

(١) أنظر القصيدة فى ديوان أبى تمام شرح التبريزى ج٢ ص٣١٩

أما إنه لولا الخليط المودّع وربعٌ عفا منه مصيفٌ ومربع

وهو فى قصيدته هذه لا يعطى اهتماما كبيرا الجانب الحماسى الذى يتصل بمعارك الحرب وبطولاتها . وإنما يركز اهتمامه على شخصية أبى سعيد وما يميزها من فضائل حميدة وشيم طيبة ، وطباع نبيلة سواء فى السلم أو فى الحرب .

وهو فى مقدمة القصيدة ، يطلق لنفسه العنان فى النسيب ، وفى تأمل أحوال الزمان ويستطرد فى ذلك حتى يبلغ بها تسعة عشر بيتا ، تغلب عليه فيها أحاسيس الأسى والشجن ، ففى نسيبه يصور صاحبته مالكة هوى قلبه تحييه إذا شاءت بالوصال وتميته إذا شاءت بالهجران ، ثم هى تشعب أعشار فؤاده وتصدعه تصديعا وتقسو عليه فى لومها وعتابها . يقول :

وعهد بها تحيى الهوى وتميته وتشعب أعشارَ الفؤاد وتصدعَ
وأقرع بالعتبى حميـّـا عتابها وقد تستقيد الراح حين تشعشَع

وتتفاقم مشاعره الآسية لظهور المشيب بفوديه نتيجة للهموم التى تثقله وتكدر الكآبة نفسه ، يقول :

غدا الهمّ مختطًا بفوديّ خطّةً طريق الردى منها إلى النفس مهيَع
هو الزَّوْرُ يجفى والمعاشر يجتوى وذو الإلف يقلى والجديد يرقَّع
له منظرٌ فى العين أبيض ناصعٌ ولكنه فى القلب أسود أسفع

وتبلغ المرارة مبلغها من نفسه حين يشكو حكم الزمان الجائر فى قسمته لأنصبة اليأس ، إذ يخص الجاهل الأحمق بالعيشة الهانئة ، بينما يحرم منها العاقل الأريب ، يقول :

لقد ساسنا هذا الزمانُ سياسةً سُدًى لم يَسُسْها قطُّ عبدٌ مُجَدَّعُ (١)
تَروح علينا كلَّ يومٍ وتغتدى خطوبٌ كأنّ الدهرَ منهنّ يَصْرَعُ
حلَتْ نُطَفٌ منها لنُكْسٍ وذو النُّهى
يضاف له سمٌّ من العيش مُنْقَعُ

وفى إطار هذه التأملات العابسة التى تغلفها روح التشاؤم والضيق ، ينتقل إلى ذكر محمد بن يوسف وما وصل إليه من مجد مؤثل ، جعل أعداءه حانقين آسفين وهذا أمر طبيعى ، فذو النقص ينظر دائما إلى ذى الفضل نظرة الحقد والحسد :

لقد آسف الأعداءَ مجد ابن يوسف وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولَع

ويمتدح أبو تمام فى أبى سعيد صفات العظمة والقوة ، فهو الذى أعانه على إساءة الزمن ، وأمده بحبل متين من عزته وسطوته وجاهه ، تمكن به من التغلب على خطوب الأيام وصروفها ويشبه أبا سعيد فى قوته وعنفوانه بالسيل الجارف الذى لا يمكن مدافعته ، ولا يملك من يواجهه إلا أن ينقاد له ويسير طوع مسيرته وهو مع ذلك لين الجانب يستطيع من يلاطفه أن ينال منه ما يشاء ، مثلما يستطيع الإنسان أن يغترف من ماء السيل ما يبتغى ، إذا التمس جانبيه بعيدا عن تياره المندفع .

ويخلص أبو تمام من هـــذا المعنى إلى فلسفة للنفع والضرر فى الحياة . فمن لا يستطيع أن يضر ، لا تجد عنده نفعا ، ومن لا يستطيع أن ينفع لا تجد عنده ضرا . ومن الصفات المحمودة أيضا فى أبى سعيد ، أنه إذا قال أسمع وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهذه الصفات تذكرنا بقول السيدة عائشة فى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ويضيف أبو تمام إلى شيم أبى سعيد أنه شديد على نفسه يكبت هواها ويكبح

---

(١) عبد مجدع : أى جدع أنفه وأذناه .

جماحها ؛ ويوجهها إلى الفعال الخيرة التى تستوجب الحمد والثناء . وتستحق الأجر العظيم من الله عز وجل :

أُخذت بحِلم منه لمَّا لَوَيْته على مرورِ الأيام ظلت تَقَطَّع
هو السيل إنْ واجهتهَ انقدتَ طوعَه وتقتاده من جانبَيْه فيتبَع
ولم أرَ نفعاً عند من ليس ضائراً ولم أرَ ضراً عند من ليس ينفع
يقول فيسمع ويمشى فيسرع ويضرب فى ذاتِ الإله فيوجِع[1]
ممرٌ لهمن نفسه بعض نفسه وسائرها للحمد والأجر أجمع

وينتقل إلى امتداح شيمة الجود والكرم فى شخصية أبى سعيد الذى عافت نفسه البخل لما يرى من فظاعته فى كل إنسان ولأن هذه الفظاعة ستكون فى شخصه أشد وأنكى، فهو رجل مرموق فى مجتمعه وأولى الناس بأن يكون جوادا معطاء ،ومثله بين كبار القوم كمثل الشمس أو البدر بين النجوم الدرارى، وإذا كان كسوف النجوم فيه شنعة معيبة فهو الشمس أو البدر أشد شناعة وأسوأ عيبا . وعلى هذا النحو يكون البخل فى الرجل العظيم .

رأى البخلَ فى كلٍ فظيعاً فعافه على أنه منه أمرُّ وأفظَع
وكل كسوفٍ فى الدَّرارِىِّ شنعةٌ ولكنه فى الشمس والبدر أشنع

ويطرد أبو تمام فى توليد الصور المؤكدة لصفة الكرم لدى أبى سعيد مستغرقا

---

(١) فى وزن هذا البيت اضطراب واضح أشار إليه كثير من النقاد ، ومنهم الآمدى الذى يقول حذف النون من « فعولن » الأول ، والياء من « مفاعيلن » التى تليها ، ومن « فعولن » التى هى أول المصراع الثانى ، وذلك كله يسمى مقبوضا، وهى من من الزحاف الحسن الجائز إلا أنه إذا جاء على التوالى والكثرة قبح جدا». أنظر الموازنة ص٢٤٧ .

فى ذلك سبعة أبيات ، ينتقل بعدها إلى الحديث عن الجانب البطولى فى شخصيته .
فيصور يوما من أيام الحرب التى خاض أبو سعيد غمارها ، مستخدما مهارته الفنية فى رصد نوافر الأضداد ، فهذا اليوم يحفظ فيه العز بسمر العوالى بينما تفقد النفوس وتضيع ، ويراه فى جحيم وغاه وسعير هيجائه كأنه المصيف بطل فيه بيضة على رأسه لحمايتها من وقع الضربات . ولكن كلا منهم يرى أقرع أنزع لا شعر يكسو رأسه أو جانبي جبهته .

وقد أشرع كل رمح أسمر يعلوه سنانه المحمر بالدماء ، ويؤمه فى طعان القلوب حيث يجد متعته . وتلك الأسنة تشرب الدم النجيع من الكلى غريضا طريا ، بينما تروى به رماحها وتنقع ، كما تروى نفوس حامليها وتشتفى بما تنال من آثار . هذا اليوم الحافل بصور الهول وفظائعه يشق بطله أبو سعيد حومة وغاة ، قاصدا جبار أعدائه ليقنعه بسيفه ، ويطوق به عنقه وإن كان قد تقنع بلبس البيضة على رأسه :

ويومٍ يظلُّ العزُّ يحفظ وَسْطَه بسمرِ العوالى والنفوس تضيَّع
مصيفٍ من الهيجا ومن جاحمِ الوغى ولكنه من وابل الدم مَرْبَع
عبوسٍ كسا أبطاله كل قَوْنسٍ ويرَى المرء منه وهْوَ أقرع أنزع
وأسمرَ محْمَرِّ العوالى يَؤُمُّه سنانٌ بحبَّاتِ القلوب ممتَّع
من اللاء يشربْنَ النَّجيعَ من الكلَى
شققْتَ إلى جبَّاره حومةَ الوغى وقنَّعْتَهَ بالسيف وهو مقنَّع

هذا اليوم الذى وصفه أبو تمام ، وأظهر بطولة أبى سعيد فى اقتحام وغاه ، إنما هو مثل من الأيام التى تكرر وقوعها فى معاركه الظافرة على الخرمية ، والتى دارت رحاها فى سندبايا وفى هضاب آذربيجان وفى أرشق وموقان وأبرشتويم . وفى الكذاج المنيعة بالجبال ، وفى كل ملتقى الخيل ، أورث فرسانها الحسرات ، وأوردهم موارد الردى ، وتجلى فيه صنع الله ونصره لجنده المؤمنين ، وسواء تعجلوا الهجوم والاقتحام أم تريثوا فى الإيقاع بعدوهم فإن النتيجة واحدة ، ألا وهى الظفر بأعداء الله :

لدى سَنْدَبايا والهضابِ وأرشقٍ ‏ ‏ و.وقانَ والسُّمْرُ الدان تزعزَع
وأبرَشتويمٍ والكَذاجِ وماتقَى
سنا بكها والخيل تَرْدى وتمْزع
غدتَ ظَلْماً حسْرَى وغادرَ جَدُّها
جدودَ أناسٍ وهْى حَسْرَى وظلّع
هو الصنع إن يَعجَلْ فنفْع وإن يَرِثْ
فللرَّيْث فى بعض المواطن أسرع

ويقف أبو تمام عند هذا الحد فى حديثه عن تلك الوقائع التى أجملها إجمالا ، ولم يفصل القول فى أحداثها على نحو ما فعل فى قصائده السابقة .

وفى الأبيات الأخيرة من القصيدة يعرب أبو تمام لممدوحه عن آماله الكبار التى عقدها عليه ، مبينا عن طواعية النظم له فى مديحه ، لصدور عن مشاعر صادقة وإيمان مخلص بكل كلمة يقولها فيه ، فهو لا يمدحه طمعا فى المال والغنى كما يمدح غيره ، وإنما يرى فى مديحه غاية يصبو إليها ، وهمة ترفع من قدره فى سلم المجد ، فكم من عاثر اخذ ابو سعيد بيده ورفعه إلى المكانة العلية ، وما احق ابا تمام ان يكون موضع رعايته ، وصنيع فضله وسيفه المصات فى ميدان النظم والشعر ، وفى ساحة الخلود الأدبى ، وما قصيدته هذه إلا واحدة من اخوات لها سابقات واخريات ستكن لاحقات ما امتدت به ايام العمر :

أَظَلّتك آمالى وفى البطش قوةٌ ‏ ‏ وفى السهمِ تسديدٌ وفى القوسِ مَنْزَع
وإن الغنى لى إن لحظتَ مطالبى ‏ ‏ من الشعر الا فى مديحك أطوع
رأيتُ رجائى فيك وحدَك همةً ‏ ‏ ولكنه فى سائر الناس مطمع
وكم عاثرٍ منا أخذتَ بضَبْعِه ‏ ‏ فأضحى له فى قلةِ المجدِ مَطْلَع
فكان اسمه فى النائبات مدافعاً ‏ ‏ وكان اسمه من قبل وهْو مدفّع

وما السيف الا زُبْرَةٌ لو تَركتَه	لَظلّتْ صلابَ الصخر منها تَصَدَّعُ
لها أخواتٌ قبلَها قد سمِعْتَها	وان لم تَزَعْ بى مدةٌ فتسمعُ

تلك هى قصائد أبى تمام التى انشـدها محمد بن يوسف الثغرى اثناء الحرب البابكية، وقبل ان يقضى على بابك قضاء نهائيا ، وقد رأينا فيها تدفق ابى تمام الحماسى، صادرا عن مشاعره الصادقة ، ومعبرا عن احاسيسه العربية والإسلامية الجارفة، فقد وجد نفسه فى الفعال البطولية الرائعة لقائد عربى مثله ، بل طائى تربطه اواصر الدم والقربى ، فانطلق مفصحا عن كل خلجة دفينة فى اعماق نفسه ، ولعل نزعته العربية تتضح بجلاء إذا لاحظنا انه لم يذكر اسم الأفشين ولم يشر إليه من قريب او من بعيد فى أى بيت من أبيات هذه القصائد ، مع أنه كان قائد ابى سعيد فى هذه المعارك وهذا الإغفال يقصده ابو تمام قصدا ، ما فى ذلك شك ، لأنه وجد فى ابى سعيد مثله الأعلى للبطل العربى الإسلامى الذى بنى دولة الإسلام ، وبذل اقصى الجهود فى سبيل حمايتها والذود عن حياضها . ورد كيد الكائدين لها والخارجين على خلافتها ودينها .

وإذا كان الدكتور البهبيتى يرى ان شعر ابى تمام فى هذه الفترة بعد سنة ٢٢٠ قد بدا يدخل فى دور النضج والاكتمال ، ويبدو فيه خصب ابى تمام النفسى بأجلى ما ظهر من شعره طول حياته[١] ، فإننى اضيف إلى ذلك شعره الحماسى كان موا كبا فى نضجه لخصبه النفسى ، وان هذه الفترة التى قضاها فى صحبة ابى سعيد بساحة الحرب البابكية كانت بالغة الأثر فى نضج شعره الحماسى .

---

(١) أنظر حياة أبى تمام وحياة شعره ص١٣٠ — ١٣١ .

الفصل السابع

مع محمد بن يوسف الثغرى بعد القضاء على بابك

انتهت الحروب البابكية بسقوط مدينة « البذ » معقل بابك وأتباعه الخرمية ، كما انتهت حياة بابك بالقبض عليه بعد فراره ، وقتله فى « سر من رأى » شر قتلة ، وقد عرفنا تفاصيل هذه الأحداث فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . وبذلك استؤصلت شأفة هذه الفئة المضللة . وقضى عليها قضاء مبرما ، لم تقم لها قائمة بعده وتخلصت دولة الخلافة العباسية من هذا الخطر الداهم ، الذى ظل يهدد كيانها نيفا وعشرين عاما ، مع أنها كانت فى أوج قوتها وازدهارها .

وقد رأينا كيف عاصر أبو تمام تلك الأحداث الجسام ، وكيف شارك بشعره فى رصد وقائعها ، وتصوير بطولاتها من خلال مدائحه بقوادها المنتصرين،أورثائه لمن استشهد منهم فى ساحة الشرف والنضال .

وقد حظى القائد العربى الطائى محمد بن يوسف الثغرى بالنصيب الأوفى من هذه المدائح الحماسية الرائعة ، التى عرضنا لبعضها ، أو لما نظمه منها أثناء احتدام الصراع فى السنين الأخيرة ، ويبقى أن نعرض لبعضها الآخر ، أو لما نظمة منها بعد ختام الصراع بفتح «البذ» وتحقيق النصر الأكبر لجيش الإسلام ودولته العظمى.

وقصيدته الأولى التى نتناولها فى هذا المجال ، هى قصيدة دالية مطلعها[1] :

أظنُّ دموعَهـــا سَنَنَ الفريدِ ... وَهَى سِلْكاهُ من نَحْرٍ وجيدِ[2]

---

(١) أنظر القصيدة فى الديوان شرح التبريزى جـ٢ ص٣٢ .

(٢) السنن : القسابق ، والفريد : الدر ، وأراد بسنن الفريد ما يسقط منه ، وإنما أخذ من قولهم : سن الماء يسنه سنا : إذا صبه صبا سهلا .

وأغلب الظن أن هذه هي أول قصيدة أنشدها لمحمد بن يوسف بعد الظفر ببابك لما يتدفق خلال أبياتها من تيار حماسي جارف يدل على قرب العهد بأحداث الحرب، ولما يحللها من مشاعر الفرحة والابتهاج بالفتح المبين .

ومقدمة القصيدة لا تتجاوز خمسة أبيات ، يصور فيها أثر البين والفراق على صاحبته ، التي تبكي دموعا كأنها فرائد الدرر ، وتضرب وجهها وصدرها لشدة لوعتها ، فتحيل خدودها الموردة إلى لون البنفسج لما شابها من زرقة خفيفة نتيجة لطمها ، وهو مشغول عن صاحبته بتلك الخطوب الداهمة التي تشيب لهولها رأس الوليد ، فلا يطوف بخاطره طيفها ، ولا يواتيه في منامة وأحلامه ، إذ لا سبيل إلى النوم في تلك الظروف المضطربة ، وليس هناك سوى السهاد والأرق والتوتر النفسي المضني ، يقول بعد المطلع السابق :

لها من لوعة البين التدامٌ ... يُعيدُ بنفسجًا وَرْدَ الخُدود[1]
حَمَتْنا الطيفَ من أمّ الوليدِ ... خطوبٌ شيّبتْ رأس الوليدِ
رآنا مُشْعَرِي أرقٍ وحُزنٍ ... وبغيتُه لدى الرَّكْبِ الهُجودِ[2]

---

(١) الالتدام : أن تضرب المرأة وجهها وصدرها : وقد أخذ عليه الآمدي إستخدامه لفظ « التدام » لضرب الوجه ، على أساس أنه إستخدام لضرب النساء صدروهن في النياحة بجلود يتخذنها ، فجعلهن أبو تمام هنا يضربن بالجلود خدودهن ، والعادة لم تجر بذلك . ولكن ابن المستوفي رد عليه بما جاء في كتاب ابن فارس من معاني « الالتدام » بأنه ضرب النساء وجوههن في النياحة .

(٢) مشعري أرق : من قولك أشعر فلان الحزن وغيره : أي أودعه وأشعرته الشيء إذا ألبسته إياه .

مُسهادٌ يُرَجِّنُ الطرفُ منـه   ويوامِ كلٌّ طيفٍ بالصدود(١)

وواضح أنه فى هذه المقدمة يمهد لموضوعه الحماسى الذى انصهرت فيه أحاسيسه ومشاعره ، وملك عليه أركان فؤاده وخلجات نفسه ، فليست الخطوب التى شغلته عن صاحبته ، وصدت طيفها عن مخيلته ، وأورثته السهاد والأرق ، ليست هذه الخطوب سوى أحداث الحرب الدائرة فى أرض « البذ » حيث يحتدم القتال بين البابكية وجند المسلمين . وهو يصف هذه الحرب بأنها عقيم تستأصل الرجال استئصالا بينما الردى فى ساحاتها ولود تنتج المنايا تباعا . وفيها تسود وجوه مقاتلينا من سفع عجاجها ، بينما تبقى أخلاقهم نقية بيضاء ، محمودة الشجاعة والبلاء :

بأرض البذِّ فى خيشوم حرب   عقيمٍ من وشيكِ رَدًى ولودِ
ترى قسماتِنا تسودُّ فيهـا   وما أخلاقُنا فيها بسود

والأضداد المتنافرة واضحة صورها فى البيتين ، على ماعهدنا من مذهب أبى تمام ثم نراه فى البيت الثانى يستخدم ضمير جماعة المتكلمين ، مشركا بذلك نفسه كواحد من مقاتلى المسلمين ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على اندماجه فى تحمسه ، واغتباطه بما أحرزه إخوته المجاهدون من نصر عظيم . ويؤكد ذلك توالى إستخدامه لضمير الجماعة هذا فى الأبيات التالية :

ونراه فى وصفه لتلك الحرب ، يشرك الخيل مع فرسانها فى معاناة أهوالها ، وخوض غمارها ؛ فهى تقاسمها الكر والاقتحام والجلاد الدائب العنيد ، بما عرف عنها من أصالتها وقوة احتمالها ، حتى عسوا ومازالت عليهم دروعهم السابغة المحكمة ،

---

(١) أرجحن : فى معنى ثقل ، وقيل أرجحن : إذا سقط بمرة ، ويقال أرجحن الجيش : إذا كثر فأبطأ سيره .

وتمسى خيولهم وعليها سروجها ولبودها مثبتة على متونها ، وقد واصلوا نضالهم بها دون كلل أو ملال كأنما حذوا أرجلها أو حوافرها بالوجى والتعب ، فجعلت تنكب على وجوهها راكعة ساجدة من شدة الإعياء ، وإذا أرادت أن تتلمس متنفسا لها بالخروج من غمرات القتال قالوا لها : إنك إن لم تعودى إلى خوض غمراته فستكونى حبائس موقوفة على الجهاد فى سبيل الله ، فلا مفر أمامك من مواصلة ذلك الجهاد معنا ، وأنت عزيزة علينا نعرف لك عظيم قدرك ، فكم من مجد حققته لنا ، وكم من سؤدد أمكنتنا منه ، وإن لم يكن لك من ذلك نصيب ، فيالها من مثالية بالغة فى التضحية والأثرة تقدمها لهم تلك الخيول الأصيلة :

تقاسمْنا بها الجُرْدُ المذَاكى سجالَ الكرِّ والدأب العنيد
فتمسى فى سوابغَ مُحْكَمَاتٍ وتُمسى فى السُّروج وفى اللُّبود[1]
حذَوْناها الوَجى والأينَ حتى تجاوَزَتِ الرُّكوعَ إلى السجود
إذا خرَجتْ من الغَمَراتِ قلنا خرَجتِ حبائساً إنْ لم تعودى[2]
فكم من سُؤْدُدٍ أمكَنْتِ منه برُمَّته على أنْ لم تَسُودى

وفى إطار حديثه عن الخيل وبلائها فى الحرب ، نراه يربط بينها وبين أبى سعيد فهو الذى أهانها فى الطراد والنزال ، ومع ذلك فهى لم تهن عنده أبدا ، وإنما أراد أن

---

(١) رويت الكلمة الأولى من هذا البيت فى الديوان « فتمسى » والتصحيف واضح فيها ، وقد صححتها « فتمسى » ليستقيم المعنى .

(٢) المعروف فى « الحبائس » أنها الموقوفة على الجهاد فى سبيل الله ، واذا حمل المعنى على ذلك ، كان مقصد الداعى بهذا الدعاء : وقفت فى سبيل الله ان لم تعودى الى الحرب . ولكن الغرض يحمل على أن هذه الخيل فى نفوسهم عزيزة ، فهم يكرهون خروجها عن أيديهم لكرمها عليهم ، لانها اذا صارت حبائس ، شاركهم فيها غيرهم ، ولم يتمكنوا من أعنتها كما يتمكنون وهم يملكونها .

يبلوها ، وأن يحملها ذلك الواجب الثقيل ، كي يحقق بها أمانيه الغالية فى النصر، ويبلغ بها آماله فى الوصول إلى المجد :

أهانَكَ للطِّراد ولم تُهونى عليه وللقياد أبو سعيد
بلاكِ فكنت أرْشِيَةَ الأمانى وبُرْدَ مسافةِ المجدِ البعيد

ويتابع أبو تمام حديثه عن أبى سعيد فى هذه الحرب ، وفارسها المجلى ، الذى نال سنا المجد بجهاده ، وتضحيته لا اعتمادا على الحظ، والذى عرف بالثبات والاستبسال فى مواجهة الموت ، حين يذهب الروع حياء الشجاع ، ويريق ماء وجهه فيلجأ إلى الفرار نجاة من الهلكة ، وهذا ما يأباه أبو سعيد على نفسه ، ويفضل أن يسفك دمه حفاظا على كرامته :

فتىً هزَّ القنا فحوَى سناءً بها لا بالأحاظى والجُدود
إذا سفك الحياءَ الروعُ يوماً وقَى دمَ وَجْهِهِ بدمِ الوريد

ويندرج أبو تمام من هذا الحديث الحماسى العام إلى ذكر الوقائع التى أوقع فيها أبو سعيد بالبابكية ، وأولها وقعة « سندبايا » التى فتك فيها بفرقة منهم كان يقودها قائد من قواد بابك اسمه معاوية — كما سبق أن عرفنا — ثم وقعة « أرشق » المشهورة التى داهم فيها بابك مداهمة الفناء للخلود ، فولى فرارا من وجهه، فسبق الريح ركضا من شدة الفزع ، ليحتمى بموقان ، فأرسل أبو سعيد خلية على إثره تثير النقع وتضرب كديد الأرض بحوافرها ، لتلحق به .

إن هذا العمل البطولى الرائع قد جعل أبا تمام يشهد له بأنه ركن الإسلام الشديد الذى يجد فى كنفه الحماية والأمن :

قضىَ من سَنْدَبايا كلَّ نَحْبٍ وأرشقَ والسيوف من الشهود
وأرسلَها على موقانَ رَهْواً تثير النقع أكْدَرَ بالكديد

رآه العـلـجُ مقتحماً عليه كما اقتحم الفناءُ على الخلود
فمرَّ ولو بمجارى الريح خيلت لديه الريح ترسُفُ فى القيود
شهدت لقد أوى الإسلام منه غداة تشذ إلى ركنٍ شديد

ومن الواضح أن أبا تمام لم يفصل القول فى هذه الوقائع على نحو ما فعل فى القصائد السابقة ، ولعله تجنب الإطالة هنا لما ينتظره من وقائع وأحداث أخرى لم يعرض لها من قبل ، وعلى الأخص سقوط البذ وفرار بابك .

ويتابع أبو تمام ذكر أحداث تلك الحروب ووقائعها ، ومنها مداهمة حصون الخرمية المنيعة فى الجبال ، والتى يسمونها الكذاج أو الكذجات ، وكذلك المغارات والكهوف التى كانوا يتكمنون فيها ويتربصون لجند المسلمين ، فقد أنفذ أبو سعيد وعيده لهم وأحالها قبورا دفنوا فيها ، كأنهم بقايا من أهلكوا من أقوام عاد وثمود. فى هضاب أبرشتويم وجه إليهم الضربات القاصمة التى تمزق الأحشاء . وتفزع من وقعها مهجات الأبطال . تلك الفعال البطولية كانت بشير سعد على خلافة الإسلام :

وللكَذَجات كنت لغير بخـل عقيم الوعد منتاج الوعيد
غدت غير أنهم لهم قبوراً كفت فيهم مئونات اللحود
كأنهم معاشرُ أهلكوا من بقايا قوم عاد أو ثمود
وفى أبرشتويم وهضبتيها طلعت على الخلافة بالسعود
بضرب ترقُصُ الأحشاءُ منه وتبطُلُ مهجةُ البطل النجيد

أما حادثة البيات التى عرفنا من مصادر التاريخ أن بابك بيت فيها الأفشين ونقض عسكره — على حد قول الطبرى[1] — فإن أبا تمام يذكرها هنا كما ذكرها

(١) أنظر الطبرى ج٩ ص٢٥ .

فى قصائد سابقة . دون إشارة إلى هزيمة جيش الأفشين ومعه أبو سعيد . وإنما يركز فيها على ثبات أبى سعيد ورباطة جأشه أمام هجوم العدو والمباغت تحت جنح الظلام. وبصورة ليثا باسطا ذراعيه بالوصيد، حاميا لجيشه من عصبة الليل الغادرة . وأنه بات على إستعداد فى عدته وسلاحه ، فلم تباغته غدرة العدو ، وجالده مستبسلا مستميتا صابرا أحسن الصبر لدفع الخطر ، ورد كيد الخرمية فى نحورهم ، وإن كان دجى الليل قد غطى فعاله البطولية ، وسرق ما أظهر من بـــلاء عظيم ، فإن ذلك لم يطمس الحقيقة ، التى شهد له بها كل مقاتل فى الميدان :

وَبيَّتَّ البياتَ بعقد جأشٍ ... أشدَّ قوىً من الحجرِ الصَّلُود
رأوْا ليثَ الفَريقَـةِ وهْو مُلْقٍ ... ذراعيه جميعاً بالوصيد
عليماً أن سيرفُلُ فى المعانى ... إذا ما بات يرفلُ فى الحديد
وكمْ سرقَ الدُّجى من حُسن صبرٍ ... وغطَّى من جلادٍ فىً جَليد

ويصل أبو تمام إلى المعركة الفاصلة ، معركة سقوط « البذ » التى شفت أحقاد المسلمين على بابك وعصبته الباغية . فتراه يصور أحداثها من الواقع الذى سجلته كتب التاريخ ، إذ دارت المعركة فى بدايتها على التل المواجه للبذ ، بين البابكية بقيادة « آذين » وبين جيش المسلمين ، الذى أحاط بهم من كل جانب . وفتك بهم فتكا ذريعا . ثم دخلوا « البذ » فأشعلوا النيران فى قصورها ومنازلها ، فبدت كأنها جهنم أطبقت، على ما بقى من الخرمية وأحرقتهم وأنضجت جلودهم ، إلا أنهم لم يبدلوا جلودا غيرها ، على ما وعد الله به أمثالهم من الكفرة فى جهنم الآخرة .

وهكذا أهلك اصحاب بابك قسمة بين القتل على التل وبين الحرق فى داخل المدينة. ورأى بابك عاصمته قد استبيحت ودمرت ، ودولته قد آلت إلى الزوال والفناء ، فانصاع ذليلا مزمعاً الهروب نجاة بنفسه من الهلاك المحقق ، كأنما تباطأ به اجله ،

وتبلد به جبنه إلى ان تحل ساعته المحتومة . وما هى إلا ايام حتى اقتنصه بنوسنباط وهو مار بمنطقتهم ، ونصبوا له شراك الأمان حتى اطمأن إليهم ونزل بقلعتهم ولولا غلبة الإسلام وقوة رجاله التى ازالت ملكه ، لما آتتهم الجراة على الإيقاع به ، ولما اسلموه إلى ابى سعيد الذى ذهب إليهم وقبض عليه :

ويومَ القتلِّ تلٌ البذ أبنا ونحن قصارُ أعمارِ الحقود
قسمناهُمْ فشَطْرٌ للموالى وآخرُ فى اللَّظى حرقِ الوَقُود
كأن جهنمَ انضمتْ عليهمْ كلاها غيرَ تبديلِ الجلود
ويومَ انصاعَ بابكُ مستمراً مباحَ العُقْر مُجتاحَ العَديد
تأمّل شخصىَ دولته فمنّت بجسم ليس بالجسمِ المديد
فأزمعَ نيّةَ هرباً فحامت حُشاشتُه على أجلٍ بليد
تقنّصه بنو سُنباطَ أخذاً بأشراكِ المَواثقِ والعهود
ولولا أن ريحَكَ درّبتهم لأحجمتْ الكلابُ عن الأسود

ويطبق ابو تمام على هذه الحال . . التى اوقع فيها بيابك واسلم إلى ابى سعيد دون عناء — المثل العربى القائل وخيار البز على العقود ، فهو زعيم تلك الفرقة التى اجهدت دولة الإسلام إجهادا ، وكلفتها الكثير من المشقة والعناء . والرجال والأموال ، وكم من مرة احيط به فيها وقتل من قتل من اصحابه واتباعه ، وكان قاب قوسين او أو ادنى من القتل او الأسر ، ولكنه كان يتمكن من الإفلات والنجاة ، ثم ها هو يقبض عليه ويساق أسيرا ذليلا ، دون مدافعه أو قتال ، فمثله مثل أفضل ثياب البز التى يحصل عليها من يبتغيها بلا مشقة فى البحث أو الانتقاء :

وهرجا ما بطشتَ به   فقلنا   خيارُ البزِّ كان على القعود[1]

هذه الوقائع التى سردها أبو تمام من سجل بطولة أبى سعيد الحافل فى الحروب البابكية ، كانت تأتى أخبارها المبشرة بالنصر ، يحملها البريد إلى حاضرة الخلافة فى « سامرا » : وعلى كتبها ريشة سوداء رمزا للهزيمة والانكسار .

وإذا كانت نتائج هذه الانتصارات قد عم نفعها كل فرد فى مجتمع الدولة ، بل كل إنسان من بنى البشر ، فإنها قد خصت بالنفع بنى عبد الحميد الذين استشهد رجلهم وسيدهم محمد بن حميد فى معركته المعروفة ضد هؤلاء البابكية . فهذه الانتصارات قد شفت غليلهم وأخذت بثأرهم وردت إليهم كرامتهم ، خصوصا وأنها تمت على يد طائى من العشيرة هو أبو سعيد :

وقائعُ قد سكبْتَ بها   سواداً   على ما أحمرَّ من ريش البريد[2]

---

(١) هرجام : هو ملك الصنبارية على حد قول الصولى . وأبو تمام يذكره هنا رمزا لرئيس القوم ويقصد به بابك . والمثل المضروب فى البيت تروى عنه روايات كثيرة منها أن بعض العرب أغار هو وأصحابه على قوم معهم أحمال ثياب، وكان على قعود معهم خيار متاعهم فقال « خيار البز على القعود » فذهبت مثلا ، ومنها أن الزباء قالته حين نظرت الى رءوس بنيها على الدهيم بدل البز . أرادت بذلك أن آخر ما يحمل الى من البز رءوسهم ، فلا يحمل الى بعدها بز على القعود . وهناك روايات أخرى ذكرها شراح الديوان (أنظر ح٢ ص٤٠ — ص٤١)

(٢) كان أصحاب السلطان اذا ظفروا ضموا الى خريطتهم التى فيها كتاب الفتح ريشة سوداء ، ليستدل بها قبل قراءة الكتاب على ما أعطوا من الظفر ، وان كانت الوقعة عليهم ، أو احتاجوا الى مدد رموا ريشة ووجهوا بها . وقيل ان الخرمية كانت علامة ظفرهم أن يحمروا ريشة وينفذوها مع بريدهم ، فلما ظفر سعيدبهم ، سود الريشة خلافا عليهم ، وجريا على عادة بنى العباس فى ليس السواد .

ويختم أبو تمام قصيدته بأبيات يبين فيها عن إعتزازه بسيد قومه وبطل العروبة أبي سعيد ، الذي شرفهم بانتصاراته ، والذي أخذ بيده وأقال عثرته ، إذ وجد في رحابه غنى نفسه وعزتها . بعد أن لقي ما لاقاه لدى غيره من الإهمال ، وبعد أن عانى ما عاناه من الفاقة والمحل . إنه فتى طيء الذي أحيت يداه شيم الجود والكرم في قومه ، فعادت مشهورة كما عهدها الناس من قديم :

لئنْ عمَّت بني حواء نفعاً   لقد خَصَّتْ بني عبد الحميد
أقولُ لسائلي بأبي سعيدٍ   كأنْ لم يشْفِه خبرُ القصيد
أجِلْ عينَيْك في ورقٍ مليّاً   فقد عاينت عامَ المحْل عودي
لَبِسْتُ سواه أقواماً فكانوا   كما أغنى التيمُّم بالصعيد
وتَرْكي سرعةَ الصَّدَرِ اغتباطاً   يدلُّ على موافَقَة الورود
فتىً أحيتْ يداه بعد يأس   لنا الميْتَين من كرمٍ وجود

* * *

وتأتي قصيدة أبي تمام الثانية في أبي سعيد ، بعد انقضاء فترة على نهاية الحروب البابكية ، فترت فيها حماسته بعض الشيء . وإن كانت صور البطولة التي سجلها أبو سعيد في ميدان الحرب ، وأشاد بها أبو تمام في قصائد الشعر ، مازالت ماثلة في الأذهان . ومازالت أصداؤها تتردد في نفس أبي تمام ، فيتغنى بها في أشعاره أناشيد حماسية خالدة .

وهذه القصيدة[١] يبدؤها بمقدمة لا نسيب فيها بحبيب ، ولا ذكر للأشواق ولوعة الفراق ، وإنما نراه يذكر داعيا دعاه وهو هاجد في مرقده ، ليوافي محمد بن يوسف ويحل في رحابه ، فلا يملك إلا أن يجيب الدعوة قاصدا إليه :

---

(١) أنظر القصيدة في الديوان حـ٢ ص١٣٦ وما بعدها .

داع دعا بلسانٍ هادٍ مرشـــد   فأجاب عزمٌ هاجدٌ فى مَرْقَدِ
نادى وقد نشرَ الظلامِ سدولَه   والنوم يحكم فى عيون الشُّرقِ
يا ذائدَ الهيم الخوامسِ وفِّها   عِشْراً ووافِ بها حياضَ محمد

إن حبه لمحمد قد تمكن فى قلبه ، وإن فكره قد تعلق به تعلقا شغله عن كل شىء .
فأشاد بذكره مادحا ، ودبج فيه غرر قصائده التى تنقاد غرائبها إليه فى سهولة ويسر ،
لأنه يعبر عن مشاعر صادقة ، ولا يقول فيه إلا حقيقة ما يؤمن به وما يراه ماثلا
فيه ، فهو لا يكذب ولا يداجى طمعا فى نواله شأن الشعراء المداحين :

لما رأيتك يا محمد تصْطَفِى   صفْوَ المحامدِ من ثناء المجتدى
سَيَّرْت فيك مدائحى فتركتها   غررا تروح بها الرواة وتغتدى
مالى إذا مارضْت فيك غريبةً   جاءت مجىء نجيبةٍ فى مقود !
وإذا أردت بها سواك فرضْتَها   واقْتَدْتَها بثنائه لم تنقدِ !

وهو يذكر سبب العلاقة القوية التى ربطته بأبى سعيد ، وقربته إلى نفسه إنها
حرمة الشهيد محمد بن حميد ، ووفاؤه لذكراه ، ذلك الوفاء المثالى ، الذى نضح به
رثاؤه الخالد ، فجرى ذكره على كل لسان :

صدَّقْتَ مدحى حين رَعَيْتَنِي   اقْتُرِمى بالسَّيدِ المتشهِّدِ

ويستطرد أبو تمام فى امتداح صفات النبل والشرف والجود والكرم التى يراها
ماثلة فى شخص أبى سعيد وفى فعاله حتى يصل فى البيت التاسع عشر من القصيدة
إلى الحديث عن بطولاته فى الحرب ، وحنكته فى قيادها ، وعزيمته الجبارة التى تعصف
برءوس الناكثين والخارجين على الخلافة ، حتى إنها لو جزته على مواقفه المشهودة
لجعلت منه قبلة للمجاهدين ، يتجهون إليها بالطاعة والولاء :

ولرُبَّ حربٍ حائلٍ لقَّحتَها ونَتَجتَها من قبلِ حينِ المولدِ
فإذا بعثتَ لنا كثينَ عزيمةً عصفتْ رؤوسَ من سيوفٍ رُكَّدِ
إنَّ الخلافة لو جزتْكَ بموقفٍ جعلتْ مثالَكَ قبلةَ المسجدِ
وسمتْ إليك جنودُها حتى إذا وافتْكَ خرَّ لديكَ كلُّ مقلَّدِ

وأبو تمام فى هذه القصيدة ، لا يسرد أحداث الحروب البابكية ووقائعها ، كما فعل فى القصيدة أو فى القصائد السابقة ، وإنما يكتفى بمثل منها يؤكد به الصورة المثالية التى رسمها لأبى سعيد فى البطولة والشجاعة ، هذا المثل هو موقفه المشهود فى يوم « البذ » حين اشتد البأس وحمى وطيس القتال ، والتحم الرجال بالرجال ، وتكسرت الرماح والمناصل من شدة الصدام ، وصار المكر عسيرا والمأزق ضنكا . فى هذا الموقف الصعب نازل أبو سعيد عدوه البابكى الفاسد العقيدة ، المفند الدين ، فثبت فى لقائه ثبات اليقين الحق فى قلبه ، وعلا هامته بسيفه الوامض كأنه شهاب الموت ، فأطارها عن جسده .

إنه بهذا الموقف الشجاع لجدير بثناء الله وبشكر خليفة المسلمين ، فهو فارس الإسلام الحق ، وحامى حماه ، والذى كفاه نهش عدوه الكلب ، ونصره بكتائب المجاهدين الصادقين ، التى نصبها رصدا للعدو ، كى تكشف عوراته ، وتقف على ثغرات ضعفه ، وتأتيه من حيث لا يحتسب . وبهذا أصبح حارس ثغور الدولة ، بيده مفتاحها وقفلها ، وبمقدرته سد ثلمتها التى كانت فاغرة تنزف من خلالها المصائب والنكبات ، وتتوالى ثورات أعداء الاسلام والخارجين على سلطان خلافته .

والله يشكرُ والخليفةُ موقفاً لكَ شائعاً بالبذِّ صعبِ المشهدِ
فى مأزقٍ ضنكِ المكرِّ مقصَّصٍ
أزز المجال من القنا المتقصِّدِ

نازَلْتَ فيه مُفَنّداً فى دينه لا بأسه فرآك غيرَ مُفَنَّد
فعلوْتَ هامتَه فطار فَراشُها بشهاب موتٍ فى اليدين مجرد
يا فارسَ الإسلام أنت حميتَه وكفيتَه كلْبَ العدوِّ المعتدى
ونصرْتَه بكتائبٍ صيّرْتَها نَصْباً لعوْرات العدوِّ بمرصَد
أصبحْتَ مفتاحَ الثغورِ وقفلَها وسدادَ ثُلْمَتِها التى لم تسْدَدِ

لقد أدرك أبو سعيد فى هذا اليوم الخالد بثأر شهيد دولة الإسلام محمد بن حميد، الذى سفك دمه الطاهر بيد الخرمية الباغين . وبهذا العمل الجليل استحق شكر كل مسلم موحد بالله : واستبشرت أركان مكة المقدسة بفتحه المبين ، فضحكت سعيدة به كما ضحكت فى يوم بدر لانتصار القلة المؤمنة على عتاة الكفر والجهالة . لقد أحيا هذا البطل نجدة سيف الله خالد بن الوليد فى نصرة الإسلام ، وأفسح مجال الجهاد لكل مسلم يسعى لإعلاء كلمة الله — ولو كان هرثمة بن أعين ، القائد العباسى المشهور حيا وشاهد تلك الحرب المريرة ، وبلاء أبى سعيد فيها ، لأقر له بالفضل ، ولرأى فيه أقدر القواد على قمع هؤلاء العصاة العتاة وسحقهم ، ولاعترف له بالتفوق عليه فى شن الغارات ، وقياد الخيل فى سرى للخيل ، والذود عن حياض الإسلام بيد القوة والبطش ولسان الحكمة والحق .

أدركْتَ فيه دمَ الشّهيدِ وثأرَه وفلجْتَ فيه بشُكرِ كلِّ مُوحِّد
ضحِكَتْ له أكبادُ مكّةَ ضِحْكَها فى يوم بدرٍ والعُتاةِ الشُّهَّد
أحيَيْتَ للإسلام نَجْدة خالدٍ وفسَحْتَ فيه لمُتْهِمٍ ولمُنْجِد
لو أنَّ هرثمةَ بنَ أعْيَنَ فى الوَرَى حىٌّ وعايَنَ فضلَه لم يَجْحَد
أو شاهدَ الحربَ المُمِرَّ مذاقُها لرآهُ أقْمعَ للعُتاةِ العُنَّد

وأجرَ للخيل المغـيرة فى الشُّرَى   وأذَبُّ منه باللسان وباليــد

وكما عقد تلك المقارنة بين أبى سعيد وبين مشاهير قواد المسلمين ، نراه يعقد مقارنة مثلها بينه وبين مشاهير الأجواد فى العرب ، مثل طلحة الطلحات ، وحاتم الطائى ، وأبان بن الوليد البجلى ، ليجعل منه أسخى منهم يدا ، وأسبق فعالا فى مضمار الجود والكرم . وهو بذلك قد جمع شمائل المجد من كل جانب ، وعلا شأوه حتى بلغ ذروة الرفعة فوق النجوم ، ثم له على ذلك كنية تحمل معانى السعادة والفأل الحسن ، فلينعم بما أوتى من فضل عميم ، وليهنأ بما أسبغ عليه من أسباب الجـاه والسيادة والشرف :

أمّا الجيادُ فقد جرَتْ فسبَقْتَها   وشَرِبْتَ صَفْوَ زُلالها فى المَوْرِد
غادَرْتَ طلْحَةَ فى الغبار وحاتماً   وأبانَ حسْرَى عن مَداكَ الأبعَد
وطلعْتَ فى دَرَجِ العلا حتى إذا   جئتَ النجومَ نزلْتَ فوقَ الفرْقد
فانعم فكُنيتُكَ التى كُنِّيتَها   فألٌ جرى لك بالسعادةِ فاسْعَد

ويختم القصيدة بأبيات يذكر فيها وفادة أبى سعيد على الخليفة المعتصم فى تلك الفترة ، حيث تلقاه — بطبيعة الحال — بالترحاب والتكريم ، إنها وفادة قائد مظفر ميمون النقيبة ، وإنها لزورة يمن وبركة يستحق صاحبها يحتفى به حفاوة عظيمة . وفى ذلك كمد لحاسديه ، وقطع لرجائهم الحاقد ، وتصلية لجمرات الغيظ الكامن فى قلوبهم ، إذ ينفسونه على ما يرفل فيه من نعيم المجد والسؤدد ، وهم لا يملكون مطاولته ، فيبدون إلى جواره صغارا مغمورين ، ويتهاوى كيدهم متهافتا متناثرا كأنه الأطلال الدارسية التى عفا عليها الزمن :

ولقدْ وفدْتَ إلى الخليفةِ وفدةً | كانت على قَدَرٍ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ
زرْتَ الخليفــةَ زورةً ميمونةً | مذكورةً قطعَتْ رجاءَ الحُسَّــد
يتنفســــون فتنثنى لَهَوَاتُهم | من جمْرةِ الحسَــد التى لم تَبرُد
نفسوك فالتمسوا نـــداك فحاولوا | جبلاً يَزِلُّ صفيحُه بالمَصْعَد
درست صفائحُ كيدهم فكأنهــا | أذكرْن أطلالاً ببرْقةِ تهْمَد

* * *

أما القصيدة الثالثة لأبى تمام فى أبى سعيد ، بعد القضاء على بابك ، فهى قصيدة لا تقتصر إشادة أبى تمام ببطولة أبى سعيد فيها على الحرب البابكية وحدها ، وإنما تضيف إليها بطولته فى الحرب الرومية التى أعقبت قتل بابك ، إذلم تكد جيوش المعتصم تخلد إلى السلم ، حتى جاءه خبر إيقاع امبراطور الروم توفيل بن ميخائيل بأهل زبطرة وأهل ملطية على الحدود الشمالية للدولة ، وتمثيله بالرجال وسبيه النســاء[1] .

وقد سبق أن ذكرنا تحريض بابك له على شن هذه الحرب حين ضيق عليه الحصار بمعقله فى « البذ » أملا فى أن تخف عنه شدته ، إذا ما انصرفت جيوش المعتصم أو جزء منها لمواجهة الروم[2] ، إلا أن القدر لم يمهل بابك كى يستفيد بنتيجة تحريضه ، فكانت نهايته أسبق من غزو الروم لتلك الثغور ، وتنكيلهم بأهلها على هذه الصورة البشعة ، التى أغضبت المعتصم وأثارت حفيظته ، ودفعته إلى المبادرة بالرد عليهم والانتقام منهم ، فعبأ جيوشه وشن عليهم حربا شعواء خرب فيها ديارهم وتوج غزوه بفتح « عمورية » أكبر حصونهم وأمنعها .

---

(١) أنظر الطبرى حوادث سنة ٢٢٣ھ

(٢) أنظر أواخر الفصل الرابع من هذا الكتاب ، وكذلك الطبرى ج٩ ص٥٦ .

وقد شارك أبو سعيد — بطبيعة الحال — فى هذه الحرب ، وفيما تلاها من الحروب التى استمرت ضد الروم ردحا من الزمن . فلم تكن الفترة الفاصلة إذن بين الحرب البابكية والحرب الرومية إلا فترة قصيرة ، لا تتيح لأبى تمام الفرصة لنظم المزيد من قصائده التى يتغنى فيها بسحق أبى سعيد البابكية ، وإذا كانت الحروب الرومية قد فتحت أمامه مجالا جديدا لشعره الحماسى ، فإنه لم يغفل تماما الحديث عن الحرب البابكية التى كان لها فى نفسه شأن أى شأن . ومن ثم جاءت قصيدته هذه فى أبى سعيد جامعة بين الحربين ، وهى التى يبدؤها بقوله[1] :

عَسى وطنٌ يدنُو بهمْ ولَعَلَّما وأنْ تُعْتِبَ الأيامُ فيهم فرُبَّما

وبعد مقدمة تقليدية فيها نسيب وغزل ووصف للإبل التى حملته إلى ممدوحه أبى سعيد ، يشرع فى الحديث عنه ذاكرا سابغ معروفه وسبقه فى الندى والكرم، وحفاظه لشيم العزة والشرف وسماحة الخلق وإباء الضيم .

بعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن حماية أبى سعيد لثغور الدولة ، وصده عدوان العادين عليها ، حتى أصبح ثغراها فى المشرق وفى الشمال سدين منيعين لا ينفذ إليهما عدو ، بعد ما أصاب أهلهما من ضيم على يد الخرمية فى المشرق ، ومن إذلال على يد الروم فى الشمال ، فهو الذى أعاد الأمن والسكينة إلى نفوس الناس فيهما ، إذ كان لصغيرهم أبا ولكهلهم أخا ولمسنهم ابنا ، وتلك لعمرى أمثل معاملة طيبة بين الحاكم والرعيـــة :

---

(١) أنظر القصيدة فى الديوان حـ٣ ص٢٣٢ بشرح التبريزى .

لقد أصبحَ الثَّغرانِ سَدْينِ[1] بعدَما رأوا سَرَعانَ الذل فَذاً وتوْءَما
وكنتَ لنا شيمهم أباً والكَهْلهِم
أخاً ولذى التَّقْويسِ والكَبْرةِ ابْنَما

وما يزال أبو سعيد على عهدنا به ، فارس الهيجاء وفتاها ، الذى أوقف عليها حياته وخصها بحبه وهواه ، فإذا كان غيره من الفتيان قد جعل غرامه البيض الكواعب من النساء ، فإن غرام أبى سعيد ليس إلا للبيض القواضب من السيوف ، وإذا كان غيره تتيمه سمر الحسان ، فإنه لا يتيم إلا بسمر القنا ، هذا هو طريق المجد الذى اختاره لنفسه على ما فيه من مشقة وعسرة

ومن كان بالبيضِ الكواعِبِ مُغْرَماً
فما زِلتَ بالبيض القواضب مُغْرَما
ومن تَيَّمَتْ سُمْرُ الحِسانِ وأُدْمُها
فمازلتَ بالسُّمرِ العَوالى مُتَيَّما

ويسوق أبو تمام شواهد من مواقفه البطولية فى هاتين الحربين ، فهو الذى جدع أنف الضلال ، ونكل بدعاته الخرمية فى تلك الوقعة الحاسمة ، التى أطاح فيها برأس كل من تبع عقيدتهم الباطلة ، وإذا كان ترك كل رومى فى عقرقس ذليلا راغم الأنف ،

---

(١) أختار محقق الديوان رواية أخرى هى « فى الدين » بدل « سدين » وأشار فى الهامش إلى أن الرواية التى اختارها انفرد بها أحد الأصول ، بينما بقية الأصول عن الرواية الأخرى التى هى « سدين » ، وقد آثرت إثباتها لتوافقها مع المعنى ومع مذهب أبى تمام الفنى فى توافر الأضداد ، ثم لإجماع بقية الأصول عليها .

فانه من قبل لم يدع فى ميمذ بآذربيجان خرميا أخرم الدين ، إلا وقد ثلمه بسيفه المشرفى فأزهق روحه ، بل إنه قد ثلم عز دولتهم وهدمها هدما ، فقطع بذلك بنان الكفر فى أقاليم المشرق ، ثم أتبعها بقطع بقية يده — كفها ومعصمها — فى بلاد الروم ، فيد الكفر واحدة وإن اختلفت مواطنها :

جَدعْتَ لهم أنفَ الضَّلال بوَقْعة تَخَرَّمْتَ فى غُمَّاتها من تَخَرَّما
لَئِنْ كان أمْسَى فى عَقَرْقُسَ أجدعَا لَمِنْ قَبْلُ ما أمسَى بمِيمَذَ أخْرَما
ثَلمْتَهُمُ بالمشْرَفِىِّ وقَلَّما تثَلَّمَ عِزُّ القوم إلا تَهَدَّما
قطعْتَ بنانَ الكُفرِ منهم بمِيمَذ وأتْبَعْتَها بالرُّوم كفًّا ومِعْصَما

ولا تفتر إشادة أبى تمام بما فعله أبى سعيد بالخرمية من التنكيل والبطش ، فكم جبار منهم كأنه الجبل صلابة وشموخا هده هدا ، وكم غاو منهم قد تمادى فى غيه، قومه بسيفه ليرجعه عن غوايته ، وكم من شاب فى مقتبل العمر روعته سيوفه ، وأحلت فى قلبه الرعب والفزع ، فشيبت رأسه ، وأحالت شعره الأسود إلى ثغام أبيض ، فلما أبت شيبته الانصياع لحكمه ، غاداه برمحه فأنفذ فيه حكمه ، وأحكم فيه أمره ، فأرداه قتيلا ، إذ ليست هناك وسيلة لتقويم الخصم العنيد ، الذى لا يمتثل للنصح ، ويصم أذنيه عن نداء الحق ، إلا إراقة دمه الأصم المقوم :

وكمْ جبلٍ بالبَذِّ منهمْ هَدَدْتَه وغاوٍ غَوَى حلَّمْتَهُ لو تَحلَّما
ومُقْتَبَلٍ حلَّتْ سيوفُك رأسَه ثَغاماً ولولا وقعُها كان عِظْلَما[1]

---

(١) العظلم : شىء يصبغ به . وربما استعمل فى الحمرة وربما استعمل فى السواد وهو هنا على المعنى الثانى .

فلما أبتْ أحكامَه الشَّيْبةُ اغتدَى ... فذاكَ لما قدضيَّمَ الشَّيْبُ مُحْكَما
إذا كنتَ للألْوَى الأصمِّ مُقَوِّماً ... فأوْرِدْ وريدَيْه الأصمَّ المقَوِّما(١)

وفى قتال البيات تحت جنح الليل كانت لأبى سعيد وفوارسه مواقف مشهودة وقد سبق لأبى تمام أن صورها فى قصائده السابقة ، ولكنه هنا يرسم لها صورا جديدة ، إذ يصور أبا سعيد فى التقائه بقائدهم ، وقد ثبت أمامه صابرا مستبسلا فى القتال ، كأنما أنقع له حوضا زاخرا بالصبر يرتوى منه أمراً طويلا فلا ينفد صبره ، كما يصور فوارسه كأنهم نجوم ساطعة فى سوادالليل الفاحم ، لما يبدونه من شجاعة واستماتة فى منازلة أعدائهم ، إذ لم تكد تذهب عنهم روعة المفاجأة ، التى نثرت جمعهم حين باغتهم العدو بهجومه ، حتى عادوا إلى مواقفهم وأحدقوا بقائدهم كأنهم عقد منظوم ، يقاتلون فى ثبات وثقة ، وقد أسفر كل منهم عن وجه حر شريف النفس ، لا يقبل الدنية أبدا ، ولا يهاب الموت بأى حال من الأحوال ، ولو كان يريد الفرار ناجيا بحياته لكان الأمر سهلا عليه تحت ستار الليل حيث لا يراه أحد ، ولكن نفسه الأبية ترفض تلك الفعلة المشينة ، ثم إن صورة أبى سعيد تتراءى له ماثلة على البعد تحت جنح الظلام ، مهيبة به أن يثبت ويناضل ، باعثة فى نفسه الهمة والشجاعة ، مذهبة عنها خواطر الجبن ، ومثبطات الخوف ، فيزداد تصميما على مواصلة النضال ، ويستحى من النكوص على عقبيه ، ومثله فى هذا الموقف كمثل يوسف حين هم أن يرتكب الإثم مع امرأة العزيز ، ثم رأى برهان ربه فارعوى وأحجم عنه ممتثلا لأمر الله .

ولم يكن أمام هذا الفارس ، الذى ثبت على اليقين والتصميم ، إلا أحد خيارين: إما أن يخرج من هذه المعركة عظيما محمود البلاء وإما أن يدركه الموت المشرف ،

---

(١) الألوى : الشديد الخصومة .

ويفنى جسده فلا تبقى منه إلا العظام . وهذا هو المثل الأعلى فى التضحية والفداء ، يمتثل به فرسان أبى سعيد ، ويلتزمون به شعارا لا يحيدون عنه متأسين بقائدهم وبطلهم العظيم :

ولما التقى البشران أنقع بشرنا
لبشرهم حوضاً من الصبر مُفعما[1]

وساعده تحت البيات فوارسٌ تخالهم فى فحمة الليل أنجما

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا به مثلما ألفت عقداً منظما

بسافر حر الوجه لو رام سوءة لكان بجلباب الدجى متلثما

تمثلت له تحت الظلام بصورة على البعد أقنته الحياء فصمما

كيوسف لما أن رأى أمر ربه
وقد هم أن يعروري الذنب أحجما

وقد قال إما أن أغادر بعدها عظيما وإما أن أغادر أعظما

وهنا ينتهى حديث البطولة فى الحرب البابكية ، وهو الجزء الذى يدخل فى نطاق بحثنا . ثم يستطرد أبو تمام متابعا حديثه عن الحرب الرومية ، مشيدا ببطولة أبى سعيد ورجاله فى خوض غمارها . وهذا مجال آخر ليس لنا أن نخوض فيه .

* * *

---

(١) ذكر الشارح أنه يقصد « ببشر » الأولى صاحبه (أى صاحب أبى سعيد) و « بشر » الثانية صاحب عدوه . ولكن السياق يجعلنا نرجح أنه يرمز ببشر الأولى لأبى سعيد نفسه ، وببشر الثانية لقائد الأعداء بابك . بدليل كلمة « وساعده » فى البيت التالى فالضمير فيها يعود على بشر الأولى وعلى القائد أبى سعيد ، لأن مساعدة الفوارس تكون لقائدهم .

وتبق لأبي تمام قصيدتان أخريان في أبي سعيد ، ولكنهما موضع شك في نسبتهما للشاعر ، ولذا جمعهما محقق ديوانه مع القصائد الأخرى التي يشك فيها ، وألحقها بآخر الديوان تحت عنوان « قصائد منحولة مشكوك في صحتها » وينبغي أن نعرض لهاتين القصيدتين في ضوء معرفتنا لشعر أبي تمام ومذهبه الفني المتميز ،

والقصيدة الأولى مطلعها[1] :

حمتْـــــهُ فاحتمىَ طعمَ الهُجود　　　غداةَ رَمَتْهُ بالطَّرفِ الصَّيُود

ونعرض أولا للمبررات التي ساقها محقق الديوان ، والتي بنى عليها شكه فيها فوضعها بين القصائد المنحولة ؛ فهو يقول : « لم ترد هذه القصيدة في نسخ التبريزي التي بين يدي ، وكذلك لم ترد في نسخة ل من الصولي ، إلا أنها وردت في نسخة م من الصولي بعد قصيدة (أظن دموعها سنن الفريد) وجاء فيها : قال أبو بكر : هذه القصيدة ليست له ، ولا هي من لفظه ، ولكني رأيتها في عدة نسخ .

وذكر المحقق أيضا « وقد وردت في نسخة س من رواية أبي على القالي ،إلا أنه جاء في هامشها : ألغيت هذه القصيدة في الكاغد إلا أن أبا على رحمه الله عليه لم يقيدها ، وهي لا تشبه أشعار حبيب لضعف البناء » .

كما ذكر أن المرزوقي أثبت بعض أبياتها في المشكل ، وأنها في مدح خالد بن يزيد الشيباني ، كما جاء على رأسها ، ولكن يظهر أن أبا تمام — إن كانت له — نقلها من خالد إلى أبي سعيد الثغرى (أنظر البيت ١٢ ، ٢٨)[2] :

---

(١) أنظر القصيدة في الديوان حـ٤ ص٦٣٥ وما بعدها .

(٢) انظر تعليق المحقق في هامش ص٦٣٠ من الجزء الرابع من الديوان . وانظر كتاب « أبحاث » في الأدب العربي للدكتور سلام ص١٤٦ بالهامش حيث =

فنحن إذن أمام مبررات قوية تحمل على الشك فيها ، والذى يعنينا فيها بالدرجة الأولى حكم الصولى وغيره عليها بأنها ليست من لفظ أبى تمام ولا تشبه أشعاره لضعف البناء ، فينبغى أن نعرض منها بعض النماذج لنرى مدى صحة هذا الحكم . فمنها ماقيل فى أبى سعيد :

فتىً لا يستظلُّ غداة حربٍ ... إلى غير الأسنَّةِ والبُنودْ
أباحَ المالَ جائلةَ المعالى ... فأححفَ بالطريف وبالتليدْ
يُفيدُ ويستفيدُ غنىً وحمداً ... فأكْرِمْ بالمفيدِ المُستفيدِ

ومنها فى ذكر وقائع الحرب البابكية :

أليس بأرشقٍ كنتَ المحامى ... عن الإسلام ذا بأسٍ شديد
رآكَ الخرَّمىُّ عليه ناراً ... تلهَّبُ غيرَ خامدةِ الوقود
دلفْتَ لهم بأبناء المنايا ... على العقْبانِ فى خَلَقِ الأسود
وقد كان الجليدَ فغادرْتَه ... رماحُكَ غيرَ مصطبرٍ جليد
وفى موقانَ كنتَ غداةَ ماقوا ... أجاجاً طعمُه صعبُ الورود
مشتْ خبباً سيوفُك فى طُلاهمُ ... ولم يكُ مشْيُها مشىَ الوئيد
سيوفٌ غادرَتْ سُقْيا دماء ... بهامةِ كلِّ جبَّارٍ عنيد
ويوم البذِّ إذ لم تُبْقِ حقداً ... على الأعداء فى قلبٍ حقود
حططت ببابك فانحطَّ لمَّا ... رأى نجما الشيطانِ مريد

= يذكر أن هذه القصيدة يرويها الخارزنجى وحده ، وهذا خطأ يناقض ما ذكره المحقق .

وما إن زلتَ تؤنسُه بوعدٍ ... وتوحشُه بإنذارِ الوعيد
تمثلُ نُصبَ عينيه المنايا ... فيرعدُ فى القيام وفى القعود
وما شىء من الأشياء أمضى ... على المهجاتِ من رأى سديد
فما ندرى أحدُّكَ كان أمضى ... غداةَ الهذِّ أم حدُّ الحديد ؟
لئن طلعتْ نجومُهم بنحسٍ ... اشيِّبَ شنُّها رأسَ الوليد
شننت عليهمُ الغارات حتى ... اشيِّبَ شنُّها رأسَ الوليدِ
فكمْ من مُطْلق وعزيز قومٍ ... غدا بالذلِّ يرسُفُ فى القيود

هذه الأبيات من تلك القصيدة المنسوبة إلى تمام ، لا يملك أمامها أى قارىء أو باحث بصير بشعر ذلك الشاعر إلا أن ينفيها عنه نفيا ، ويقر حكم الصولى ، وأبى على القالى أو من روى عنه ، بأنها ليست من لفظه ؛ وبأن ضعف البناء واضح فيها كل الوضوح .

وكيف يمكن أن يقاس هذا الشعر بما مر بنا من شعر أبى تمام ؟ وليس فيه فكرة دقيقة ، ولا معنى عميقا ، ولا صورة تماثل تلك الصور التى ترسمها مخيلته وتخرجها جديدة مبتكرة ، وإذا كان ناظمها قد أتى ببعض نوافر الأضداد التى اشتهر بها أبو تمام ، فإنها قد بدت سطحية تفتقر إلى عناصر كثيرة مما نعهده فى مذهبه الفنى : ناهيك عن تلك العبارات الركيكة والألفاظ السهلة التى تتضاءل بالقياس إلى لغته الجزلة القوية ، وما يتميز به من فصاحة العبارة وغرابة اللفظ . ولو تناولناها بيتا بيتا لما أمكننا أن ننسب أحدها إلى أبى تمام .

وعلى الرغم من كل هذه الدلائل القوية ، التى تؤكد انتحال هذه القصيدة ، وتدعم الشك فى نسبتها إليه ، فإننا نجد باحثا يرجح صحة هذه النسبة إلى أبى تمام ، هذا الباحث هو الدكتور عبد المحسن سلام ، الذى يقول فى تعليقه عليها «وأغلب الظن لدينا أنها لأبى تمام ، فهى تشير إلى معارك اشترك فيها أبو سعيد ، وإلى أحداث اختلف فيها

فى الرأى مع الأفشين والتعبير تعبير أبى تمام فى رأينا ، وتنساب القصيدة بنفس الطريقة التى تنساب بها قصائد أبى تمام عادة ، وهى فى رأينا تشبه فى بنائها قصائد أبى تمام فى أبى سعيد ومعظمها يبدؤه بالغزل ، ويصفه فيها بالكرم ، ويستجديه ويصف وقائعه بالتفصيل ذاكرا أسماء الوقائع ومعلقا بالصور والتشبيهات والاستعارات أو واصفا إياها بذلك »[1] فهل كونها تتضمن أسماء المعارك والوقائع التى اشترك فيها أبو سعيد وما جرى فيها من أحداث ، يعنى أنها نظم أبى تمام ؟ وهل يعجز منتحلها عن رصد تلك الأسماء والأحداث بنقلها من قصائده التى تذكرها ؟ !

ثم ما هى تلك الأحداث التى اختلف أبو سعيد فيها فى الرأى مع الأفشين ؟ إننى لا أجد فى تلك القصيدة ، ولا فى غيرها من القصائد الصحيحة النسبة شيئا من تلك الأحداث التى تدل على الخلاف بين القائدين . وحتى ما روته مصادر التاريخ عن تلك الحروب لا نجد فيه شيئا من ذلك الخلاف المزعوم ، بل نجد عكس ذلك تماما من الوفاق التام فى كل مراحل تلك الحرب . وهل كون هذه القصيدة تنساب بنفس الطريقة التى تنساب بها قصائد أبى تمام فى بنائها الموضوعى ، هل كونها كذلك يعنى أنها من نظمه ؟ لا أظن ذلك ، فمن السهل على المتحل أن يقلد الشاعر فى ذلك. أما القول بأن التعبير تعبير أبى تمام ، وكذلك الصور والتشبيهات والاستعارات ، فهذا لا يقره عليه أحد من المتمرسين بشعر ذلك الشاعر ؛ أو الدارسين لمذهبه الفنى سواء فى السابقين أو اللاحقين .

وخلاصة القول أن هذه القصيدة منتحلة على أبى تمام مافى ذلك شك، ومنتحلها لا يرقى إلى مستواه الفنى ولا يقاربه ، ولعله طالب علم كان يدرب نفسه على النظم

---

(١) أنظر كتابة أبحاث فى الأدب العربى ص١٤٦ — ١٤٧ بالهامش .

بممارسة تقليد كبار الشعراء ، فأضيفت قصيدته إلى إحدى نسخ الديوان دون تمحيص من الناسخ ، ولكنها لم تفت على ذوى العلم والبصر بالشعر ومذاهبه ، فنبهونا إلى انتحالها ، وثبت لدينا صحة حكمهم .

* * *

والقصيدة الثانية التى ألحقت بالديوان ، ضمن القصائد المنتحلة المشكوك فى صحتها ، وهى قصيدة انفرد بروايتها الخارزنجى ، وهو أحد الشراح لديوان أبى تمام وإن لم يصل إلينا شرحه إلا من خلال ما سجله له ابن المستوفى فى كتابه المسمى « النظام فى شعر المتنبى وأبى تمام » . هذا ما يقوله الأستاذ محمد عبده عزام محقق الديوان(١) . ولعل ذلك يفيدنا فى الحكم على تلك القصيدة ، التى مطلعها(٢) :

مَلاَمَكِ عَنِّى لا أبالكِ واقْصِدِى كفاكِ ملامى وعظُ شَيْبٍ مفنِّدِ

وبعد مقدمة تقليدية قصيرة تدور حول الرد على اللائمة ينتقل فى البيت الخامس إلى ذكر ممدوحه قائلا :

فصُونِى قِناعَ الصَّبرِ إنِّى آراحلٌ إلى بحرِ جودٍ غامرِ الفضلِ مُزْبِدِ
أماتَ حياةَ الوعدِ منه نوافلٌ من الجودِ أضحتْ للعُفاةِ بمَرْصَدِ
بديهته حزمٌ وفكرةُ قلبهِ يقينٌ جلاهُ عزمُ رأىٍ مُسَدَّدِ

ثم ينتقل إلى ذكر الحروب البابكية وبلاء أبى سعيد فيها فيقول :

بنجْدَةِ ذكراكَ المنايا تزاحفتْ إلى بابكٍ فى كلِّ سهلٍ وأجْلَدِ

---

(١) أنظر مقدمة الديوان لمحققه جـ١ ص٢٧ ، ٣٢ .

(٢) أنظر القصيدة فى ملحق الديوان جـ٤ ص٦٤٩ ومابعدها .

أيا سَنْدبَايا لا نَسيتِ محمداً ... وإقدامَه بين القنــا المتقَصِّـدِ

صبيحةَ غُبْرُ الخُرَّميةِ والضُّحى ... طريدُ دُجى ليلٍ مع النقْعِ أربدِ

سَلَلْتَ عليهم من مناصلك الرَّدَى ... حساً وزكىً ما بين مَثْنى ومَوْحدِ

فأوردت أبناء الرَّدى موردَ الرَّدى ... بسُمِّ العَوالي والصفيح المهنـدِ

ومالهم في لوم الفرار ولم يجـــد ... على الموت إقداماً معاويةُ الرَّدى

فلولاحصونُ الرَّكْضِ والنَّجْدةُ التي ... أتته من الليل البهيم المـدَّدِ

لألبسته من كسوة السيف خلْعةً ... مُصَبَّغةً بالدَّمِ فوق المورَّدِ

بقُعْدُدَ لمَّا أن رآكَ لقيتَه ... وكان زمانا في الوغى غيرَ قعْـدُدِ

وكان كمثل اللَّيلِ ظلماءُ غَيِّـه ... وكنتَ كمثل الصُّبحِ يصفَرُّ من غد

هذه الأبيات هي كل ما ورد في القصيدة عن الحروب البابكية ، تتبعها بعد ذلك أبيات في مدح أبي سعيد ، والتقرب إليه ، والمقارنة بينه وبين غيره من الممدوحين، إلى آخر القصيدة التي لا تزيد أبياتها على خمسة وعشرين بيتا .

ولا تتضمن القصيدة من وصف وقائع الحرب سوى وقعة سندبايا ، وهي الوقعة الأولى لأبي سعيد ، بفرقة من الخرمية كان يقودها أحد قواد بابك واسمه معاوية . وقد ورد الحديث عنها في القصائد السابقة . ولم نعهد من أبي تمام أن يقصر حديثه على وقعة واحدة ، وأن يغفل الوقائع الأخرى .

وليس بخاف علينا ما في الأبيات من ضعف وركاكة وسطحية ، ويجعلها لا ترقى إلى المستوى الفني لشعر أبي تمام بأي حال من الأحوال . فهل نتصور أن أبا تمام حين يذكر بلاء أبي سعيد في سندبايا يقول هذه العبارة « أيا سندبايا لا نسيت محمد.. »؟ أو حين يصف ما أصاب الخرمية يقول « صبيحة غبر الخرمية ... » ، أو حين يصف

المناصل التى سلها عليهم أبو سعيد يقول « حسا وزكى مابين مثنى وموحد » ؟ أو حين يتحدث عن فرار معاوية يقول « ومالهم فى لوم الفرار . . » ؟ أو حين يصف كسوة السيف للعدو يقول « مصبغة بالدم فوق المورد » ؟ أو حين يذكر جبن العدو يقول « بقصدد لما أن رآك لقيته .. » ؟ أو حين يقارن بين غى بابك وهدى أبى سعيد يقول هذا البيت الأخير ؟ . أليس جليا أن أسلوب أبى تمام الذى عرفناه أرقى درجات من هذا الأسلوب الضعيف ، العارى من مسحة الفن ؟ !

وإذا كان هذا القصور واضحا من البداية ، فلا مجال للتساؤل عن العناصر الأخرى التى تشكل المذهب الفنى المشهور لأبى تمام . وإذا أضفنا إلى ذلك ، ما سبق ذكره ، من انفراد الخارزنجى برواية هذه القصيدة دون رواة الديوان الآخرين ، لم يبـــق أمامنا سوى تأكيد الشك فى نسبتها إلى أبى تمام والجزم بأنها منتحلة عليه .

والآن وقد ثبت لنا أن هذه القصيدة منحولة كسابقتها ، يمكننا أن نحدد حماسيات أبى تمام التى أشاد فيها ببطولة أبى سعيد ورجاله فى الحروب البابكية ، بأنها سبع قصائد، منها أربع نظمها أثناء نشوب الحرب ، وهى التى تناولناها فى الفصل السابق ، ومنها ثلاث نظمها بعد انتهاء الحرب ، وقد تناولناها فى هذا الفصل . وهى فى جملتها من أروع الحماسيات ، التى سجلت صفحات خالدة للبطولة العربية والإسلامية ، فى سجل الأدب ، وفى سجل التاريخ .

الفصل الثامن

مع أبي دُلَف العِجْلي

كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي[1] ، من القواد الذين شاركوا في الحروب

---

(١) تروى المصادر أخبارا كثيرة عن شجاعة أبي دلف وقوة بأسه في القتال ، وعن جوده وسخائه الذي يفوق حدود المعقول ، ونسوق طرفا منها لتزداد تعرفا بحقيقة هذه الشخصية النادرة .

فيروى أنه قد شهد مصافا — أي غزوة لبلاد الروم في الصيف — فطعن فيه فارسا ، فنفذت الطعنة إلى أن وصلت إلى فارس آخر وراءه ، فنفذ فيه السنان فقتلهما ، وفي ذلك يقول بكر بن النطاح :

قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم الهياج ولا نراه كليلا
لا تعجبوا فلو أن طول قناته ميل إذاً نظم الفوارس ميلا

ويروى عن علي بن جبلة الشاعر الملقب بالعكوك أنه قال : « زرت أبا دلف بالجبل ، فكان يظهر من بري وإكرامي والتحفي بي أمرا مفرطا : حتى تأخرت عنه حينا ، فبعث إلى معقلا ، وقال : يقول لك الأمير : قد انقطعت عني ، وأظنك قد استقللت بري ، فلا يغضبنك ذلك ، فإني سأزيد فيه حتى ترضى ، فقلت : والله ما قطعني إلا إفراطه في البر ، وكتبت إليه :

هجرتك لم أهجرك من كفر نعمة وهل يرتجى نيل الزيادة بالكفر ؟
ولكنني لما أتيتك زائرا وأفرطت في بري عجزت عن الشكر =

البابكية الأخيرة ،مع الأفشين وأبى سعيد الثغرى . وهو قائد عربى مشهورمن قواد الدولة العباسية ، له فى حروبها صولات وجولات ، وكان من أبرز سادة العرب وأشرفهم ، الذين يشار إليهم بالبنان فى المجتمع العباسى لما عرف به من الكرم البالغ والشجاعة الفائقة ، ولما كان له من ثقافة عالية وموهبة شعرية ، تمكنه من قرض الشعر ، والوقوف على جيده من رديئه . فهو شخصية فذة ، اجتمعت فيها الشمائل والصفات ، التى تجذب الشعراء ، وتدفعهم إلى غشيان ، مجالسه والمثول بين يديه مادحين أو منادمين ومن الطبيعى إذن أن تكون لأبى تمام صلته الوثيقة بهذا القائد العربى الشجاع ، والسيد الجواد المعطاء ، والأديب المثقف الشاعر .

= أنا الآن لا آتيك إلا مسلما　　أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهر

فإن زدتنى برا تزايدت جفوة　　ولم تلتقى طول الحياة إلى الحشر

فلما قرأها معقل استحسنها جدا ، وقال :-أحسنت والله ، أما إن الأمير يعجبه هذا من المعانى ، فلما أوصلها إلى أبى دلف قال : قاتله الله ، ما أشعره وأدق معانيه وأعجبه ؟ وأجابنى لوقته ، وكان حسن البديهة حاضر الجواب :

ألا رب ضيف طارق قد بسطته　　وأنسته قبل الضيافة بالبشر

أتانى يرجينى فما حال دونه　　ودون القرى والعرف من نائلى سترى

وجدت له فضلا على بقصده　　إلى وبرا زاد فيه على برى

فزودته ما لا يدوم بقاؤه　　وزودنى مدحا يدوم على الدهر

قال وبعث بالأبيات إلىّ مع وصيف ، وبعث إلى معه بألف دينار . ولابن جبلة مدائح كثيرة فى أبى دلف ، منها أبيات استاء لها المأمون فقتـــل الشاعر بسببها . (أنظر هبة الأيام فيما يتعلق بأبى تمام ص٩٣ وما بعدها . وفيه أخبار أخرى عن أبى دلف) .

وكان أبو دلف يقود المطوّعة فى هذه الحرب ، وقد مر بنا فى ذكر أحداثها ما جرى من خلاف بين المطوعة وعلى رأسهم أبو دلف من جانب ، وبين الأفشين من جانب آخر ، حين عنفهم لهجومهم على سور البذ ، وعدم إطاعة أوامره بالإنسحاب .

وقد أدى هذا الخلاف إلى إطلاق الإشاعات والأقاويل من المطوعة، عن تقاعس الأفشين وسوء نيته ، وتهاونه فى مناجزة بابك ، مما كاد يؤدى إلى تفكك الجيش وانفراط عقده وهبوط معنويات المقاتلين ، لولا أن عالج الأفشين الأمر بحكمة أعادت الأمور إلى نصابها . وكان القائد جعفر الخياط طرفا آخر فى هذا الخلاف مع الأفشين ، وقد احتد الجدل بينهما إلى درجة تنذر بالخطر ، بينما لم تورد مصادر التاريخ شيئا مما حدث بينه وبين أبى دلف من لوم أو مجادلة[1] . ولكن الذى لا شك فيه أن الأفشين كان فى نفسه شىء من أبى دلف والمطوعة ، ولعله كتم غيظه حفاظا على وحدة الجيش من الفشل أو الهزيمة .

وتروى مصادر التاريخ والأدب خبرا آخر عن الخلاف بين الأفشين وأبى دلف. مؤداه أن الأفشين كان يحسده لشجاعته وعن سيرته مع عروبته ، فأحتال عليه حتى شُهد عليه بخيانة وقتل ، وأخذ ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره وأحضر السياف ليقتله ، وبلغ القاضى أحمد بن أبى دؤاد الخبر ، فركب فى وقته مع من حضر من عدوله ، فدخل على الأفشين ، وقد جىء بأبى دلف ليقتل ، فوقف ابن أبى دؤاد ثم قال : إنى رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثا حتى تسلمه إلى ، ثم التفت إلى العدول وقال : اشهدوا أنى أديت الرسالة إليه

---

(١) أنظر الفصل الرابع من هذا الكتاب وكذلك الطبرى حوادث سنة ٢٢٢هـ

عن أمير المؤمنين والقاسم على قيد الحياة ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفشين عليه . وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته وقال : يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر، فصوب رأيه ، ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ، وعنف الأفشين . فيما عزم عليه[١] .

وملابسات هذه القصة تنفي أن تكون قد وقعت أثناء حرب بابك في آذربيجان، نتيجة للخلاف الذي كان بينهما ، كما قد يظن البعض ، لأن تدخل ابن أبي دؤاد فيما حدث بهذه السرعة ، يقتضي أن يكون وقوعها في مكان قريب منه . لذا نرجح وقوعها في العاصمة « سامرا » ، بعد انتهاء هذه الحرب ، وحيث كان يوجد الوزير ابن أبي دؤاد والخليفة المعتصم ، وكذلك الأفشين وجيشه وقواده .

ولأبي تمام بمناسبة هذه الواقعة ، مقطوعة من ثمانية أبيات ، يهنئ فيها أبا دلف على سلامته من الأفشين، ونجاته من تلك المؤامرة التي كادت تودي بحياته ، يقول فيها[٢] :

قد شرَّدَ الصبحُ هذا الليلَ عن أفقه	وسوَّغَ الدهرُ ما قد كان من شَرَقِهْ
سيقَتْ إلى الخلقِ في النيروز عافيةٌ	بها شفاهمْ جديدُ الدهر من خَلَقِهْ
يا ربَّ مُصْطَبِحٍ بالبثِّ مُغْتَبِقٍ	صحا ومُشْتَجِرٍ ليلاً ومُرْتَفِقِهْ
لما اكتسى القاسمُ البردَ الأنيقِ غداً	إلى السرور فأعداهُ على حُرَقِهْ

---

(١) أنظر التفاصيل الكاملة لهذه القصة في تاريخ البيهقي ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص١٨٣ وما بعدها ، وأنظرها مختصرة في «هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام» ص٩٢ — ٩٣ .

(٢) الديوان جـ٢ ص ٤٠٢ .

لله عافاه من كَرْبٍ ومن وَصَبٍ   كاد السماح يذوق الموتَ من فَرَقِهْ
لم يبق ذو كرم إلاّ وجامعةٌ   ثقيلةٌ قد حناها الدهرُ في عُنُقِهْ
أجناكَ من ثمراتِ البرِّ أينَعَها
ربٌّ كساكَ الأثيثَ النَّضْرَ من وَرَقِهْ
حتى يقال لقد أضحى أبو دلفٍ   وخَلْقُهُ قد طغى حُسْنًا على خُلُقِهْ

والأبيات لا تتضمن كلاما صريحا عن مؤامرة الأفشين ، وإن كان فيها من الإشارة والتلميح ما يغنى عن التصريح . ولعل الشاعر كان يخشى أن يلحقه ضير أو أذى من الأفشين ، إذا أطلق للسانه العنان ، وأفاض من القول عما حدث . وخصوصا وأن الأفشين كان قد وصل إلى درجة من عظم المكانة وعلو الشأن — بعد قضائه على بابك — جعلت الجميع يرهبون بطشه ويخشون سطوته . وفى جرأته على التدبير لقتل بطل عربى عظيم الشأن كأبى دلف دليل قوى على ذلك .

وقد نظم أبو تمام مدحتين أو حماسيتين رائعتين ، أشاد فيهما ببطولاته وحسن بلائه فى الحرب البابكية، وأغلب الظن أنه أنشدهما أبادلف بعد انتهاء الحرب ، وقبل أن يدبر له الأفشين تلك المؤامرة التى كادت تودى بحياته . وأولهما قصيدته الفائية التى مطلعها[١] :

أمَّا الرسومُ فقد أذكَرْنَ ما سلَفَا   فلا تكُفَّنَّ عن شأنيكَ أو يكفا

وبعد مقدمة تقليدية فى بكاء أطلال الأحبة والنسيب والغزل بالمحبوبة يخلص فى البيت الثانى عشر إلى مجاهدة القوافى التى تجذبه لذكر أبى دلف ومحاولته توديع أشواق فؤاده قائلا :

---

(١) أنظر القصيدة فى الديوان جـ٢ ص٣٥٩ وما بعدها .

يجاهدُ الشوقَ طوْراً ثم يجذِبُهُ جهادُهُ للقوافى فى أبى دُلَفــا

ويمدح فيه كريم الشمائل وحميد الفضائل التى انطبعت بها : خصيته العظيمة ، من وجود جعل الأيام فى أبهى جلاها ، لابسه ثوب الشباب الغض الحسن ، بعد أن كانت مسنة هرمة ، ومن فعال غراء بيض كأنها شنف ثمينة فى آذان الليالى ، تلك الفعال التى رفعته عاليا فوق طود المجد ؛ ومع ذلك فهو لا ينفع بما وصل إليه ، ويظل دائب السعى شغوفا باعتلاء ذروة أخرى من ذرا المجد ، حتى دعته المعالى ملة وحده فى طلب كل جديد مستطرف من طيب الفعال . ومن خصاله الحميدة أيضا تواضعة الجم على الرغم مما أحاطته به الدنيا من جاه وسؤدد ، يجعلها تتيه كبرا وصلفـــا .

وهو يحب القصد والتوسط فى الأمور إلا فى الوغى والندى ، إذ يكون فيهما متطرفا غاية التطرف ؛ لأن أكبر سنة تزرى بشجاعة الشجاع وتنقص من جود الجواد ، ألا يكون مسرفا فى الشجاعة والجود . وعطاياه الجزيلة وفر وغنى لكل معتف،وهو يعطيها سرا حيث تحمد فيها السرية ، ولكنها إذا اشهرت كانت فخرا لآخذها ، إذ تجعله فى سعة من العيش ، يحيا حياة كريمة ، تحفظ ماء وجهه وتصون عزة نفسه ، بل تهيئ له ان يجود على غيره ، وينال محمدة الناس له ، وفى كل ذلك مفخرة له ، وتلك عاقبة عجيبة لفعال ابى دلف ، فلم نعهد من قبل سؤال سائل يجلب له الشرف والعزة ، حتى راينا ذلك فى سائله وفى عطائه ، وكأن جوده من صنف مميز لا يرقى إلى مستواه جود سواه من الأجواد .

بجودِهِ انصاعَتْ الأيامُ لابسةً شرخَ الشبابِ وكانت جِلَّةً شُرفا(١)

---

(١) شرف : جمع شارف وهى المسان من الإبل .

حتى لو أن الليالى صُوِّرَتْ لغَدَتْ   أفعاله الغُرُّ فى آذانها شُنُفا
إذا علا طودَ مجد ظلّ فى نَصَبٍ   أو يعتلى من سواه ذِرْوَةً شَغَفا[1]
فلو تكلَّمَ خَلْقٌ لا لسانَ له   لقد دَعتْه الليالى ملةً طُرُفا[2]
جمٌّ التواضُع والدنيا بسودَدِه   تكادُ تَهتَزُ من أطرافها صلَفا
قَصْدُ الخلائق إلاَّ فى وغًى ونَدًى   كلاهما سُنَّةٌ ما لم يكن سَرَفا
تُدْعَى عطاياه وفراً وهْى إن شُهِرَتْ
كانت فَخاراً لمن يعفُوه مؤتنِفا[3]
مازِلتُ منتظِراً أعجوبةً عَنَنَاً   حتى رأيتُ سؤالاً يُجتَنَى شرَفا

ومن الفضائل التى تميزت بها شخصية أبى دلف أنه رجل صدوق القول والفعل؛ فإذا قال قولا أو وعد وعدا ، بدا لك قوله ووعده امرا بعيد المنال يصعب إنفاذه ، كأنما هو قول إنسان لا يعتزم أن يوفى بما يقول . ولكنه يتبع القول بالعمل ، فينفذ ما قال ، وينجز ما وعد ، دون نقصان او تبديل ، كأنما حلف على الوفاء والصدق ، لأن خلف الوعد فى نظره شقيق للموت وكلاهما شىء كريه إلى نفسه ، كأنهما عدوان ائتلفا على الفتك ، فالخلف يتلف معروفه ويفسده ، والموت يتلف نفسه ويهلكها، بل إن كراهيته للخلف أشد تمكنا من نفسه ، ولو طلب منه ان يقتل شرهما عنده لقتل الخلف ، فالمثلبة التى يمكن ان تلحق به منه اشد وطأة عليه ، لما تنتقص من قدره ومكانته فى مجتمعه الذى احتل فيه مكان السيادة والشرف .

---

(١) الشعف : أعالى الجبال ، أو قد يكون من قولك شعف بالشىء إذا أولع به.
(٢) الملة : الطريق الواضح ومنه الملة فى الدين . طرف : أى مستطرف .
(٣) كلمة « وفر » ذكرت فى البيت « وقر » وفيها تصحيف واضح ، وتصحيحها فى الشرح .

يقولُ قولَ الذى ليس الوفاءُ له عزماً ويُنجزُ إنجازَ الذى حلَفا[1]
رأى الحِمامَ شقيقَ الخلف فاتفقا فى ناظرَيْه وإن كانا قد اختلَفا
كلاهما رائحٌ غادٍ يَدُلُّ على معروفه وعلى حَوْبائه التَّلَفا[2]
ولو يقالُ اقْرِ حدَّ السيف شَرَّها ما شامَ حدَّيْه حتى يقتُلَ الخُلُفا

وينتقل أبو تمام من ذلك إلى الإشادة بمواقفه البطولية فى الحرب البابكية مبتدئا بإشهارها إشهارا لا ينكره أحد، فالخليفة أعلى رأس فى الدولة، والأفشين قائد جيوشه، كلاهما يعلم أن أبادلف هو الذى اشتفى لهما وشفى نفوس القوم من بابك. ففى يوم «أرشق» الذى اشتدت هيجاؤه وتتابع رشقها بسهام الموت، رشقا غزيرا غزارة الوبل، قاصفا كقصف الرعد، كان شخص أبى دلف علما يهتدون به فى أغفالها ومضطربها، وكان رأيه الحصيف نورا يجلى لهم حلكة ظلمائها، وقد انتضى هذا الرأى انتضاء السهم من كنانته مستهدفا به فوز العاقبة، فانبسطت به خطا الجهاد، وتتابعت فى سيرها سريعة متوثبة إلى الجلاد، وهى التى كانت من قبل بطيئة متثاقلة، وقد أدى خطوها السريع إلى التلاحم مع العدو وإعمال السيف فى رقابه، وفى ذلك التلاحم انتصار للسيف الصارم، الذى كانت له الصولة والسطوة، على الرمح الخطى، الذى لم يكن له شأن أو فعالية فى الفتك بالعدو، لأنه يطعن به على بعد، ولم يكن

---

(١) شرح التبريزى الشطر الأول من هذا البيت شرحا غير دقيق بقوله «يعد مالا يعد مثله من يريد إنجاز وعده والوفاء به» وواضح أن هذا ليس مقصد الشاعر.

(٢) رواية الكلمة الأخيرة فى الديوان «اتلفا» ولكن شروح الشراح وتعليقاتهم على أنها «التلفا». ولم يشر المحقق إلى هذا الخلاف والمعنى أوفق برواية «التلفا» ولذا آثرت إثباتها. والحوباء: النفس.

ثمة بعد بين مقاتلين متلاحمين . وإن أبا دلف قد أثار الحمية والحماسة فى جمع المسلمين فانقضوا على الخرمية انقضاضا محموما دون وجل أو تردد ، بعد أن كانت الرهبة من لقائهم تقيدهم ، والرعب من شراستهم يحول دون إقدامهم والهجوم عليه .

إنّ الخليفةَ والأفشينَ قد علما   من أشتفى لهما من بابك وشفى
فى يوم أرشقَ والهيجاء قد رشقَتْ   من المنية رشْقاً وابلاً قصفا
فكان شخصك فى أغفالها علماً   وكان رأيك فى ظلمائها سَدَفا[1]
نَضَوْتَهُ دُلفياً من كنانته   فأصبحتْ فوزه المُقتَنَى له هدفا
به بسطْتَ الخطا فاسحنفرتْ رَتَكاً
إلى الجلاد وكانت قبله قُطفا[2]
خطواً ترى الصارمَ الهندىَّ منتصراً   به من المارن الخطِّىِّ منتصفا
ذَمرْتَ جمع الهدى فانقضّ منصلتاً
وكان فى حلقات الرُّعْبِ قد وَسَقا

وهذه الأبيات تكشف لنا حقيقة هامة أغفلتها مصادر التاريخ ، وهى مشاركة أبى دلف فى وقعة أرشق، إذ لم تشر تلك المصادر إليه من قريب أو من بعيد، سواء فى أحداث المعركة أو فى تدبير الخطة لها . وقد أثبت له أبو تمام هنا تلك المشاركة بصورة قوية فعاله بإبداء الرأى الصائب فى التدبير، وبالإقدام وتحريض الجند على القتال .

---

(١) أغفال : جمع غفل وهو المكان الذى لا علم فيه . السدف . من الأضداد وهو هنا بمعنى الضوء .

(٢) فى رواية أخرى «اسحنفرت رقصا» واسحنفرت بمعنى استمرت . ورتكا: أى مسرعة السير . وقطفا : جمع قطوف وهو المتقارب الخطو .

ورأينا

وقد عرفنا أن بابك فر هاربا من معركة أرشق ، وأرينا كيف وصف أبو تمام فراره فى عدة قصائد ، وكيف صوره فى كل منها تصويرا فنيا مبتكرا .

وهنا يصف تلك الواقعة نفسها بصورة جديدة مستخدما فيها بديعه وأضداده ، فبابك قد مر من الحصار والقتل مسرعا يطلب النجاة ، وهو يقاسى من الهزيمة التى جعلت عيشه مرا . وفى مقابل هذه المرارة التى تنغص عيشه حلاوة يحسها جند المسلمين لو أنهم قتلوه ورشفوا دمه المعسول . وهو فى حيرته واضطرابه وفزعه يحسب ستر الغبار ، الذى أثارته المعركة ، جبلا أو جرفا يكاد أن ينقض عليه ، فيحاذر متوقيا وقوعه حرصا على حياته :

ومرَّ بابك مُرَّ العيش منجذماً محلَوْليا دَمه المعسولُ لو رشِفا
حيرانَ يحسَبُ سَجفَ النَّقْع من دَهَشٍ
طَوْداً يحاذر أن ينقضَّ أو جُرُفا

ويصف ما حلّ بالخرمية من تقتيل وتنكيل فى معركة أرشق ، فرماح المسلمين ظلت تستقى دماءهم من مهجهم ، وهى إما مهجة جبان تمكن الرعب من نفسه فأذهب دمه من وجهه ومن عروقه قبل مقتله ، فلا تستقى منه الرماح إلا نطفا قليلة من الدم ، وإما مهجة شجاع يظل دمه مشرقا فى وجهه ، لا يذهبه روع القتال، فتستقى الرماح جرعا من دمه ، الذى ينزف ثرا غزيرا ، ويصف الشاعر تلك الرماح بأنها مثقفات ، زرقة أسنتها من زرقة عيون الروم ، وسمرة قناها من سمرة بشرة العرب، وذبول قوامها من ذبول جسم العاشق المتيم القضف ؛ ويشبه هذه الرماح بالسوام المهملة ، التى تترك فى مراعيها حرة ترعى كما تشاء ، فهى كذلك ترعى جسوم الأعداء ، وتلتهم أرواحهم ، ولكن نتيجة الرعى مختلفة بين كليهما ، فالسوام يسمنها رعيها ، بينما الرماح يهزلها رعيها ويزيدها عجفا :

ظل القَنا يستقي من صفّه مهَجاً — إما ثِماداً وإما ثَرّةً خسفا[1]
من مشرقٍ دمه في وجهه بطلٍ — وواصل دمه للرُّعب قد نزفا
فذاك قد سُقِيَت منه القنا جرَعاً — وذاك قد سقيتْ منه القنا نطفا
مثقّفاتٍ سلبْنَ الرومَ زرقتهَا — والعُرْبَ سمرتَها والعاشقَ القَضفَا
ما إن رأيت سواماً قبلَها هملاً — يرْعى فيهدى إليه رعيه عجَفا[2]

ويتابع وصف أحداث الحرب ، مشيـــدا بالأعمال البطولية ، التى قام بها أبو دلف ورجاله ، فهو البطل الذى يقصم ظهر من ينازله من الأقران كما يقصف متن قناته . وفى هضاب أبرشتويم ، التى شهدت معارك ضارية ، تكسرت فيها الرماح ، وأزهقت الأرواح ، كان يحمل على الأعداء بخيله الأصيلة الضوامر ، مرسلا فوق رءوسهم غمامة الموت ، ليصب وابلها عليهم صبا ، وحين يرونه مقدما عليهم كتيبته — التى يهول منظرها الدهر فيطأطىء جبينه منكسفا لمرآها — يولون الأدبار منهزمين لشدة مايعتريهم من الرعب ، فيدفع إليهم فوارسه الغطارفة البواسل ، فيغشونهم ويركبون ظهورهم قتلا وتنكيلا ، إنهم فرسان مغاوير يكشفون غمرات الموت بحسن بلائهم وشدة بأسهم ، ولا ينكشفون لعدوهم ، أو يتيحون له فرصة النيل منهم ، وعند ذاك يشتد فزع الأعداء وتنخلع قلوبهم هلعا ، فيرمون ترسهم

---

(١) المهج : جمع مهجة وهى خالص النفس. الثماد : الأمواه القليلة. الثرة : الكثيرة الماء . وخسف : جمع خسيف ، من قولهم بئر خسيف : إذا خسف جبلها فغزر ماؤها.

(٢) يشرح التبريزى معناه على أن جيش الأعداء . بمنزلة السوام ، والرماح لهم بمنزلة الرعى . وهذا غير ما يقصده أبو تمام وهو أن الرماح هى التى بمنزلة السوام وجيش الأعداء بمنزلة الرعى . كما أوضحنا فى التحليل .

لتصير رءوسهم تروسا تتلقى ضربات السيوف العنيفة الباترة ، التى تنسى الجائر جوره ، وتذهل المتكبر عن كبره ، إنها ضربات قاصمة تختطف الأعناق اختطافا ، كما تخطف البرق طرف النظر ، وكأنما أنفت السيوف البيض أن تقصر فى عملها حين حرضتها هجيرة الحروب المتقدة ، وأثارتها حماسية أبطالها الملتهبة ، فتوالت ضرباتها تلتهم الرءوس والأعناق ، وقد كتب بها أبو دلف ورجاله على وجوه الأعداء خطوطا دقيقة منمنمة ، إنها كتابة ستظل مقروءة أبد الدهر ، وإن كانت من نوع آخر غير الكتابة التى نعرفها بحروف اللغـــة من الألف واللام ، فإذا أصروا على إنكار ما أصابهم من الهلاك والفتك ، فإن آثار الكلوم التى مازالت معلمة فى جسومهم تشهد عليهم بفظاعة الكارثة التى حلت بهم ، كأنما هى صحف سجلت فيها تفاصيل أحداث هزيمتهم المنكرة :

وربَّ يوم كأيامٍ تركتَ به مَتْنَ القناةِ ومِينَ القرْنِ منقَصِفا

أزرتَ أبرَشَتوَيماً والقنا قصَدٌ
غيابةَ الموتِ والمغْوَرةَ الشُّسفا[1]

لمّا رأوكَ وإياها ملَمْلَمَةً يظلُّ منها جبينُ الدهر منكَسفا

ولّوْا وأغْشَيتَهم شماً غطارفةً لغمرةِ الموتِ كشّافينَ لا كشفا

قد نبَذوا الحجَفَ من زؤْدٍ
وصيّروا هامهَم بل صيرتْ حجَفا[2]

أغْشَيْتَ بارقةَ الإغماد أرؤسَهم

---

(١) المقورة : الخيل الضامرة . والشسف : من قولهم شسف الفرس إذا ضمر ضمرا شديدا .

(٢) الحجف : جمع حجفة وهى ترس من جلود . الزؤد : الفزع

ضَرْباً طِلَخْفاً يُنَسِّي الجانفَ الجنَفا(١)

برقٌ إذا برق غيث بات مختطفاً الطَّرْفَ أصبحَ للأعناق مختطفا

بالبيض قد أيقنت إنَّ الحسامَ اذا هجيرةٌ حرَّضته ساعةً أنِفا(٢)

كتبتَ أوجههم مشقاً ونمنمةً ضرباً وطعناً يقات الهامَ والصُّلُفا(٣)

كتابةً لاتني مقروءةً أبداً وما خططت بها لاماً ولا ألفا

فإن ألظُّوا بإنكارٍ فقد تركت جسومهم بالذى أولَيتَهم صحفا

ويتحدث أبو تمام عن المعركة الأخيرة فى الحروب البابكية وهى معركة سقوط البذ التى يصفها بغيضة الموت لكثرة من هلك فيها من الخرمية .

وقد عرفنا من أحداث التاريخ أن أباداف كان قائدا للمطوعة فيها ، وهنا يذكره الشاعر بأنه كان يقود لها جيشا عرمرما يكتسح حزون الأرض ، وهو لا يعنى بطبيعة الحال قيادته للجيش كله ، كما قد يظن من يجهل التاريخ .

ونلاحظ أن أبا تمام لا يفصل القول فى أحداث هذه المعركة كما رأينا فى قصائد سابقة ، وإنما يوجز قوله فى أن البذ كانت هى الوسط الممنوع المصان . فاجتاحتها الخيل وسلبت ما حولها ، حتى أصبحت طرفا لا مناعة له ولا صون ، ثم يقفز إلى

---

(١) بارقة الأغماد : السيوف . طلخف : شديد . الجنف : الميل والظلم .

(٢) فى رواية أخرى « قد أيقنت » وعنى بالهجيرة اشتداد حر الحرب : أو ازدياد حماسة الأبطال .

(٣) فى رواية أخرى « يزيل الهام » والمشق : سرعة الكتابة والطعن . والنمنمة: دقة الخط فى الكتابة أو النقش . والصلف : جمع صليف وهو صفحة العنق .

الحديث عن النصر النهائى ، حيث ظل الأفشين مرتديا ثيابه البهيجة ، بينما بات بابك ملتحفا رداء الذل والهزيمة . ويجعل لأبى دلف يدا طولى فى إحراز تلك النتيجة ، ذلك أن بابك أعطى بكلتا يديه مستسلما حين علم بدلوف أبى دلف إلى المعركة ، وغض أجفانه منكسرا حسيراً لزوال دولته وسلطانه .

وَغَيْضَةَ الموتِ أعنى البذَّ قُدْتَ لها ... عرَمْرَماً لحزونِ الأرضِ مُعْتَسِفا

كانت هى الوسطَ الممنوعَ فاستلبت ... ما حولها الخيلُ حتى أصبحتْ طرفا

وظل بالظَّفَرِ الأفشينُ مُرْتدياً ... وبات بابكُها بالذلِّ مُلْتَحِفا

أعطى بكلتا يديه حين قيلَ له ... هذا أبو دلفَ العجلىُّ قد دَلَفا

تركت أجفانه مَغْضوضةً أبداً ... ولا تمكّنَ من عينيْهِ لا وَطَفا[1]

وينهى أبو تمام قصيدته بثلاثة أبيات أخيرة يمتدح فيها برّ أبى دلف ومكرماته، وإحياءه لشباب المجد بجوده وبأسه ، مؤملا أن يجد فى رحابه وبره ما يرضى نفسه ويزيح عنها همومها .

* * *

وقصيدته الثانية فى أبى دلف ، وهى البائية التى مطلعها[2] :

على مثلِها من أربُعٍ ومَلاعبِ ... أُذيلتْ مَصوناتُ الدموعِ السواكبِ

وفى مقدمتها التقليدية يتحدث عن فراق الأحبة ، وما يكابده من قسوة البين

---

(١) الوطف : كثرة الشعر فى الحاجبين والعينين .

(٢) أنظر القصيدة فى الديوان ح١ ص٢٠٥ وما بعدها

ولوعة الأشواق ، ثم يصف رحلته إلى الممدوح ، وفى البيت الرابع عشر ينهى رحلته بلقائه ، معربا عن سعادته وخلاصه من نوائب الدهر حيث يقول :

ويشيد بجوده الذى بلغ الغاية وتجاوز الحدود ، ورفع ذكره إلى ذروة المجد . مستغرقا فى ذلك سبعة أبيات ، منها :

هنالكَ تلقى الجودَ حيث تقطَّعَتْ تمائمُه والمجدُ مُرخَى الذَّوائبِ
تكادُ عطاياهُ يُجَنُّ جنونُها إذا لم يُعَوِّذْها بنَغْمَةِ طالبِ
إذا حركتْهُ هزةُ المجدِ غيَّرتْ عطاياه أسماءَ الأمانى الكواذبِ
تكاد مغانيه تَهَشُّ عِراصُها فتركبُ من شوقٍ إلى كلِّ راكبِ

وينتقل من ذلك إلى الإشادة بأمجاد قوم أبى دلف ، ومواقفهم البطولية منذ الجاهلية ، ومعروف أنه من بنى عجل بن لجيم البكريين الذين لهم فى ساحات الحرب صولات وجولات هم وعشائر بكر ، أبناء عمومتهم ، كبنى الحصن وبنى شيبان . فهم إذا ركبوا للحرب وألجموا لها الخيل ، أقبلوا عليها راغبين محبين ، لا يرهبون روعها ووغاها ، كأنما الموت والسيوف والرماح أقاربهم الذين تربطهم بهم روابط المودة والإعزاز ، وجحافلهم الغفيرة العدد لا يدفعها ظلم ولا طغيان فلا تشن حربا على من يسالمها ، وإنما تشنها على من يتجبر ويطغى ، حتى تخضعه وتذل كبره ، وتكسر جبروته . إنهم يمدون أيديهم القوية الضاربة ، التى تصول بأسياف باترة قاضية ، فيعصموا حماهم ومن استجار بهم ، وحين يعلو النقع ، ويتكاثف غبار المعركة ، وتجوب الخيل ساحتها تهدهم يطعنون صدور أعدائهم بالرماح طعنا عنيفا تتكسر منه الرماح ، وتتحطم فى صدورهم .

وإذا كان لبنى تميم أن تفتخر بواقعة رهان قوس حاجب بن زرارة لدى كسرى ووفاء حاجب بوعده ، فإن لبنى بكر ومنهم عجل مفخرة عظمى تعلو على كل المناقب ،

إنها هزيمتهم للفرس فى يوم ذى قار المشهور ، وإن أمجادهم إذا قورنت بها أمجاد غيرهم ، لبدت بالنسبة إلى أمجادهم مثالب معيبة ، فقد علت مكارمهم فى سماء المجد علوا كبيرا طاول الكواكب ، كأنها تحاول ثأرا منها ، فلهم أن يعتزوا ويتيهوا فخارا :

إذا ألجمتْ يوما لُجَيمٌ وحولَها
بنو الحصْنِ نجلُ المُحْصَناتِ النّجائبِ
فإنّ المنايا والصّوارمَ والقَنا أقاربُهم فى الرّوْعِ دونَ الأقاربِ
جحافلُ لا يَتركْنَ ذا جَبريّةٍ سليما ولا يَحْرُبنَ من لم يُحاربِ
يمدّون من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ تصولُ بأسيافٍ قَواضٍ قواضبِ[1]
إذا الخيلُ جابتْ قَسطَلَ الحربِ صدّعوا
صدورَ العوالى فى صدورِ الكتائبِ
إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوْسِها
وزادتْ على ما وطّدتْ من مَناقبِ[2]

---

(١) فى هذا البيت ما يسميه البلاغيون بجناس المقاربة بين عواص وعواصم ، وكذلك بين قواص وقواضب . وعواص : جمع عاصية من قولك عصى بالسيف يعصى عصى إذا ضرب به . ويحتمل معناه أيضا أن يكون من العصيان . أنظر التعليق على البيت فى الديوان ١ ص ٢١٣ — ٢١٤

(٢) يشير فى هذا البيت إلى قصة مشهورة عن حاجب بن زرارة التميمى ، إذ رهن قوسه لدى كسرى على أن يوفى له بما وعده به . وذهب فوفى بوعده فصار ذلك معدودا فى مناقب بنى تميم .

فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم عروس الذين استرهنوا قوس حاجب[1]
محاسنُ من مجدٍ متى تقرنوا بها محاسنَ أقوامٍ تكنْ كالمعايب
مكارمُ لجَّتْ فى علوٍّ كأنها تحاولُ ثأراً عند بعض الكواكبِ

هذا المديح الذى يتفجر حماسة، ويعلى مفاخر قوم أبى دلف فى أمجاد البطولة. كان له أثره البالغ فى نفسه، فلم يصبر حتى يتم الشاعر قصيدته، وقال لمن حضر مجلسه من قومه: يامعشر ربيعة، ما مدحتم بمثل هذا الشعر قط، فما عندكم لقائله؟ فبادروه بمطارفهم وعمائمهم يرمون بها إليه، فقال أبو دلف: قد قبلها وأعاركم لبسها، وسأنوب فى ثوابه عنكم. ثم طلب من أبى تمام أن يكمل قصيدته[2].

وهذه الأبيات الحماسية فى القصيدة، وإن كانت بعيدة عن جو الحروب البابكية، إلا أن الصلة المعنوية بينهما وثيقة، وكأنما أراد بها أبو تمام أن يمهد للحديث عن بطولة أبى دلف فى الحرب البابكية، وأن يربط بطولته بأصول قديمة تمتد جذورها إلى أجداده الذين هزموا الفرس وهم فى أوج قوتهم، كما هزمهم هو فى تلك الحرب تحت إمرة بابك وزعامته.

ولذا يصل الشاعر حديثه عن تلك الأمجاد القديمة بحديثه عن الحرب البابكية،

---

(١) يذكر يوم ذى قار المشهور، وفيه قاتلت بنو عجل إلى جانب بنى شيبان ضد الفرس وهزموهم. وتفاصيل هذا اليوم موجودة فى عديد من مصادر التاريخ والأدب.

(٢) أنظر أخبار أبى تمام ص ١٢٤. والأغانى ترجمة أبى تمام ج ١٧ ط دار الشعب سنة ١٩٧٠.

مشيدا بالمواقف البطولية لأبى دلف فيها . ومؤكدا ثبوتها بشهادة الأفشين وإقراره على نحو ما قال فى قصيدته السابقة . فالأفشين يعلم أن أبا دلف هو الذى أشار عليه بالرأى السديد ، وبصره بالعواقب والمخاطر حين أدلهمت الأمور، وتغبرت وجوهها، ولم تعد تجدى حيالها تجارب المجربين .

ويحدد هذا الموقف بأنه كان فى يوم أرشق الذى جرى فيه أول لقاء بين الأفشين وبابك ، ولم يكن فضل أبى دلف فى صواب رأيه فحسب ، وإنما كان فى سيفه الذى انتضاه بارقا كالنجم اللامع فى الدجنة ، فحسم به الموقف حسما . وهكذا كان شأن أبى دلف فى كل خطب من الخطوب التى زخرت بها تلك الحرب ، إذ يجابهها بالحنكة والحزم ، والشجاعة وحسن التدبير ، فتكون فعالة أقوى أثرا وأمضى من السيوف الباترة :

وقد علمَ الأفشينُ وهْو الذى به	يصانُ رداء الملكِ عن كلِّ جاذبِ
بأنك لما اسحنكَكَ الأمرُ واكتسى	أهابىَّ تَسْفِى فى وُجوه التجاربِ[1]
تجلَّلْتَه بالرأىِ حتى أريتَه	به مِلْءَ عينيه مكانَ العواقبِ
بأرشقَ إذ سالتْ عليهم غمامةٌ	جرتْ بالعوالى والعتاقِ الشوازبِ
نضوتَ له رأيين سيفاً ومنصلاً	وكلٌّ كنجمٍ فى الدُّجُنَّةِ ثاقبِ
وكنتَ متى تهززْ لخطبٍ تغشَّه	ضرائبَ أمضى من رقاقِ المضاربِ[2]

ونلاحظ أن الشاعر يعيد فى هذه الأبيات ما ذكره فى القصيدة السابقة ، من إبداء الرأى السديد لأبى دلف فى وضع الخطة لمعركة أرشق ، وأخذ الأفشين برأيه

---

(١) اسحنكك : أسود وأظلم . أهابى : جمع إهباء : وهو الغبار .

(٢) ضرائب : جمع ضريبة وهى الخليقة أو الشيمة

الذى كان عاملا رئيسيا فى إحراز النصر . وهذا يعنى تأكيدأبى تمام لحدوث ذلك، بينما لا تمدنا مصادر التاريخ بأية معلومات عن هذا الأمر . ولنا أن نتساءل الآن : هل نعتبر ما ذكره مجرد مديح فيه تزيد بعيد عن الحقيقة ، على ماجرت عليه عادة الشعراء فى مدائحهم ، أم نعتبره من الحقائق الواقعة فى أحداث تلك الحرب وأن مصادر التاريخ أغفلتها ، ولم تعن بتسجيلها ؟ ، إننى أرجح اعتبار قول أبى تمام فيه كثير من الحقيقة . لأنه ليس فى حاجة لأن يتزيد أو يغالى فى مدح أبى دلف ، وهو قائد شجاع تحفل حياته بكثير من المواقف المجيدة ، التى تتيح للشاعر أن يشيد بها ما اتسع له القول ، فما الذى يدفعه إلى الكذب ، وإلى أن ينسب له موقفا مختلفا لا حقيقة له ؟ إننى أعتقد أن مثل هذا اللون من الكذب أو الإدعاء لم يكن ليرضى أبا دلف ، بل ربما قد يؤذى نفسه الأبية ، ويقع منها موقعا كريها .

ويواصل أبو تمام حديثه ، مصورا ما كان لمواقف أبى دلف من أثر حميد فى نفس الخليفة المعتصم ، جعله قريبا إلى قلبه ورفعه لديه إلى أعلى المراتب بين رجاله، فلا ينسى له هذا الفضل أبدا ، وإن نسيه أبو دلف نفسه . وإذا ما ذكره حقود حاسد بما يسىء إليه لدى الخليفة ، بطل قوله ، وخاب دسه ، وإذا نأى به المقام بعيدا عنه، فإن فعاله تقربه إلى نفسه وتجعل ذكره خاطرا بباله دواما ، لا يغيب ولا ينسى ، وإن كان هو غائبا . وتلك مكانة لا يحتلها لدى الخليفة إلا من كان قواما بعظائم الأمور :

فذكْرُكَ فى قلب الخليفة بعدها خليقتُكَ المُقْفَى بأعلى المراتب (١)

فإن تَنْسَ يُذْكَرْ أو يقل فيك حاسدٌ يَفِل قولهُ أو تنأَ دارٌ تصاقب

فأنت لديه حاضرٌ غير حاضر وأنت لديه غائبٌ غير غائب

---

(١) المقفى : مأخوذ من القفية وهو الشىء الذى يخص به الإنسان ويؤثر به .

ونلاحظ أن الشاعر قد عمم الحديث عن الحرب ، ولم يذكر من وقائعها غير وقعة أرشق . ولعله لم يدخل فى تفاصيل أحداثها الأخرى خشية الإطالة ، واكتفى بذكر هذه الواقعة كشاهد يبنى عليه تشخيص الجانب البطولى وإبرازه فى شخصية أبى دلف .

ويختم الشاعر قصيدته بأبيات يزكى فيها فنه الشعرى الذى يقدمه لشاعر بصير بفنون القول ، يعرف له قدره ، ويحفظ له منزلته ، ويجزى شاعره الجزاء الأوفى وكان ماتوقعه أبو تمام وما أمله من ذلك البطل الشاعر أبى دلف ، فما أن انتهى من إنشاده حتى قال : ادفعوا الى أبى تمام خمسين ألف درهم وواقه انها لدون شعره . ثم قال له : ما مثل هذا القول الا ما رثيت به محمد بن حميد ، وتمنى لو أنه كان هو المقتول ، وأن ذاك الرثاء قيل فيه[1] . وهذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على جلال الأثر الذى كان يطبعه الشعر الحماسى فى قلوب هؤلاء المحاربين الأبطال .

وهذه القصيدة وإن كانت أبياتها المتصلة بالحروب البابكية قليلة ، إلا أن الروح الحماسية غالبة عليها . وقد أشرنا إلى العلاقة الوثيقة التى تربط بين إشادته بالأمجاد القديمة وبين إشادته بمواقف أبى دلف فى حرب بابك ، التى نعدها عاملا أساسيا فى إذكاء الجو الحماسى للقصيدة بصورة قوية .

والظاهرة التى تلفت النظر أن أبا تمام ذكر الأفشين فى كلتا القصيدتين اللتين مدح بهما أبا دلف ، بينما لم يذكر اسمه مطلقا فى قصائده التى مدح بها أباسعيد الثغرى، فهل نستطيع أن نجد تفسيرا لذلك ؟ وهل ذكره للأفشين فى قصيدتى أبى دلف، وعدم ذكره فى قصائد أبى سعيد ، كان متعمدا أو مقصودا ؟ إن تفسير هذه الظاهرة ،

(١) أنظر أخبار أبى تمام ص١٢٤ ١٢٥ والاغانى ترجمة أبى تمام ج٢٧ ط دار الشعب سنة ١٩٧٠ .

والإجابة على هذه التساؤلات: يكمن فى النزعة القبلية التى يمثلها أبو تمام إلى حد بعيد، فهو طائى متعصب لطائيته ، وإن كان تعصبه خافيا مستترا ، لا يظهر بصورة واضحة إلا فى فخره ، ولكنه حين مدح أبا سعيد — وهو طائى مثله — تعمد إهمال ذكر الأفشين تماما، حتى لا يظهر أبا سعيد عاملا تحت إمرته ،ولكى يسند إليه الفضل كله فى تصريف الأمور وتدبيرها ، وفى قيادة الجند وإحراز النصر ، وهذا هو الخط الذى سار عليه فى مدائحه له ، كما سبق أن أوضحنا . ولكنه بالنسبة لأبى دلف لم يكن يعنيه هذا الأمر كثيرا ، لأنه ليس طائيا كأبى سعيد ، ولن يضيره ذكر الأفشين أو التلميح بقيادته له ما دام يوفيه حقه فى الإشادة ببطولته والإعلاء من شأنه .

وبهاتين القصيدتين نختتم حماسيات أبى تمام فى الحروب البابكية، تلك الحروب التى عايشها الشاعر ، منذ مقتل ابن حميد إلى النصر النهائى . واحتلت من نفسه ووجدانه ركنا رحيبا . فسجل لنا صفات خالدة من البطولة والمجد بفنه الشعرى الرائع ،أضفى بها كثيرا من الجلال والبهاء على وقائع التاريخ .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

١ — أبحاث فى الأدب العربى — الدكتور عبد المحسن عاطف سلام .

ط دار المعارف سنة ١٩٦٨ م

٢ — أبو تمام الطائى — حياته وحياة شعره — الدكتور نجيب البهبيتى .

ط دار الكتب سنة ١٩٤٥ م

٣ — أبو تمام الطائى — خضر الطائى — ط بغداد سنة ١٩٦٦ م

٤ — أخبار أبى تمام — أبو بكر الصولى — تحقيق خليل عساكر وآخرين

ط لجنة التأليف سنة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧ م .

٥ — الأخبار الطوال — أبو حنيفة الدينورى

ط ليدن سنة ١٨٨٨ م .

٦ — أسرار الحماسة — سيد المرصفى — ط أولى سنة ١٩١٢ م

٧ — الأغانى — أبو الفرج الأصفهانى — تحقيق ابراهيم الإبيارى .

ط دار الشعب سنة ١٩٧٠ م

٨ — الأمالى — أبو على القالى — ط دار الكتب سنة ١٩٢٦ م

٩ — الأنساب — السمعانى .

١٠ — البدء والتاريخ — أبو زيد البلخى

ط باريس سنة ١٨٩٩ — ١٩٠٧ م .

١١ — تاريخ الأدب العربى — بروكلمان الدكتور عبد الحميد النجار

ط دار المعارف سنة ١٩٦١ م

١٢ — تاريخ الإسلام — الدكتور حسن ابراهيم

ط سادسة سنة ١٩٦٢ م

١٣ – تاريخ ابن عساكر ط دمشق سنة ١٣٢٢ م .

١٤ – تاريخ البيهقي – ترجمة الدكتور يحيى الخشاب

١٥ – تاريخ الخلفاء – أبو بكر السيوطي

١٦ – تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري

الدكتور نجيب البهبتي ط سنة ١٩٥٠ م

١٧ – تاريخ الطبري – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم

١٨ – تاريخ اليعقوبي – ط ليدن ١٨٩٢ م

١٩ – ديوان أبو تمام – شرح الخطيب التبريزي – تحقيق محمد عبده عزام

ط دار المعارف

٢٠ ديوان أبي تمام – شرح أبو بكر الصولي مخطوط

٢١ – الروم – الدكتور أسد رستم

٢٢ – السيادة العربية – فان فلوتن – ترجمة الدكتور حسن ابراهيم

ط القاهرة سنة ١٩٣٣ م

٢٣ – شرح الحماسة للطائي – أبو زكريا التبريزي

٢٤ – شذرات الذهب – ابن العماد الحنبلي – ط القدسي سنة ١٣٥٠ هـ

٢٥ – شعر الحرب في أدب العرب – الدكتور زكي المحاسني

ط دار الفكر العربي

٢٦ – ضحى الإسلام – أحمد أمين

ط لجنة التأليف سنة ١٩٣٨ م

٢٧ – طبقات الشعراء – ابن المعتز – تحقيق عبد الستار فراج

ط دار المعارف

٢٨ — العصر العباسى الأول — الدكتور شوقى ضيف
ط الثالثة دار المعارف

٢٩ — عيون التواريخ — ابن شاكر الكتبى — مخطوط

٣٠ — فتوح البلدان — احمد بن يحيى البلاذرى

٣١ — الفرق بين الفرق — ابو منصور عبد القادر البغدادى
ط القاهرة سنة ١٦٢٨ هـ ١٩١٠ م

٣٢ — فرق الشيعة — ابو محمد الحسن النوبختى
ط استامبول سنة ١٩٣١ م

٣٣ — فضائح الباطنية — الإمام ابو حامد الغزالى
نشر الدكتور عبد الرحمن بدوى

٣٤ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — الدكتور شوقى ضيف
ط خامسة دار المعارف .

٣٥ — الفهرست — ابن النديم
ط لايبسيك سنة ١٨٧١ م القاهرة ١٣٤٨ هـ

٣٦ — فى النقد الأدبى — الدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف

٣٧ — الكامل فى التاريخ — ابن الأثير ط بولاق سنة ١٢٧٤ هـ

٣٨ — مروج الذهب — ابو الحسن المسعودى ط القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ

٣٩ — معجم البلدان — ياقوت الحموى ط وزارة المعارف

٤٠ — الملل والنحل — الشهرستانى ط القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

٤١ — الموازنة — الآمدى — تحقيق محيى الدين عبد الحميد ط التجارية

٤٢ — النظام فى شرح المتنبى وأبى تمام — ابو البركات المبارك بن احمد — مخطوط

٤٣ — النقد المنهجى عند العرب — الدكتور محمد مندور ط ثانية

٤٤ — هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام — يوسف البديعي
نشر محمود مصطفى ط سنة ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م
٤٥ — الوزراء والكتاب — الجهشياري ط القاهرة سنة ١٩٣٨م
٤٦ — وفيات الأعيان — ابن خلكان ط بولاق سنة ١٢٩٩هـ

المعاجم ودوائر المعارف

٤٧ — تاج العروس في شرح القاموس — الزبيدي
٤٨ — دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية
٤٩ — الصحاح — الجوهري
٥٠ — القاموس المحيط — الفيروزبادي
٥١ — لسان العرب — ابن منظور
٥٢ — المعجم الفارسي الإنجليزي — شتينجاس

فهرست

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب
٥٢٨٦ / ١٩٧٨م
الترقيم الدولى
٩٧٧ — ٧٢٥٧ — ٧٦ — ٧

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة

كشفة بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٧ - ١٥	الأبية	الأدبية
١٦ - ٩	أوتهم وبين معتقداتهم	أو معتقداتهم
٢٣ - ١٩	تفوز	تَفَوَّرَ
٣٤ - ١٦	جدير	حرير
٣٥ - ٥	جُدّت	حذت
٤٣ - ٥	لى	له
٤٣ - ٨	سيمل	سيملى
٤٤ - ٣	حقيمة	حتمية
٤٦ - ٩	كان	كأن
٤٦ - ١٠	وماؤم	دماؤهم
٤٨ - ٨	المَيْون	المَيْوق
٤٩ - ٣	الن	من
٥٠ - ٢	لعميدها	لتعيدها
٥٥ - ٤	حناب أبى	جناب أبى
٥٥ - ٥	جارتك ـ الرى	جاءتك ـ البرى
٥٥ - ١١	خطر	خطرا
٥٥ - ١٢	تَرْبَ	تَرْبَ
٥٩ - ١	مقسهل	مُتَسَهِّل
٦٠ - ١٢	خبى	خَبِى
٦١ - ١٦	مناوثا	مناوئاً

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٦٢—١٦	المنْعَم	المُمَنَّعَ
٦٢—١٧	أرَ ات	أزَلْتَ
٦٣—٤	الثّملان	الثَّقَلان
٦٤—١	والشَّفْشَمين	والشَّمْشَمَين
٦٥—٢٢	الشرق	الشدق
٦٧—٧	رسمه	وسمه
٦٧—٢٠	سمقَتَه	سَمَّتَهُ
٦٨—١٨	وعلو	وعلوا
٦٨—٢١	نهاونو	نهاوند
٧٠—١	ومحض	ومخض
٧٢—٦	المباغين	الباغين
٧٢—١١	قُدما	قَدماً
٧٢—١٨	الريمة	السريعة
٧٢ ١٩	قدا تصرف	قد انصرف،
٧٥—١٥	سالة	سألَهُ
٧٩—١٥	« خسن »	« خش »
٧٩—١٦	وستاق	رستاق
٨١—٤	خشن	خش
٨٢—١٧	حدوث	جبروت
٨٥—٣	فحسبوا	فحبسوا

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٨٥ — ١١	ونقص	ونقض
٨٨ — ١٢	لوجوا	لوحوا
٨٩ — ١	ببخار آخذاه	ببخاراخذاه
٨٩ — ١٧	فتن	فتح
٩٠ — ٢	ملى	من
٩٠ — ٢	التى أن	التى يمكن أن
٩٠ — ٩	هو	هو
٩٠ — ١٠	رغذ	رغد
٩٠ — ١٨	يستطيع	يستطع
٩٣ — ١٤	أن	وكادوا أن
٩٤ — ٧	فى	به فى
٩٤ — ٢٠	لى	فى
٩٦ — ١٠	أولاء	أدلاء
٩٦ — ١٢	وربطوا	ورابطوا
٩٧ — ١٥	قتلت	قبلت
٩٩ — ٤	والقهض	والقبض
٩٩ — ١٤	كتاب	كتابا
١٠٠—١٢	الحراث	للحراث
١٠٢- ١١	حماسة	حراسة
١٠٣—٧	بأحد	أحد

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطـــأ	الصـــواب
١٠٣ — ١٤	إزلاله	إذلاله
١٠٣ — ١٩	فى الأرض	من الأرض
١٠٤ — ٦	وتوجه	توجه
١٠٦ — ٢	مفازة	مفازة
١٠٦ — ٣	والضلوعُ	والضلوعَ
١٠٧ — ١٤	الدمح	الرمح
١٠٩ — ٧	يـ ى	تُرَى
١١٠ — ٢	الفائرة	الفائرة
١١٠ — ١٠	تبرر	تبرز
١١٠ — ١٩	بين	بيد
١١٠ — ٢٠	اتنقص	لتنقض
١١٥ — ٢	٢٧٠ هـ	٢٠٧ هـ
١١٥ — ١٨	عدا	غدا
١١٥ — ٢٠	الوصف	الوحف
١١٧ — ٥	الحسن	الحش
١١٧ — ١٤	القبائل	القنابل
١١٨ — ٨	سربالا	سربالا لا
١١٨ — ١١	سربا	سربالا
١١٨ — ١٣	الاعتداء	الاعتداد
١١٩ — ٣	ستحُار	سُعار

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٢٠ — ٣	الحقيقية	والصورة الحقيقية
١٢٠ — ١٥	الجاملة	الجامل
١٢٠ — ٢٠	بوئل	بو بْ ل
١٢٠ — ٢١	فانذعرت	فابذعرت
١٢١ — ١	الأمالى	الأقالى
١٢١ — ١	الحامل	الجامل
١٢١ — ٢	ليهبيه	لنهبيه
١٢٢ — ٦	عائذا	عائذا
١٢٢ — ١٥	الذواتل	الذوابل
١٢٣ — ٢٠	سيفوفه	سيوفه
١٢٥ — ٨	المتصم	المعتصم
١٢٨ — ٥	بيحر	كبجر
١٢٨ — ٨	وجذب	وجدب
١٢٩ — ١٣	ماكان	شأن
١٢٩ — ١٤	كما	وكما
١٣١ — ٧	منية	كان رشق منية
١٣٤ — ١١	البنـــد	البـــذ
١٣٥ — ٦	ورت	وبرّت
١٣٥ — ١١	وأرحال	وأدحال
١٣٥ — ١٥	حبال	حيال
١٣٥ — ١٨	ودَرْروذا	ودَرْوَذا
١٣٥ — ٢٠	منعطف	مُتعطّف
١٣٧ — ٢	ذلك	بذلك

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٣٧ — ١١	وقتُ	وقتَ
١٣٧ — ١٣	تنلهُ	تنلْهُ
١٣٧ — ١٨	ركن	وكنْ
١٣٨ — ٥	غارت	غارة
١٣٨ — ١٣	يكن	يكدْ
١٣٩ — ١٥	شدا	شد
١٤٠ — ٩	والنحَر	والنَّحْر
١٤٠ — ٢٤	« سالبا »	« ساليا »
١٤٣ — ١٣	أمى	أمسَى
١٤٣ — ١٥	الغرِّ	الغِرَّ
١٣٣ — ١٧	فقمق	فتمعقُ
١٤٤ — ٢٢	بيت شعر ساقط	انظر هامش[1]
١٤٥ — ٢٠	جـ ٣	جـ ٤
١٤٧ — ١٤	وكان	وكان الله
١٤٧ — ١٦	والزائد — الذهر	والذائد — الذعر
١٥٠ — ٣	سعيد بن	سعيد محمد بن
١٥٠ — ١٠	يقل	يفل
١٥٢ — ١٠	أنحتْ	أنحَتْ
١٥٣ — ١٣	إتصال أبى	اتصاله بأبى
١٥٤ — ٣	وصيع	وُضيعَ
١٥٤ — ١٦	أمام	أقام

(١) أخلاَّ بماء العين فى المنزل الدثر ... وما مثلُ دمعى فى المنازل لا يجرى

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الصواب	الخطأ
١٥٥ — ٣	مقدمة	مقدمه
١٥٥ — ٩	يثبت	أن يثبت
١٥٦ — ٩	موناً	موتاً
١٥٩ — ٤	رجاها	رحاها
١٦٠ — ٤	بدائية	فدائية
١٦٠ — ١٧	السلام	الاسلام
١٦١ — ١	قرا الناسَ	قرا الناسُ
١٦١ — ١٢	عناده	عتاده
١٦٢ — ٢	العظام	الفطام
١٦٢ — ١٠	بعدؤه	بعد
١٦٢ — ١١	مغار	مغارا
١٦٣ — ١١	كحجا	لَحجا
١٦٤ — ١	استقل	استقبل
١٦٤ — ١٣	حلَّت	جلَّعَ
١٦٥ — ١٧	حقيقها	حقيقتها
١٦٦ — ٣	كرت	كرْبَ
١٦٧ — ١٣	والبواسل	البواسل
١٦٧ — ١٥	هو جأ	هو جاً
١٦٧ — ١٦	تربى	تربى عليها
١٦٨ — ٣	فرم	قَرْمِ
١٦٩ — ٢	آثاره	اثـارِه
١٧٠ — ٦	لامرىءٍ	لا مرىءٍ

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٧٠ — ١٥	السيوف	والسيوف
١٧١ — ٦	الرِّفاق	الرِّقاق
١٧١ — ٩	الأرض	الأرضَ واسعةٌ
١٧١ ٩	يضق	تضق
١٧١ — ١٤	ينقص	ينقض
١٧٥ — ١٢	مـد	مُذْ
١٧٥ — ١٦	أخلفة	أخلفـه
١٧٦ — ٧	جناجن	جناجنُ
٧٦١ — ١٠	حيرُتها	حيرَتها
١٧٦ — ١٢	بين	بِن
١٧٦ — ٢٠	يفصح	يُفضَح
١٧٧ — ١٦	تهـدد	تهدر
١٧٧ — ٢٠	فـكاد	فـكأن
١٧٨ ١	ماقوا	إذ ماقوا
١٧٩ — ٧	تستجيرٌ	تستجيرُ
١٧٩ — ١٠	الحرمان	والحرمان
١٨١ — ١٧	ونجـده	ونجـدة
١٨٢ — ٩	والمتعصِّد	والمُتقصِّد
١٨٢ — ١٦	معنر — ومملقة	معنى — ومملقه
١٨٥ — ٦	وقمت	وقمت به
١٨٦ — ٥	مانحٍ	ماتحٍ
١٨٦ — ١٥	وصباًصيبهم	وصياصيهم

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
١٨٦ — ١٦	ويفتدى	ويقتدى
١٨٧ — ١	مزيد	بن مزيد
١٧٨ — ٣	ذكر	ذكرا
١٨٨ — ٧	ق	فى
١٨٨ — ١٢	سف	سيفُ
١٨٨ — ١٢	يسر	يشر
١٩٠ — ٦	السد	السعد
١٩٠ — ١٣	اللؤلؤة	اللؤلؤ
١٩٠ — ٢٠	بحَلها	بحَلْيها
١٩١ — ٧	أهله	من أهله
١٩١ — ١٠	المهاد — وقدقد	المهارَى — وفدْفَد
١٩١ — ١١	يقلبَ — شِقة	يقلبُ — شقةَ
١٩١ — ١٢	حداكَ	جداكَ
١٩١ — ١٣	رخَّى دار	رحّى دارَتْ
١٩٢ — ١٠	وعهد — وتصدعَ	وعهدى — وتصدعُ
١٩٢ — ١١	يشعْشَع	تشعْشَعُ
١٩٢ — ١٥	الزَّوْرَ	الزَّورُ
١٩٣ — ٢	يضرَع	يصرَعُ
١٩٤ — ٤	انفذت	أنْفذتَ
١٩٤ — ١٢	فهو	فهو فى
١٩٤ — ١٦	توليد	توليد المعانى
١٩٥ — ٤	المصيف . . .	انظر هامش (١)

---

(١) المصيف ، وان كان يراه فى وابل الدماء كأنه المربع . وهو لشدة عبوسه قد كسا كل ....

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطــأ	الصــواب
١٩٥ — ٩	آثار	أثار
١٩٥ — ١٤	ويرى	يُرَى
١٩٥ — ١٥	يَوَمُّه	يَؤُمه
١٩٥ — ١٦	الشطر الثانى ساقط	انظر هامش(١)
١٩٥ — ١٧	شعقتَ	شققتَ
١٩٥ — ٢١	الخبل	للخيل
١٩٦ — ٤	ظلّماً — وطلّع	ظُلّماً — وُظلّعُ
١٩٦ — ١١	لصدور	لصدوره
١٩٦ — ١٢	المثال	المال
١٩٦ — ٢١	أحذتَ بضيمه	أخذتَ بضبْعه
١٩٧ — ٢	فتسمع	فَتَسْمعُ
١٩٧ — ١٦	ذلك	ذلك أن
١٩٨ — ١٠	بقوادها	لقوادها
١٩٨ — ١٧	شلكاهٌ	سلكاهُ
٢٠١ — ١١	والايين	الآيِنَ
٢٠٣ — ١٤	غير أنهمْ	غيرانُهمْ
٢٠٣ — ١٧	الأحشار	الأحشاءُ
٢٠٤ — ٣	وبصورة	ويصوره
٢٠٤ — ١٠	المعانى - برُفل	المعالى - يرفلُ
٢٠٥ — ٧	جهنم - الجَلود	جهنَمَ - الجُلود
٢٠٥ — ٩	شخصىَ	شخصَ

(١) الشطر الثانى : غَريضا ويَرْوَى غيرُهنّ فينْقعُ

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم للصفحة والسطر	الصواب	الخطأ
٢٠٦ — ٤	الهزيمة والانكسار	للظفر والانتصار
٢٠٧ — ٩	لبستُ	لبِستُ
٢٠٨ — ٢	الشرقَ	الرُّقَّدِ
٢٠٨ — ١٠	مافى	مالى
٢١٠ — ٥	الثور	الثغورِ
٢١٠ — ١٠	هجال	بجال
٢١٠ — ١٤	للخيل	الليل
٢١٠ — ١٩	أعين ـ فضلهُ	أعَين ـ فضلةَ
٢١١ — ١٥	يِحتفى	أن يِحتفى
٢١٤ — ١٧	الفرد	انفرد
٢١٤ — ١٨	عن	على
٢١٥ — ١٦	الأصم	بالأصم
٢١٦ — ٦	أمرا	أمدا
٢١٩ — ٦	المالى ـ فأحجف	المال ـ فأجحف
٢٢٠ — ٥	لشيب رأسها . . .	لقد طلعت نجومك بالسعود
٢٢٦ — ١٠	تلتقى	تلقى
٢٢٧ — ١٤	يِحده	يِحسده
٢٣٠ — ٨	كبر	كبرا
٢٣٠ — ١١	سنة	سبة
٢٣٠ — ١٣	تخمد	تحمد
٢٣١ — ٢	شغفا	شعفا
٢٣١ — ٣	ملةٌ	ملةٌ
٢٣٢ — ١	حلقا	حلقا
٢٣٣ — ٣	عليه	عليهم
٢٣٣ — ٦	ظلمانها	ظلماتها

كشف بتصويب الأخطاء الواردة فى الكتاب

رقم الصفحة والسطر	الخطأ	الصواب
٢٣٣ — ٩	مطفا	قُطَنْفا
٢٣٤ — ١	وأرينا	ورأينا
٢٣٤ — ٥	تنفص	تنغص
٢٣٤ — ١١	النفع - يحادر	النَّقْع - يحاذرُ
٢٣٥ — ٣	سقييت	سُقيتْ
٢٣٥ — ٥	فهدى	فيهُ لدى
٢٣٦ — ٤	حماسية	حماسة
٢٣٦ — ١١	ومين	وَمتنَ
٢٣٦ — ١٢	أزرت	أزَرْت
٢٣٦ — ١٥	وأغشيتم	وأغشيتهم
٢٣٦ — ١٦	الحيف	الحجفَ المحبوكَ
٢٣٦ — ١٨	الإعماد	الأغماد
٢٣٧ — ١٣	اللصان	المصان
٢٣٨ — ٩	ولا	ذلاً
٢٣٩ — ٢	يقول :	أنظر هامش[١]
٢٣٩ — ٦	بنعمة	بَنغْمة
٢٤٠ — ٥	لجْيمُ	لجَيمٌ
٢٤٠ — ٦	الحصين نحل	الحصن نجلُ
١٤١ — ١	عروس	عروش
٢٤١ — ١٠	بينما	بينهما
٢٤٢ — ١١	يصانٌ	يصانُ
٢٤٢ — ١٦	تفشه	تُغشّه
٢٤٣ — ١٨	فذكرَك	فذكرُك

(١) اذا العبس لاقتْ بى أبا دلف فقد تقطَّع ما بينى وبين النوائب


Bibliotheca Alexandrina
03362022